

لیست لندن وحدها

تألیف : حسین قدری



دارالمعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

قذرى ، حسين .

ليست لتتن وحدها .

تأليف : حسين قذرى .

- ط ١ - القاهرة : دار للمعرفة ، (٢٠٠٨) .

٢١٢ ص ٢١١ سم .

تكم : ٩ - ٧٢١٩ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .

١ - بريلقيا - وصف ورللات .

١ (لقون .

لوى ٩١٤.٢

١/٢٠٠٧/٢٤

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٦٠٦٤

تصميم الغلاف : الفنان شريف رضا

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

الإهداء

إلى كل الأصدقاء الذين عرفتهم في بريطانيا خلال الثلاثين عاماً
التي قضيتها في هذا البلد الثلج، البارد ممطر شتاءً والبارد ممطر صيفاً
والبارد ممطر طول السنة.. الأصدقاء الجيدين والأصدقاء اللى عايزين
قطع رقبتهم وقتلهم أحسن وإلى كل رفاق الغربة وزملاء المهجر.. غفر
الله لنا جميعاً.

حسين قدرى

مقدمة

عندما ذهبت إلى لندن، سائحاً، في صيف عام ١٩٧٧، في طريق عودتي من أمريكا إلى مصر؛ كان في نيتي أن أبقى فيها أسبوعاً واحداً.. وكانت هذه هي زيارتي رقم ١٧ للندن على امتداد حياتي الصحفية حتى وقتها.. لكن رحلة الأسبوع الواحد طالت «قليلاً» لتصبح ٣٠ سنة حتى الآن!!..

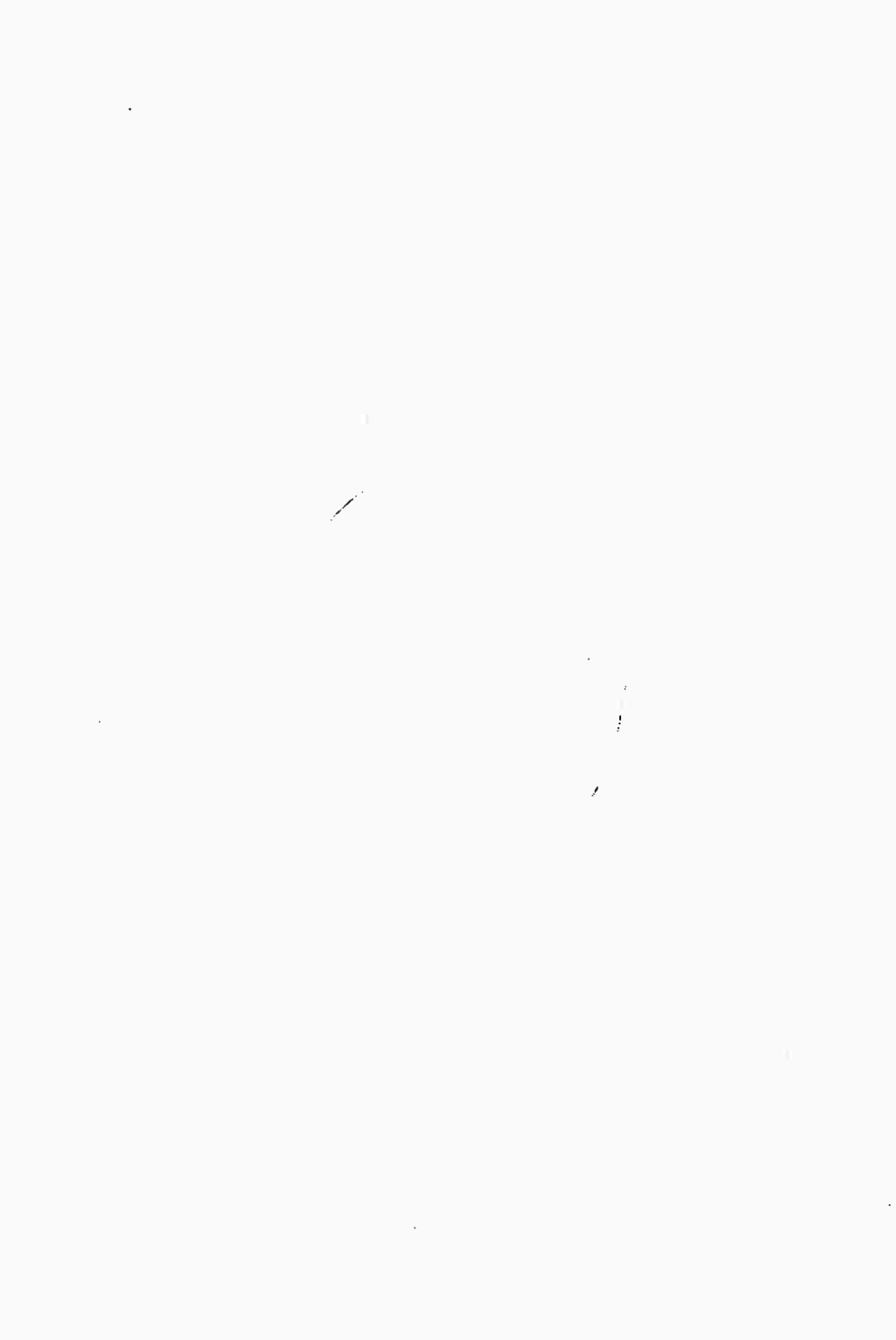
وحين استقرت بي الحياة في لندن وأصبحت مقيماً بها بشكل دائم؛ اكتشفت فجأة شيئاً غريباً جداً: اكتشفت أنني على رغم زياراتي لإنجلترا ١٦ مرة سابقة على بدء استقراري فيها؛ لم أر من مدن إنجلترا غير مدينة لندن وحدها.. وكأن بريطانيا كلها ليس فيها إلا مدينة واحدة هي لندن..

ووجدت أنه عيب جداً أن أكون معدوداً ومحسوباً على كتاب أدب الرحلات في مصر والعالم العربي، والآن أنا مقيم إقامة دائمة في إنجلترا، ثم لا أرى من كل إنجلترا غير لندن فقط. وكان أن بدأت جولة طويلة في بريطانيا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً؛ حتى أستطيع أن أضع بين يدي القارئ هذا الكتاب.. فبريطانيا ليست لندن وحدها..

وبالنسبة: إنجلترا ليست هي بريطانيا.. (إنجلترا) مجرد قسم واحد من أربعة أقسام تتكون منها بريطانيا: إنجلترا - إسكتلندا - ويلز - أيرلندا الشمالية.. ولا يستطيع واحد أن يقول: إنه إنجليزي من إنجلترا إلا إذا كان من إقليم (إنجلترا) بالذات.. وبالتالي فإنه يقول: «أنا بريطاني من إنجلترا» أو «أنا بريطاني من إسكتلندا» أو «أنا بريطاني من ويلز» أو «أنا بريطاني من أيرلندا الشمالية».. وأيضاً بالتالي فإن الجنسية التي حصلت عليها أنا بعد سنوات من إقامتي في بريطانيا هي الجنسية (البريطانية) وليست الجنسية (الإنجليزية)، فليس هناك الآن جنسية إنجليزية!!..

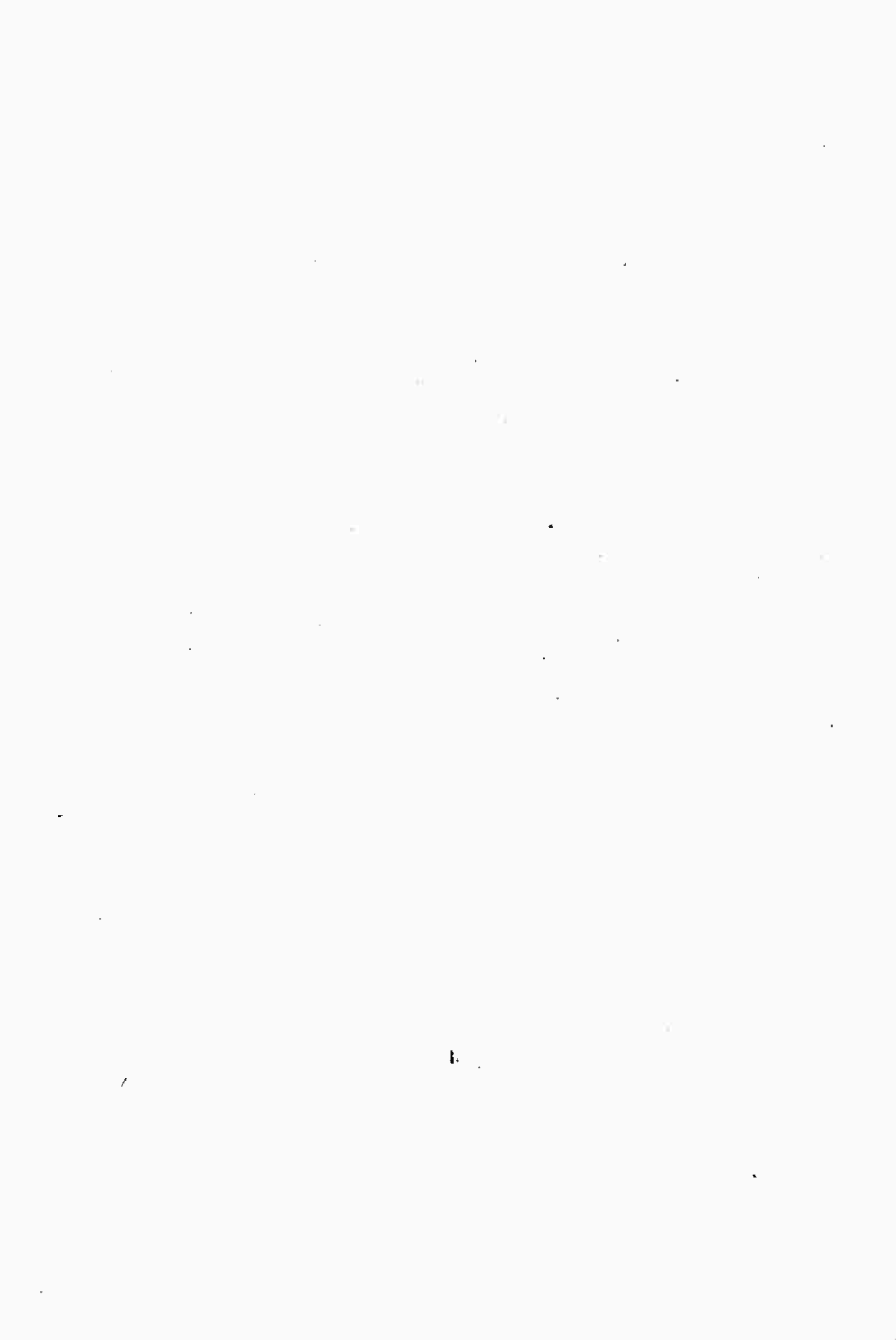
أرجو ألا أكون قد لخبطتكم زيادة!!

حسين قدرى



جامعة أوكسفورد.. أقدم جامعات بريطانيا.. الجامعة
التي أشهر شخصياتها: ملك.. وعجلاتي.. وممثل..
و.. لورانس العرب !!

- ★ رئيس جمهورية و ٢ ملوك و ١٧ رئيس وزارة.. تخرجوا في أوكسفورد..
- ★ أنديرا غاندي ومارجريت تاتشر.. مرتا من هنا!!
- ★ حين وقعت الحرب بين أوكسفورد وكمبريدج!!..
- ★ الجامعة التي ليس لها «حرم جامعي»!!..
- ★ كليات لا تقبل الطالبات.. ولا الطلبة!!..
- ★ أصغر طالبة في جامعة أوكسفورد.. عمرها ١٠ سنوات!!
- ★ العجلاتي الذي تبرع للجامعة بـ ٣٠ مليون جنيه!!
- ★ أقارب الدرجة الثالثة، ومدير حسابات الملكة كليوباترة.. في جامعة أوكسفورد!!..
- ★ نصف دكتورة، لطالب مصري، من جامعة أوكسفورد!!..
- ★ قدماء المصريين، كانوا أيضاً يهاجرون!!..
- ★ البنت الإنجليزية: «قطة مغمضة»!!..
- ★ «عبد الرزاق» يدرس [العلم العبوس]!!..
- ★ المتحذلقون والمتحذلقات.. نسوا اللغة العربية!!..



من منا لا يعرف أوكسفورد!..؟

من منا لم يسمع عن أوكسفورد!..؟

وأنا طبعاً لا أقصد النكتة الشهيرة التي تقول إنه تقدم شاب مصري لوظيفة في مصر، فقال للمدير مباهياً أنه (خريج أوكسفورد).. فسأله المدير ببساطة: «الجامعة ولا الشارع!..؟».. ولا النكتة الأخرى التي تقول: إن أحد تجار شارع الشواربي الشهير في القاهرة أرسل عامله إلى مكتب شركة الطيران ليحجز له تذكرة سفر ذهاب وعودة: (القاهرة - أوكسفورد ستريت - القاهرة)!!.. وهذه المرة ليست نكتة لكنني سمعتها بنفسى أكثر من مرة ومن أناس يفترض فيهم أنهم مثقفون؛ أنهم كانوا يظنون أن جامعة أوكسفورد تقع في أوكسفورد ستريت في لندن!!..! تعالوا معي في هذه الرحلة إلى أوكسفورد.. الجامعة وليست الشارع!!..!

* * *

مدينة أوكسفورد، على بعد ٥٧ ميلاً، أو ٩٠ كيلومتراً، أو نحو ساعة وربع من مدينة لندن.. في تصوري - بعد أن زرت مدن إنجلترا كلها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً - هي بالمقياس الإنجليزي لن نخطئ كثيراً إذا وصفناها بأنها (قرية كبيرة).. فتعداد السكان بها نحو ١٢٠ ألف نسمة فقط.. ومعظم سكان أوكسفورد مرتبطون بالجامعة بصورة أو بأخرى، مباشرة أو بشكل غير مباشر، إن لم يكن بالانتماء الفعلي للجامعة: طالب أو أستاذ أو موظف؛ فعلى الأقل بالتعامل أو بالخدمات.. وبلغت الأرقام: ١١٦ أستاذاً + ٦٥٠ محاضراً + ٧٣٥ معيداً + ٩٠٠٠ طالب + ١٠٠٠ موظف إداري في مختلف إدارات الجامعة = ١١٥٠١ شخص، معظمهم

له أسر وأولاد.. ذلك معناه أن واحداً من كل خمسة من سكان مدينة أوكسفورد يمت بصلة قريى إلى الجامعة ، وأن الأربعة الباقين فى خدمة الجامعة بصورة ما : يبيعونها لوازمها وأكلها وشربها ولبسها وكتبها وترفيهها وباقى احتياجاتها.. أوكسفورد نفسها مدينة جميلة رائعة ، شهيرة بمبانيها التاريخية العظيمة وشوارعها ذات الطابع المميز وحدائقها الواسعة.. ماضيها هو المفتاح لحاضرها.. فكل جزء منها يمثل قطعة من التاريخ.. وحيثما سرت فى شوارع أوكسفورد فإنها ستذكرك بأحداث القرون السابقة والناس الذين عاشوا فى أوكسفورد خلال تلك القرون..



وقد بدأت أوكسفورد تظهر على خريطة إنجلترا فى القرن التاسع فى عهد الأنجلو - ساكسون ، وكان اسمها فى البداية [فورد فور أوكسين].. وقبل أن يصبح عمرها ١٠٠ سنة انقضى عليها الغزاة الدانمركيون عام ١٠٠٢ وأحرقوها عن آخرها.. لكن سرعان ما أعيد بناؤها من جديد.. ثم عندما اجتاح النورمانديون إنجلترا عام ١٠٦٠ بقيادة الملك «ويليام الفاتح» - أول ملوك الأسرة الملكية الحالية والجد الأكبر للملكة إليزابيث الثانية - جعلوا من أوكسفورد مركزاً لقيادتهم ، بعد أن كانت أوكسفورد قد أصبحت المركز والسوق الرئيسى لكل المنطقة الكبيرة المحيطة بها ، حتى صارت عاصمة الإقليم الذى سعى أيضاً باسمها : [أوكسفورد شاير].. ولم يكن مستغرباً أن يولد بالمنطقة واحد من أشهر وأعظم ملوك إنجلترا على امتداد تاريخها ، هو الملك «ريتشارد قلب الأسد» الذى ولد فى منطقة [بومونت] عام ١١٥٧ وحكم إنجلترا وعمره ٣٢ سنة من عام ١١٨٩ لفترة ١٠ سنوات فقط إلى عام ١١٩٩ ، شارك خلالها فى الحروب الصليبية وكانت له قصته الشهيرة مع فارس العرب الملك «الناصر صلاح الدين الأيوبي»..



ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى تحكم فيها إنجلترا من مدينة أوكسفورد.. فمرة أخرى - بعد ما يقرب من ستة قرون - وخلال الحرب الأهلية التى

اندلعت في إنجلترا (١٦٤٢ - ١٦٤٩) والتي قادها عضو البرلمان الإنجليزي «أوليفر كرومويل»، الذي كان من أبناء كمبريدج - المدينة والجامعة - ضد الملك «تشارلز الأول»، واستيلاء «كرومويل» وأنصاره على العاصمة لندن، وتمركزه مع قواته في مدينة كمبريدج ليكون قريباً من مدينة أوكسفورد التي اتخذها الملك «تشارلز الأول» عاصمة مؤقتة له واتخذ من كلية [كرايست تشيرش] مقراً له، بينما اتخذت زوجته الملكة «هنرييتا ماريا» من كلية [ميرتون] مقراً لها هي الأخرى..

ولم يستمر ذلك لأكثر من سنوات قليلة؛ انتهت بانتصار «كرومويل» الذي قطع رأس الملك «تشارلز الأول» وأعلن انتهاء الملكية في بريطانيا وقيام الجمهورية برئاسة عام ١٦٤٩.. إلا إن [جمهورية بريطانيا] لم تستمر إلا في حياة «كرومويل» فقط؛ وبمجرد وفاته عام ١٦٦٠ عادت الملكية مرة أخرى بتولية الملك «تشارلز الثاني».. ونسيت مدينة أوكسفورد ومدينة كمبريدج هذه الصراعات والمعارك والحروب التي اجتاحتها، وعادت كل منهما مدينة جامعية فقط مرة أخرى..

ولم تتأثر مدينة أوكسفورد كثيراً بالطفرة الصناعية التي أثرت في معظم مدن إنجلترا ابتداءً من أواخر القرن الثامن عشر؛ فظلت مدينة جامعية أكثر من أى شئ، آخر، على الرغم من اشتهارها ببعض الصناعات، مثل صناعة البيرة وصناعة المربى والطباعة.. حتى عام ١٩١٢ - قبل الحرب العالمية الأولى - حين بدأ صانع الدراجات الإنجليزي «ويليام موريس» يجرب حظّه في صناعة السيارات في قرية [كاولي].. وفي خلال سنوات ليست كثيرة كانت صناعة السيارة الإنجليزية التي حملت اسم [موريس] قد أصبحت سبباً إضافياً لشهرة مدينة أوكسفورد، وبسببها حصل صانع الدراجات «ويليام موريس» على لقب «لورد نافيلد»!!..

ملحوظة صغيرة لإخواننا العرب أصحاب الملايين وأصحاب المليارات وأصحاب الألقاب: «ويليام موريس» صانع الدراجات ثم صانع السيارات الإنجليزي؛ تبرع على امتداد حياته بـ ٣٠ مليون جنيه - من جنيهاً زمان اللى قد كده - لجامعة أوكسفورد!!..

والكلام إليك يا جارة، ولكل الجيران!! ..

وحين ظهر أول طالب فى شوارع مدينة أوكسفورد كان عمر المدينة عدة قرون من الزمان.. فقد بدأت أوكسفورد تشتهر كمركز تعليمى حين هاجر إليها عام ١١٩٠ بعض أساتذة وطلاب علم (اللاهوت)، حيث كان قد بدأ إنشاء بعض (بيوت الدين) كما كانت تسمى فى ذلك الوقت.. بعد ذلك بـ ٦٠ عاماً، فى عام ١٢٥٠، كانت [جامعة أوكسفورد] قد بدأت فعلاً ورسمياً بإنشاء كلية [يونيفرسيتى]، لتكون أول وأقدم جامعة فى إنجلترا على الإطلاق.. وسرعان ما أصبحت معروفة ومشهورة كواحدة من أشهر وأهم مراكز التعليم فى أوروبا وفى العالم كله، فلم تكن أمريكا قد اكتشفت بعد..

وبعد ما يقرب من تسعة قرون أخرى كانت الجامعة فى أوكسفورد قد أصبحت تضم ٣٥ كلية، من بينها ٦ كليات «حريمى» لا تقبل إلا النساء فقط.. وعلى الرغم من أن قبول البنات فى الجامعة قد بدأ فى عام ١٨٧٨؛ إلا إنهن كن يقبلن كطالبات مستمعات فقط دون أن يحصلن فى نهاية الدراسة على شهادة أو درجة جامعية ما!!.. واستمر ذلك أكثر من ٤٠ عاماً حتى سنة ١٩٢٠؛ حين بدأت الجامعة تقبلهن كطالبات منتظمات يحصلن على نفس الدرجات العلمية التى يحصل عليها الطلاب الذكور.. وعلى الرغم من ذلك فلا زالت نسبة الطالبات فى جامعة أوكسفورد ضئيلة إلى حدٍ ما.. فمن بين سبعة آلاف طالب فى المرحلة الجامعية لا توجد سوى ١١٠٠ طالبة فقط، بنسبة ١ : ٧

وبالمناسبة: فحين نقول (المرحلة الجامعية) فإن المقصود بذلك مرحلة التعليم الجامعى للحصول على درجة الليسانس أو البكالوريوس، لكن مرحلة الحصول على درجتى الماجستير أو الدكتوراة تعتبر (المرحلة العالية)..

الذى يزور أوكسفورد للمرة الأولى قد يسأل: «أين تقع الجامعة؟!»: أو: «كيف أذهب إلى الجامعة?!».. ويكون الرد على هذا السؤال هو أن جامعة أوكسفورد فى

كل مكان وفي أى مكان فى مدينة أوكسفورد، لأنها - مثل شقيقتها الصغرى جامعة كمبريدج - لا تأخذ بنظام «الحرم الجامعى» أو «منطقة الجامعة» الذى تأخذ به أغلب جامعات العالم وباقى جامعات بريطانيا نفسها.. لأن مباني الجامعة منتشرة وموجودة فى كل مكان فى المدينة، تتخلل المدينة والمدينة تتخللها.. بمعنى أننا إذا أردنا أن نبني سوراً حول كليات ومباني الجامعة فسيكون ذلك معناه أننا سوف نبني هذا السور حول مدينة أوكسفورد نفسها!!..

وتضم جامعة أوكسفورد ٣٥ كلية، بنفس نظام الكليات المعمول به فى جامعة كمبريدج، وإن كانت أوكسفورد هى الأصل طبعاً لأنها الجامعة الأقدم، بل إنها الجامعة الأم؛ لأن جامعة كمبريدج انبثقت من جامعة أوكسفورد..

وسطر سريع لتوضيح وشرح هذا النظام؛ هو أننا عندما نستعمل كلمة [كلية] فى أوكسفورد أو كمبريدج؛ فإن المقصود بها يكون المبنى الذى يعيش وينام فيه الطلاب وليس المكان الذى يدرسون فيه.. بمعنى أن الطلاب الذين يعيشون فى كلية واحدة ليسوا بالضرورة يدرسون فرعاً واحداً من فروع العلم.. فطلبة الـ [كلية] الواحدة هنا يدرسون الطب والهندسة والتاريخ والفلسفة والكيمياء وعلم الاجتماع.. إلخ.. يعنى أن المكان أو المبنى الذى نسميه فى بلادنا وفى مختلف بلاد العالم (المدينة الجامعية) يسمى فى أوكسفورد وفى كمبريدج [الكلية].. والمكان أو المبنى الذى نسميه فى بلادنا وفى كل بلاد العالم [الكلية] يسمى فى أوكسفورد وفى كمبريدج [معهد] أو [مدرسة]!!..

* * *

وقد كان لى لقاء مع «جون بامبرا» John Bamborough نائب رئيس جامعة أوكسفورد السابق ورئيس كلية [ليناكلر Linacre] الآن؛ سبب لى بعض الارتباك والحرص فى البداية.. فحين وضعت جهاز التسجيل بيننا وبدأت أوجه إليه أسئلتى مخاطباً إياه بـ «بروفسور بامبرا»؛ استوقفتنى بهدوء ليوضح لى أنه ليس «بروفسور»!!.. فأدهشنى جداً أن يكون نائب رئيس جامعة أوكسفورد أو المدير

الفعلى لأعرق جامعة فى بريطانيا وأشهر جامعة فى العالم لا يحمل لقب «بروفسور» أو «أستاذ».. فتواضعت قليلاً وخاطبته بـ «دكتور بامبرا».. لكنه استوقفنى مرة أخرى، بهدوء أيضاً، ليوضح لى أنه كذلك ليس دكتوراً ولا يحمل درجة الدكتوراة (!!) وأننى أستطيع أن أخاطبه بلقب «مستر» فقط!!.. فتذكرت على الفور الجملة الشهيرة فى بلادنا: (بلد شهادات)، وگرامنا وولعنا المرضى بالألقاب والنعوت الضخمة الفخمة، وفهمت لحظتها فقط معنى أن يكون العالم عالماً فلا يحتاج إلى لقب يزين به اسمه أو بطاقته.. وأذكر أننى كتبت مرة معترضاً على «منح» الموسيقار محمد عبد الوهاب درجة الدكتوراة الفخرية، وأن فى ذلك تقليلاً من قيمته لأنها لن تضيف إليه شيئاً، لأنه أعظم موسيقار أنجبه الشرق ولا يهم إن كان حاصلاً حتى على الشهادة الابتدائية أو لا، لأنه «عبد الوهاب» وذلك يكفى، ولأن أى شاب ممكن أن يحصل على درجة الدكتوراة وعمره ٢٥ أو ٢٦ سنة ولا تستفيد البشرية قليلاً أو كثيراً منه ولا من هذا اللقب العلمى الذى يحمله!!..

قال لى مستر «جون بامبرا»:

يرأس جامعة أوكسفورد (رئيس شرف Chancellor) يظل فى منصبه مدى الحياة أو حتى يستقيل هو.. لكن الذى يدير الجامعة فعلاً هو نائب رئيس الجامعة الذى يشغل هذا المنصب لمدة ٤ سنوات فقط، ويتم اختياره من بين عمداء الكليات.. بينما السلطة الإدارية فى أيدي مجلس تستطيع أن تشبهه بمجلس الوزراء، يتكون من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة والكليات، بمساعدة ما يمكن أن يسمى بالبرلمان، الذى هو مشكل من بين أعضاء الجامعة الحاصلين على درجة الماجستير..

وجامعة أوكسفورد تضم ٣٥ كلية، إلى جانب عدد من المعاهد الخاصة التى ترتبط بالجامعة ويحصل طلابها على نفس الدرجات العلمية.. وتقوم الدراسة فى أوكسفورد على نظام خاص، حيث يشرف كل أستاذ على عدد قليل جداً من الطلاب، ويلتقى بكل واحد من طلبته مرة كل أسبوع ليقراً ما أنجزه من بحثه

ويناقشه فيه ويقوم بتوجيهه.. وإلى جانب ذلك يقوم الأساتذة بإلقاء محاضرات «عامّة» فى فرع العلم الذى يقوم بتدريسه.. والمقصود بـ «عامّة» هنا هو أن من حق أى طالب فى الجامعة، مهما كان تخصصه أو نوع دراسته، أن يحضر محاضرات أى أستاذ حتى لو كانت بعيدة تماماً عن تخصصه - تخصص الطالب طبعاً وليس تخصص الأستاذ!! - لأن العلم هنا ليس خانات وتقسييمات وجداول حصص؛ وإنما هو مباح ومتاح للجميع بشكل مفتوح جداً.. لذا فإنه ليس بمستغرب على الإطلاق أن يجرى طالب إلى جامعة أوكسفورد لكى يدرس فرعاً معيناً من فروع العلم؛ ثم يتحول عنه إلى فرع آخر مختلف تماماً ويعيد تماماً عمّا تهوى إليه نفسه؛ بعد أن يستمع إلى محاضرة أو عدة محاضرات لأستاذ هذا العلم!!..

[تعليق من الكاتب: صباح الخير يا مكاتب التنسيق]

فى جامعاتنا المصرية.. انتهى التعليق!!..

وبالنسبة: فحتى عام ١٨٧٠ لم يكن مسموحاً لأساتذة ومحاضرى جامعة أوكسفورد بالزواج - ولعل ذلك كان من باب الحرص عليهم!! - ثم فى ذلك العام سمح لهم بالزواج، فتزوجوا وكونوا أسراً وعائلات.. وعسى ألا يكونوا نادمين على ذلك الآن!!..

* * *

جامعة عمرها نحو ثمانية قرون؛ لابد أن يكون قد مر فى تاريخها الطويل أحداث وحكايات وأساطير ونوادر.. تعالوا قبل أن نلتقى ببعض طلبة وطالبات أوكسفورد المصريين والعرب؛ نلتقى ببعض حكايات وطرائف جامعة أوكسفورد على امتداد نحو ٨٠٠ سنة:

● فى جامعة أوكسفورد ٦ كليات لا تقبل إلا البنات فقط، هى، حسب تواريخ بداياتها: كلية [ليدى مارجريت هول كولدج] عام ١٨٧٨ - كلية [سومرفيل كولدج] عام ١٨٧٩ - كلية [سانت هيو كولدج] عام ١٨٨٦ - كلية [سانت هيلدا كولدج] عام ١٨٩٣ - كلية [فورمالى أوكسفورد هوم ستوديمنت] عام ١٨٩٧ - كلية [سانت آنز كولدج] عام ١٩٥٢..

● كلية [أوول سولز كولدج] - ومعنى اسمها [كلية كل الأرواح] - أنشأها الملك «هنرى السادس» عام ١٤٣٨ وتعتبر أكبر الكليات على الإطلاق.. والغريب فى هذه الكلية أنها لا تقبل طلبة المرحلة الجامعية ولا حتى طلبة الدراسات العليا؛ إنما تقبل فقط أعضاء هيئات التدريس فى الجامعات، يلتحقون بها كباحثين أو للحصول على درجة الشرف الجامعية.. وقد تخرج منها عدد كبير من أصحاب الأسماء الشهيرة فى عالم السياسة والاقتصاد والعلوم الاجتماعية..

● كلية [يوليول كولدج] التى أنشأها «جون دى يوليول» عام ١٢٥٠، والتى تعتبر واحدة من أكبر ٤ كليات فى جامعة أوكسفورد.. بينما تصر الكلية نفسها على أنها فعلاً الكلية الأقدم.. وقد أعيد بناء معظم مبانيها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.. بينما لازالت تحتفظ حتى الآن ببعض الأبواب الخشبية وعليها آثار الحريق؛ حين أعدم حرقاً حتى الموت فى عام ١٥٥٠ الأساقفة البروتستانت الثلاث: «كرانمر» و «لاتيمار» و «ريدلى» بسبب معتقداتهم الدينية!..

● كلية [كرايست تشيرش كولدج] أو [كلية كنيسة المسيح] التى كان اسمها عند إنشائها عام ١٥٢٥ [كلية كاردينال كولدج]، نسبة إلى منشئها القس «توماس» كاردينال منطقة (ولسى).. وهى بغير جدال أعظم كليات جامعة أوكسفورد، لذا فهى تشتهر باسم آخر من كلمة واحدة هى [ذا هاوس THE HOUSE] أو [البيت] لتعريفها وتمييزها..

● كلية [ميرتون كولدج] التى أنشأها «وولتر دى ميرتون» عام ١٢٦٢.. وهى واحدة من كليات جامعة أوكسفورد الأربعة التى تتنافس على لقب (أقدم كلية).. لكن مبانيها بلا جدال هى أقدم مباني الكليات جميعها حتى الآن.. لأن معظم الكليات الأخرى جددت مبانيها أكثر من مرة خلال القرون الماضية.. وتعتبر كنيسة أكبر كنائس أوكسفورد، لكنها للأسف لم يكتمل بناؤها أبداً منذ القرن الخامس عشر حتى الآن!!.. ويبدو أن الشركة التى تتولى بناءها شركة قطاع عام مصرية!!..

● كلية [سانت كاترين كولدج]، هى أول كلية تبنى فى القرن العشرين؛ فإن عمرها الآن ٤٥ عاماً فقط؛ لأنها بنيت عام ١٩٦٢.. وهى أول كلية تبنى على الطراز

الحديث بدلاً من الطراز القديم المتكرر المتشابه الذى يغلب على معظم الكليات القديمة حتى منتصف القرن العشرين.. وقد وضع تصميمها المعماري الدانمركي «آرني جاكوبسين»، الذى بلغ من اهتمامه بالتفاصيل الصغيرة أنه وضع تصميماً خاصاً لمفاتيح وأدوات الكهرباء من حيث الشكل، بل ولأدوات المائدة أيضاً؛ حتى يصبح لهذه الكلية طابعها المتميز المتفرد عن باقى الكليات.. كلية [سانت كاترين كولدج] يطلق عليها تديلاً اسم [كاتز]!!..

● كلية [ويدام كولدج] التى أنشأها عام ١٦١٠ الزوجان «نيكولاس ودوروثي ويدام».. وهى الكلية الوحيدة الباقية على حالها منذ إنشائها دون أن تمتد إليها يد الزيادة والتغيير والتبديل.. بنفس مبادئها الأولى التى بنيت منذ حوالى أربعة قرون!!..

* * *

والآن إلى عرض سريع لتعاقب إنشاء كليات جامعة أوكسفورد:

● فى القرن الثالث عشر عند بداية إنشاء جامعة أوكسفورد؛ أنشئت ٤ كليات: [يونيڤيرسيتى كولدج] عام ١٢٤٩ - [باليو كولدج] عام ١٢٥٠ - [ميرتون كولدج] عام ١٢٦٢ - [ترينتى كولدج] عام ١٢٨٦..

● فى القرن الرابع عشر تم إنشاء ٤ كليات أخرى: [إكسيتير كولدج] عام ١٣١٤ - [أوريل كولدج] عام ١٣٢٦ - [كوينز كولدج] عام ١٣٤٠ - [نيو كولدج] عام ١٣٧٩..

● فى القرن الخامس عشر تم إنشاء ٤ كليات كذلك: [لينكولن كولدج] عام ١٤٢٧ - [سانت جونز كولدج] عام ١٤٣٧ - [أوول سولز كولدج] عام ١٤٣٨ - [ماجدالين كولدج] عام ١٤٥٨..

● فى القرن السادس عشر تم إنشاء ٤ كليات أيضاً: [بريزنوز كولدج] عام ١٥٠٩ - [كوربوس كريستى كولدج] عام ١٥١٧ - [كرايست تشيرش كولدج] عام ١٥٢٥ - [جيساس كولدج] عام ١٥٧١..

- فى القرن السابع عشر انخفض معدل إنشاء الكليات إلى كليتين فقط بدلاً من ٤ فى كل قرن كالمعتاد: [وودام كولدج] عام ١٦١٠ - [بيمبروك كولدج] عام ١٦٢٤ ..
- ومرت ٩٠ سنة كاملة حتى أنشئت كلية جديدة فى جامعة أوكسفورد خلال القرن الثامن عشر، وكانت كلية [ووشستر كولدج] عام ١٧١٤ - ثم كلية [هيرتفورد كولدج] عام ١٧٤٠ ..
- ثم تطول المدة أكثر لتصبح ١٢٣ سنة، ولتصبح أطول مدة تمر بين إنشاء كليتين، حين ظهرت الكلية الوحيدة التى تم إنشاؤها فى القرن التاسع عشر: كلية [كيبيل كولدج] فى عام ١٨٦٣ ..
- وبرغم أن القرن العشرين قد شهد إضافة ٣ كليات جديدة إلى جامعة أوكسفورد؛ إلا إن ٨٢ سنة أيضاً كانت قد مرت قبل أن تنضم كلية [تافيلد كولدج] فى عام ١٩٤٥، ثم كلية [سانت إدموند هول كولدج] فى عام ١٩٥٧، و [سانت كاترين كولدج] فى عام ١٩٦٢ ..
- وهكذا تكون أقصر مدة مرت بين إنشاء كليتين متعاقبتين هى سنة واحدة: [يونيڤيرسيتى كولدج] عام ١٢٤٩ و [باليلوك كولدج] عام ١٢٥٠ .. وبعدهما [سانت جونز كولدج] فى عام ١٤٣٧ و [أوول سولز كولدج] عام ١٤٣٨ ..

* * *

- ١٧ رئيس وزارة إنجليزى تخرجوا فى جامعة أوكسفورد؛ أبرزهم «ويليام بيت»، «جلادستون»، «كليمنت أتلى»، «أنتونى إيدن»، «هارولد ماكميلان» - الذى تولى رئاسة الجامعة نفسها عام ١٩٦٠ بعد خروجه من الوزارة -، «إدوارد هيث»، «هارولد ويلسون»، و «مارجريت تاتشر»، المرأة الوحيدة فى تاريخ بريطانيا التى رأت الوزارة، حتى الآن على الأقل.. وجميعهم بدأوا حياتهم السياسية فى أيام دراستهم فى جامعة أوكسفورد..

- ولم تكن جامعة أوكسفورد لتخرج السياسيين أو رجال السياسة فقط؛ فقد تخرج فيها أيضاً العديد من الكتاب والشعراء والفنانين والعلماء: «أوسكار وايلد» الكاتب

الشهير، «وولتر رالي» المستكشف الشهير أيضاً، «أرنولد توينبى» المؤرخ والكاتب، «توماس إليوت» الشاعر، وشاعر إنجلترا العظيم «شيللى»، الذى كان قد فصل من الجامعة عام ١٨١١ لأنه نشر كتاباً بعنوان (حتمية الإلحاد)!!..

● وغير هؤلاء، وأولئك: «ويليام موريس» صانع الدراجات، ثم الموتوسيكلات، ثم السيارات، الذى غير وجه الحياة فى مدينة أوكسفورد بسياراته التى صنعها وباع منها ٢٠٤ سيارات فقط عام ١٩١٨، ثم قفز هذا الرقم خلال ٧ سنوات ليصبح ٥٥٥٨٢ سيارة فى عام ١٩٢٥.. «ويليام موريس» الذى كان أيضاً من أبناء نفس المقاطعة [أوكسفورد شاير]؛ تبرع لجامعة أوكسفورد - التى تخرج فيها - بما يقرب من ٣٠ مليوناً من الجنيهات فى حياته.. [ثلاثين مليوناً بجنيهات تلك الأيام وليست من جنيهات أيامنا هذه التى لا تساوى شيئاً!!].

● من بين خريجي جامعة أوكسفورد أيضاً ٣ ملوك: الملك «هنرى الخامس» (١٤١٣ - ١٤٢٢)، الملك «إدوارد السابع» (١٩٠١ - ١٩١٠)، والملك «أولاف» ملك النرويج.. ورئيس جمهورية هو «إدوارد أكوfo آدو» رئيس جمهورية غانا عام ١٩٧٠.. وولى عهد هو أمير ويلز عام ١٩١٢.. وعدد من رؤساء الوزارات غير الإنجليز؛ أشهرهم «أنديرا غاندى» رئيسة وزراء الهند، و «ل. ب. بيرسون» رئيس وزراء كندا عام ١٩٦٣.. وأيضاً عدد من وزراء الخارجية المشاهير؛ أمثال «أليك دوجلاس هيوم» وزير خارجية إنجلترا، و «دين راسك» وزير خارجية أمريكا..

● ذلك غير مئات من الوزراء وأعضاء البرلمان وحكام المستعمرات والسفراء و: «ت. إ. لورانس» الشهير بـ «لورانس العرب»!!.. دعك من نجوم الأدب والسينما والفنانين والفنانات وأهل الإذاعة والتلفزيون والموسيقين؛ لعل أشهرهم على المستوى الجماهيرى الممثل الإنجليزى الرائع «ريتشارد بيرتون» - أحد الأزواج التسعة للممثلة النشيطة «إليزابيث تايلور» - الذى توفى منذ عدة سنوات..

● وجامعة أوكسفورد تعتبر من أصحاب الأسماء الشهيرة الالامعة من خريجياها الأبطال الرياضيين الذين مثلوا بريطانيا فى الألعاب الأولمبية ، مثل «ديفيد هيمرى» بطل الـ ٤٠٠ متر والحاصل على الميدالية الذهبية فى أولمبياد ١٩٦٨!!..

* * *

كل كلية من كليات جامعة أوكسفورد لها مكتبتها الخاصة.. لكن هناك مكتبة كبيرة للجامعة كلها هى مكتبة [يودليان] التى تعتبر واحدة من أعظم وأكبر المكتبات فى العالم.. وحين ينضم طالب جامعة أوكسفورد إلى عضوية هذه المكتبة فإنه يؤدى قسماً معيناً وهو يرتدى الروب الجامعى ؛ مؤداه ألا يأخذ كتباً من المكتبة إلى خارجها - لأن الاستعارة الخارجية ممنوعة - وألا يدخن داخل المكتبة، وبنود أخرى متعددة فى هذا القسم.. وكان هذا القسم حتى عهد قريب يؤدى باللغة اللاتينية؛ لكنه الآن يؤدى باللغة الإنجليزية من باب «تيسيراً على المواطنين»!!..

* * *

آخر حواديت جامعة أوكسفورد حدوتة غريبة جداً وظريفة جداً؛ حدثت منذ عدة سنوات: «روث هارى» طفلة عمرها ١٠ سنوات؛ لم تلتحق بأية مدرسة قط فى حياتها؛ وإنما تعلمت فى البيت على يد أبيها المتخصص فى الكمبيوتر.. وتقدمت «روث» للالتحاق بجامعة أوكسفورد!..! وكان لا بد وأن تمر بالامتحان الذى تعقده الجامعة للمتقدمين إليها، وحدث.. وكان ترتيب «روث» الأولى على ٣١ طالباً وطالبة من الحاصلين على شهادة البكالوريا الإنجليزية الذين تتراوح أعمارهم بين ١٧ و ١٨ سنة!!.. فأصبحت الطفلة «روث» طالبة منتظمة فى جامعة أوكسفورد بعد أن اجتازت كل الاختبارات فى الطبيعة والأحياء والرياضيات والعلوم والكمبيوتر!!.. وبعد ٣ سنوات فى الجامعة تخرجت «روث» وعينت معيدة فى جامعة أوكسفورد وعمرها ١٣ سنة فقط!!..

* * *

تعالوا الآن نلتقى ببعض الدارسين المصريين والعرب فى جامعة أوكسفورد.. من مصر ومن لبنان ومن العراق ومن اليمن ومن الإمارات.. وإن كان عدد الطلبة العرب

عموماً فى جامعة أوكسفورد لئس كبيراً بالقدر الذى كنت أتوقعه..
«أبو اليسر عبد العظيم فرح»، المدرس المساعد بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس بالقاهرة؛ جاء إلى جامعة أوكسفورد لى يحصل منها على [نصف دكتوراة] فقط لا غير، أما النصف الآخر فسوف يحصل عليه من القاهرة!!..
والأمر لئس فزورة ولا حاجة؛ فإن «أبو اليسر» عضو بعثة على نظام (الإشراف المشترك).. وهو نظام جديد مستحدث فى نظام البعثات المصرى، حتى يمكن الحد قليلاً من نفقات نظام البعثات العادى.. لأن نظام (الإشراف المشترك) يعطى الحق للدارس الذى يدرس للحصول على درجة الدكتوراة داخل مصر نفسها فى أن يقضى سنة من مدة بعثته، ممكن أن تمتد إلى سنتين على الأكثر، فى جامعة أجنبية، ثم يعود ليحصل على الدكتوراة من مصر.. والغرض من ذلك هو أن يستفيد الدارس من الوسائل والإمكانات العلمية المتاحة فى جامعات أوروبا، بالإضافة إلى أنه يتعامل ويتعايش مع المنهج العلمى الأوروبى..

«أبو اليسر عبد العظيم فرح» حصل على درجة الماجستير من مصر، وكان موضوع رسالته فيها موضوعاً غريباً جداً، هو [دراسة نظم المحاسبة والحسابات والإدارة المالية عند قدماء المصريين]، وبالذات فى العصر البطلمى الذى كانت الملكة الجميلة كليوباترة آخر ملكاته!!.. وكان موضوع بحث «أبو اليسر» موظف مصرى معين لقبه الوظيفى الرسمى [إيكونوموس]، الذى كان يشغل وظيفة مدير الشئون المالية والإدارية فى كل مديرية من مديريات مصر فى ذلك العهد.. ومن اسمه [إيكونوموس] تجىء كلمة [إيكونومى Economy] باللغة الإنجليزية الآن بمعنى (اقتصاد).. وكلمة [إيكيا] فى اللغة اليونانية القديمة معناها (منزل) أو (بيت).. و [إيكونومينو] بمعنى (مدير شئون البيت).. وعلى اعتبار أن مصر كلها فى تلك العهود كانت ملكاً للملك أو الفرعون؛ إذن فهى بيته أو منزله؛ وبالتالي فإن [إيكونوموس] هو [مدير شئون بيت الملك]، الذى هو مصر كلها!!..

كانت مصر فى تلك العهود مقسمة إلى مديريات، التى هى المحافظات الآن.. وكان بكل مديرية إدارتان: إدارة يرأسها موظف لقب وظيفته [إستراتيجوس]

- التى هى تحريف لكلمة (إستراتيجية) الآن - وكان صديقنا [إيكونوموس] هو مدير الإدارة الأخرى التى يشرف منها على كل صغيرة وكبيرة متعلقة بالنواحى المالية، سواء فى مجال الصناعة أو التجارة أو الضرائب أو الزراعة والأراضى الزراعية والمحصولات والرى والصرف والفلاحين وغير ذلك.. وكان هناك وزير للمالية يقيم فى الإسكندرية التى كانت عاصمة مصر فى العهد البطلمى.. ولم تكن الوزارة فى مصر فى ذلك العهد تضم عشرات الوزراء كما هو الحال الآن؛ لكن كان هناك وزيران فقط: وزير المالية، ووزير القضاء، أو وزير العدل كما نسميه الآن..

أسأل الدارس المصرى «أبو اليسر عبد العظيم فرح» عن مصادر بحثه ومن أين له كل هذه المعلومات عن نظم الحسابات والإدارة المالية فى عصر الملكة كليوباترة؟!..

- مرجعى هى أوراق البردى التى كانت مستخدمة فى ذلك العهد بدلاً من الورق الذى نستخدمه الآن.. وكان عند المصريين القدماء فى تلك العهود (مسك دفاتر) و(منه وله) و (صادر ووارد) و (منصرفات ومتأخرات)، وفى النهاية (حساب العجز والزيادة).. وكان عندهم نظام البنوك والمصارف المالية الذى أدخله الإغريق إلى مصر فى القرن الثالث قبل الميلاد.. وكان عندهم أيضاً وظيفة (محاسب) بنفس الاسم الذى نعرفه به الآن، لكن باللغة اليونانية القديمة طبعاً..

ويبدو أن صديقنا الباحث المصرى «أبو اليسر» مغرم بالموضوعات الصعبة غير المطروقة؛ فإن موضوع رسالة الدكتوراة التى يعد لها الآن فى جامعة أوكسفورد هو موضوع غريب آخر: (الهجرة غير الشرعية عند قدماء المصريين فى العصر الرومانى)، أى العصر الذى أنهى العصر البطلمى وحل محله فى مصر.. العصر الذى كان منه الإمبراطور الأشهر فى تاريخ العالم حتى الآن؛ الإمبراطور الذى حرق روما: نيرون!!.. والمنقصود ب (الهجرة غير الشرعية) هى الهجرة من الريف إلى المدينة.. لأن كل شخص فى ذلك العهد كان مسجلاً على قرية ما أو مدينة ما، والمفروض أن يقضى حياته كلها فى هذه القرية أو تلك المدينة ويرتبط بها طول العمر.. فإذا تركها وهاجر منها إلى المدينة تكون قرينته مسئولة عن سداد الضريبة التى كان يدفعها هو للدولة، لذا تكون هجرته غير شرعية..

● «سامية نعمة حرب» شابة لبنانية جميلة تدرس للحصول على درجة الدكتوراة فى الكيمياء من جامعة أوكسفورد.. وقد كان ممكناً أن تدرس الأدب الفرنسى أو الأدب الإنجليزى؛ لكنها اختارت الكيمياء لكى تضمن وظيفة بعد تخرجها وحصولها على الدكتوراة والعودة إلى وطنها لبنان!!..

«سامية» هى أكبر أخواتها وأول بنت فى الأسرة تخرج للدراسة خارج لبنان.. أسرتها الصغيرة: أبوها وأُمها وأخواتها؛ لم تعترض على سفرها للدراسة فى الخارج؛ لكن الذين اعترضوا كانوا أقارب الدرجة الثالثة والرابعة: الخالات والعمات، اللاتى رأين أن كفاية أوى أن «سامية» قد حصلت على الليسانس وينبغى أن تقعد فى البيت تنتظر ابن الحلال حتى يجىء، فتتزوج وتعيش فى التبات والنبات وتخلف ستة صبيان ودستتين بنات.. لكن الحمد لله أن والديها لم يستمعا إلى ذلك الرأى ولولا ذلك لما كانت «سامية» فى أوكسفورد الآن!!..

من رأى «سامية نعمة حرب» أن البنت العربية المغتربة تستطيع أن تتوأم بسرعة مع نمط الحياة الأوروبية، لأن الحياة الأوروبية - ببساطة - لا تفرض نظاماً معيناً على أى إنسان، لكنها تترك كل إنسان يعيش حياته على راحته وبالنظام أو النمط الذى يقرره هو.. ومادام لا يزعج الآخرين فلا أحد يزعجه أو يتدخل فى شؤنه.. لذا فإن البنت العربية ليس هناك ما يرغمها على أى شىء على الإطلاق: هى وحدها صاحبة القرار فى أن تظل محافظة على تقاليدها، وهى وحدها صاحبة القرار فى أن تنقلت عيارها وتفرنج أكثر من الأوروبيات أنفسهن لو أرادت.. يعنى باختصار أن نمط الحياة الأوروبية برىء من مسئولية انحراف البنت العربية لو انحرفت، لأنها هى التى اختارت شكل حياتها ولم يفرضه عليها أحد!!..

«سامية» جميلة لكنها تتكلم كلاماً عاقلاً جداً.. سألتها:

- والبنات الأوروبية فى تقديرِك؟!!..

- أكثر من ٨٥ ٪ من الدارسين فى جامعة أوكسفورد شبان، وأقل من ١٥ ٪ فقط بنات.. القسم الذى أدرس به أنا، الكيمياء، فيه ١٠٠ شاب و ٣ بنات فقط يدرسون

لدرجة الدكتوراة.. يعنى أن كل بنت فى مقابلها ٣٢ شاباً.. لكن البنت الأوروبية بشكل عام تستطيع أن تقول عنها: إنها بنت محافظة جداً بالقياس والمقارنة ببناات الدول الإسكندنافية وألمانيا وفرنسا.. فالبنت الإنجليزية التى تجىء إلى جامعة أوكسفورد للدراسة غالباً ما تكون من بنات العائلات الإنجليزية الأرستقراطية ومن بيئة محافظة جداً؛ لذا تجدها خجولة و (قطعة معمضة) وليست منفتحة كما نتصورها، بل هى أقرب إلى تقاليدنا ومحافظتنا نحن البنات العربيات..

* * *

● «عبد الرازق فارس الفارس» مبعوث دولة الإمارات فى جامعة أوكسفورد؛ يدرس للحصول على درجة الدكتوراة فى: [العلم العبوس]!!.. وهو تعبير ليس من عند «عبد الرازق» شخصياً لكن (الاقتصاد) يسمى تاريخياً ب [العلم العبوس] لأنه يبحث فى قضايا تثير الهموم والقلق ومشاكل الموارد والسكان وتوزيع الثروة، ونظرياته معقدة وصعبة إلى حد ما وليست سهلة الفهم بالنسبة للشخص العادى، لذا استحق تسميته ب [العلم العبوس]!!..

«عبد الرازق» حصل على اليكالوريوس من جامعة الكويت عام ١٩٧٦ لأنه لم يكن فى دولة الإمارات جامعة فى ذلك الوقت، ثم حصل على الماجستير من جامعة القاهرة.. بعدها جاء إلى جامعة أوكسفورد للحصول على درجة الدكتوراة.. كان قد تقدم إلى ١٥ جامعة إنجليزية شهيرة لم تكن جامعة أوكسفورد من بينها، وقبلته فعلاً واحدة من هذه الجامعات.. لكن قبل بدء الدراسة بأسابيع قليلة أقنعه بعض أصدقائه بأن الدراسة فى جامعة أوكسفورد ستكون أفيد له، فتقدم إليها، وبعد مقابلة سريعة قبل فيها والتحق بها..

يقول «عبد الرازق فارس الفارس»:

— هنا يأخذون العلم بصرامة شديدة.. علم يعنى علم.. وذلك يحفظ لجامعة أوكسفورد هيبتها وتقاليدها وسمعتها وصيتها كأقدم وأعرق جامعة بريطانية يقارب عمرها الآن ثمانية قرون.. والجامعة؛ أى جامعة؛ ليست جدراناً ومباني؛ وإنما هى تقاليد وأساتذة؛ فإن الأساتذة فى جامعة أوكسفورد ليسوا كما نتصور إنجليزاً

فقط؛ إنما هم خيرة الأساتذة من كل أنحاء العالم، فيهم الياباني والمصري والعراقي والهندي وووو.. إلخ..

سألت «عبد الرازق الفارس»:

- إذا كانت جامعات بريطانيا الـ ٣٥ حاشدة بقطاع أساتذة الاقتصاد في العالم كله كما تقول؛ فلماذا إذن اقتصاد بريطانيا منهار وراكع على ركبتيه!؟..

قال ببساطة وإيجاز وبطريقة (ما قل ودل):

- لأن أمور اقتصاد الدولة في أيدي رجال السياسة وليس في أيدي رجال الاقتصاد!..

* * *

● «إلياس فؤاد راجسي» طبيب عراقي ترك عيادته في بغداد وجاء للحصول على درجة الدكتوراة في أمراض الأعصاب من جامعة أوكسفورد، وبحثه للدكتوراة في موضوع: [مفعول دواء جديد معين حين يعالج به مرض معين بالذات].. بعد سنتين ونصف في أوكسفورد هو موشك الآن على الانتهاء من بحثه خلال ستة شهور أخرى يعود بعدها إلى الوطن في العراق.. فإن «إلياس» لا يؤيد إصرار بعض الشبان العرب الذين يحصلون على درجاتهم العلمية من إنجلترا أو من أى مكان آخر في أوروبا؛ على البقاء هنا بعد حصولهم على الدكتوراة، لأن بلادهم محتاجة إلى جهودهم وخبراتهم أكثر مما تحتاج إليها إنجلترا أو أوروبا أو أمريكا..

* * *

● «مها سالم عزام» جاءت من مصر إلى إنجلترا مع أسرته وعمرها ٤ سنوات - عمر «مها» طبعاً الذى كان ٤ سنوات وليس عمر أسرته - عمر «مها» الآن ٢٣ سنة، إذن فهمي في إنجلترا منذ ١٩ سنة.. لكن أسرته ترسلها إلى مصر بين حين وآخر لكي تعيش الحياة في مصر لفترة ولكي تشعر دائماً أن مصر هي وطنها وبلدها الأصلي، وأن تظل الصلة متصلّة ومستمرة ودائمة بينها وبين الأسرة الكبيرة في مصر.. «مها» تتكلم العربية بطلاقة جداً على رغم السنوات الـ ١٩ التي قضتها في إنجلترا،

وعلى رغم أننى قابلت شباناً وشابات عرباً قضوا فى إنجلترا ٣ أو ٤ سنوات فقط فانعوجت ألسنتهم وادعوا أنهم قد نسوا لغتهم العربية ولم يعودوا يتكلمون بها بطلاقة زى زمان، حتى إن بعض الكلمات الإنجليزية لم يعودوا يتذكرون معناها باللغة العربية (!!).. سألت مرة واحداً من هؤلاء المتحدثين: «زى إيه الكلمات الإنجليزية التى نسيت معناها باللغة العربية؟!» فقال لى بصفاقة شديدة: «زى كلمة (كوكاكولا) مثلاً؛ مابقيتشى عارف معناها بالعربى إيه»!!..

«مها» تتكلم العربية فى البيت باستمرار، لأنه ليس هناك مبرر أبداً لأن تتكلم بالإنجليزية فى بيت كل من فيه مصريون، حتى لو كان هذا البيت فى إنجلترا.. «عبد الرحمن باشا عزام» أول أمين عام لجامعة الدول العربية عند بداية إنشائها فى منتصف الأربعينيات، هو أخو جد «مها» وعم أبيها، ووالدها هو «سالم عزام» أمين عام المجلس الإسلامى الأوروبى فى لندن.. وعلى رغم أنها تخرجت فى جامعة لندن حيث درست علوم سياسية وتاريخ، إلا أن طموحها ليس سياسياً مثل جدّها وشقيق جدّها؛ إنما طموحها أكاديمى، وهو أن تقوم – بعد حصولها على الدكتوراة – بالتدريس فى إحدى الجامعات المصرية أو العربية.. «مها» عمرها الآن ٢٣ سنة فقط وتدرس منذ سنتين للحصول على درجة الدكتوراة؛ فى حين أن مثيلاتها فى العمر، صبيان وبنات؛ لازالوا لم يحصلوا بعد على الليسانس أو البكالوريوس.. سطر أخير بالنسبة لـ «مها» التى قضت ١٩ سنة من عمرها فى إنجلترا: موضوع رسالتها للدكتوراة هو: [دور الإسلام فى السياسة المصرية]..

أحييكم من أوكسفورد، المدينة والجامعة..

من أشهر وأقدم جامعات العالم.. جائزة أشهر خريجى جامعة كمبريدج: قطع رقبتة!!..

- ★ ثكنة جيش.. تصبح أشهر جامعة فى العالم!!..
- ★ خشبة حبشى، فى كليات جامعة كمبريدج!!..
- ★ طلبة كمبريدج: ينامون فى الكلية، ويدرسون فى مكان آخر!!..
- ★ ١٤٠٠ جنيه ، مصروف جيب الطالب الإنجليزي!!..
- ★ متى تعتبر الأسرة الإنجليزية (فقيرة دقة) ؟!!..
- ★ أشهر رجال جامعة كمبريدج.. لم يكمل تعليمه فى الجامعة!!..
- ★ الملك يطرد الجامعة ليسكن مكانها!!..
- ★ الإفطار ممنوع فى كلية سانت كاترين!!..
- ★ كلية الطلبة الفقراء، وكلية الطالبات الخائبات!!
- ★ زواج الطلاب ممنوع فى جامعة كمبريدج!!..
- ★ قطع الملك رأس رئيس الجامعة، وردت عليه الجامعة بالمثل!!..

يبدو أن ذلك هو جزء من تكويننا كعرب: الشيء الصعب البعيد عنا وعن تناولنا نسعى إليه ونبذل في سبيله الجهد والوقت والمال، أما الشيء السهل الذى أمام أعيننا ولا يتطلب الوصول إليه أى جهد أو مشقة أو تعب؛ فإننا نهمله ونتركه ونركنه ولا نطمح إليه، أو على الأقل نؤجله ونظل نؤجله حتى ننساه أو نكاد..

وذلك هو ما حدث معى بالنسبة لكمبريدج.. فمئذ أن استقر بى المقام فى إنجلترا منذ سنوات بعيدة وقد زرتها من أقصاها إلى أقصاها.. من جلاسجو وأدنبرة فى الشمال إلى بورنموث وآيل أوف وايت فى الجنوب، ومن فولكستون على بحر المانش إلى ليقربول وآبيرستويث أصغر قرية تطل على المحيط الأطلنطى فى الغرب.. لكننى طوال هذه السنوات لم أزر كمبريدج، على رغم شهرتها، لسبب بسيط جداً؛ هو أنها قريبة جداً من مدينة لندن حيث أعيش، والمسافة بين لندن وكمبريدج أقل من المسافة بين بيتى فى ضواحي لندن وبين وسط المدينة!!..

إنما؛ ولأن كل شيء بأوان؛ فقد ذهبت إلى كمبريدج أيضاً فى النهاية..

* * *

أسهل شيء فى إنجلترا هو شبكة مواصلاتها الهائلة.. وذلك ليس مستغرباً؛ فإن إنجلترا هى التى اخترعت القطار وأول دولة فى العالم أدخلت نظام السكك الحديدية.. والإعلانات الدءوبة جداً فى التليفزيون الإنجليزى وفى الملصقات التى تجدها فى كل محطات القطارات ومحطات مترو الأنفاق [الأندرجراوند]؛ تقول لك: إن (هذا العصر هو عصر القطار).. وواضح أن ذلك صحيح فعلاً، فإن نظام الإرشادات والبرامح السياحية والتخفيضات الكبيرة، سواء فى موسم السياحة

الإنجليزى أم فى غير الموسم؛ تكاد تهزك هزاً وتزغذك فى جنبك لكى تقوم وترتدى ملايسك وتذهب إلى أقرب محطة سكة حديد.. فإذا ذهبت فألف مكان ومكان فى انتظارك داخل إنجلترا فى القطارات السريعة المريحة الفاخرة ذات الأسعار الزهيدة إلى حد كبير..

كمبريدج، المدينة الصغيرة التى بها إحدى أشهر جامعتين فى إنجلترا، وفى العالم كله - الأولى هى جامعة أوكسفورد - على بعد ٥٦ ميلاً و ٧٠ دقيقة فقط فى القطار من محطة [ليفربول ستريت] فى وسط لندن، ونفس المدة تقريباً فى الأوتوبيس الأخضر الـ [جرين لاين] من محطة أوتوبيسات الأقاليم فى حى [فيكتوريا] فى وسط لندن أيضاً: أوتوبيس كل نصف ساعة ابتداءً من السادسة صباحاً حتى منتصف الليل.. أما القطار فتخيل: ٦٣ قطاراً فى اليوم الواحد رايحة جاية بين لندن وكمبريدج ابتداءً من الرابعة صباحاً وحتى قرب منتصف الليل أيضاً!!..! أظنك تتصور الآن مدى صدق شعار (إنه عصر القطار)..

مدينة كمبريدج، جزء من المقاطعة البريطانية المسماة باسمها [كمبريدج شاير]؛ وصفت بأنها (المدينة الجامعية الحقيقية الوحيدة فى إنجلترا)؛ لسبب بسيط جداً؛ هو أنك لا تستطيع أن تفصل بين الجامعة وبين المدينة: الجامعة بكلياتها الثلاثين ومبانيها القديمة جداً؛ منتشرة تماماً فى المدينة، والمدينة متداخلة تماماً فى الجامعة.. فى كل شارع كلية أو معمل أو مكتبة أو مبنى من مباني الجامعة.. بمعنى أن الجامعة ليس لها سور يحيط بها وبكلياتها لأن الجامعة هى كل المدينة، ولو احتاجوا لبناء سور حول الجامعة لبنوا السور حول المدينة نفسها!!..

وقد بدأ (وجود) كمبريدج كمعسكر للجنود الرومان الذين كانوا يحتلون إنجلترا كلها قبل أن يوحدها الملك «ويليام الفاتح» أو «ويليام الأول» - مؤسس الأسرة الملكية الحالية فى بريطانيا - فى مملكة واحدة فى عام ١٠٦٠. كان هذا المعسكر

على تل صغير على شاطئ نهر الـ [كام].. وحين أقيم كوبرى على النهر فى مواجهة المعسكر - (كوبرى بالإنجليزية = بريدج Bridge) - اشتهرت المنطقة باسم (كوبرى نهر كام) أو بالإنجليزية (كام بريدج Camp-Bridge)، ثم أصبحت كلمة واحدة هى [كمبريدج Cambridge]..

ونشأت على الضفة الأخرى لنهر [كام] المواجهة للمعسكر قرية صغيرة.. وما لبثت هذه القرية أن تحولت فى القرن الخامس الميلادى إلى قرية كبيرة وسوق تجارى نشيط يربط بين شمال ووسط إنجلترا.. وفى عام ٨٧٥ استخدمت الجيوش الدانمركية فى غزوها لإنجلترا قرية [كمبريدج] لتكون قاعدة لها.. وبعد قرن آخر؛ فى عام ٩٧٥؛ كانت [كمبريدج] قد أصبحت مدينة صغيرة ذات أهمية كبيرة، حتى إنها أصبحت تسك عملاتها الخاصة بها.. وفى بداية القرن الحادى عشر كان سكان [كمبريدج] قد أصبحوا فى حالة من الرخاء واليسر مكنتهم من بناء أول مبنى بالحجر فى المدينة، كان هو برج كنيسة [سانت بنيت].. فحتى ذلك الوقت كانت كل مباني وبيوت المدينة الصغيرة تبني من الخشب، وكثيراً ما كانت تشب الحرائق لتأتى على أجزاء كبيرة من المدينة فتحيلها إلى أنقاض.. وحتى أواخر القرن الحادى عشر لم يكن فى مدينة كمبريدج كلها أكثر من ٤٠٠ بيت، هدم منها ٢٧ بيتاً لكى يقام فى مكانها قلعة كمبريدج التى بنيت عام ١٠٦٨ - بعد ٨ سنوات فقط من توحيد إنجلترا على يد الملك «ويليام الفاتح» - لتكون قاعدة للمقاومة ضد القائد السكسونى «هاير وارد»..

وقد ظلت مدينة [كمبريدج] منذ ذلك الوقت، عام ١٠٦٨، وحتى عام ١٨٠٠؛ تحتل مساحة صغيرة جداً.. وإن كانت كل الكنائس الموجودة بها الآن فى وقتنا الحالى قد بنيت جميعها حتى عام ١٢٠٠.. أى إن عمر أحدث كنيسة فى [كمبريدج] الآن أكثر من ٨٠٠ سنة!!..

وقد بدأت قصة المدينة الصغيرة مع الجامعة الشهيرة فى عام ١٢٠٩؛ حين اضطر بعض أساتذة وطلاب جامعة أوكسفورد - التى تقع على بعد ٨٠ ميلاً فقط

من كمبريدج - إلى ترك أوكسفورد والهجرة منها بعد حدوث مشاكل ومتاعب بين أهل الجامعة وأهل المدينة في أوكسفورد، فجاء بعضهم إلى مدينة كمبريدج واستقر بها.. وبسرعة تكون منهم مجتمع جامعي في كمبريدج.. وقبل أن يصبح لهم بيوت ومساكن أصبح لهم معهد، ثم معاهد.. وقبل أن تمضي سنوات كثيرة كانت هذه المعاهد قد أصبحت تحمل اسم [جامعة] في كمبريدج.. وفي عام ١٢٨٤ أنشئت في جنوب المدينة الصغيرة أول كلية تابعة للجامعة بجوار كنيسة [سانت بيترز]، لذا فقد أطلق على هذه الكلية اسم [بيتر هاوس]، لتكون أول وأقدم كلية على الإطلاق في كليات جامعة كمبريدج..

* * *

وهنا لابد وأن نقف وقفة صغيرة لكي نوضح بالضبط ماهو المقصود باسم أو بتسمية [كلية] هنا في جامعة كمبريدج.. لأن هناك فارقاً كبيراً جداً بين الـ [كلية] التي نعرفها في جامعات بلادنا العربية وكل بلاد العالم؛ وبين الـ [كلية] في جامعة كمبريدج وشقيقتها الكبرى جامعة أوكسفورد..

الـ [كلية] عندنا في مصر، وفي كل جامعات كل الدول العربية، وفي معظم جامعات العالم؛ هي المكان أو المبنى الذي نذهب إليه لتتلقى فيه العلم، نتلقى نوعاً محدداً من العلم: حقوق، آداب، هندسة، طب، زراعة، صيدلة، علوم إلخ.. ثم نعود في آخر اليوم الدراسي إلى بيوتنا لنأكل ونشرب ونذاكر دروسنا وننام.. وقد تكون ثلاثة أو أربعة أشقاء في بيت واحد نذهب إلى ثلاثة أو أربعة كليات مختلفة متفرقة متباعدة، ثم يجمعنا البيت في آخر اليوم..

الـ [كلية] هنا في جامعة كمبريدج بالعكس تماماً: اسم [كلية] هنا يطلق على المكان الذي (نسكن) فيه ونأكل ونشرب ونذاكر دروسنا ونمارس نشاطنا الرياضي والاجتماعي أو هواياتنا فيه، وننام فيه آخر اليوم، مهما اختلفت نوعية الدراسة التي يقوم بها كل منا.. ثم في الصباح يتوجه كل منا إلى (المبنى) الذي يدرس فيه، وهو هنا لا يسمى (كلية) لكنه يسمى (مدرسة) أو (معهد): مدرسة الطب أو مدرسة

الآداب أو مدرسة الحقوق أو مدرسة الهندسة، ومعهد الإحصاء أو معهد العلوم السياسية أو معهد الآثار..

وبمعنى أن الطلبة فى جامعة كمبريدج (يعيشون) فى [كلية] ما؛ لا يكونون بالضرورة يدرسون فى مكان واحد ولا يكونون بالضرورة يدرسون نوعاً واحداً من الدراسة.. وبالتالي فإن طلبة مدرسة الطب - مثلاً - فى جامعة كمبريدج ممكن أن يكونوا متوزعين ومتفرقين على ١٠ أو ١٥ كلية (يعيشون) فيها.. والتشبيه الأقرب ما يمكن إلى ذلك الشكل عندنا فى مصر هو نظام (المدينة الجامعية) التى تجمع بين طلبة من مختلف كليات الجامعة ومختلف سنوات الدراسة فى مبنى واحد، وهم يعيشون فى المدينة الجامعية ولا يتلقون العلم فيها.. الفارق أن عندنا نسميها (مدينة جامعية) وهنا فى كمبريدج يسمونها [كلية].. ونحن نسمى المكان الذى نتلقى فيه العلم (كلية) وهنا فى كمبريدج يسمونه «مدرسة» أو «معهد»!..!



عودة إلى كمبريدج إذن.. بعد أن أنشئت كلية [بيتر هاوس كولدج] سنة ١٢٨٤ لتكون أول كليات جامعة كمبريدج؛ أنشئت ١١ كلية أخرى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وبدأت القرية الصغيرة تتسع ببطء لتستوعب الأعداد الكبيرة من الطلاب الذين بدأوا يتوافدون بكثرة للدراسة فى جامعة كمبريدج.. فبُنِيَ عدد هائل من المساكن والنزل وبيوت الشباب لإسكان الطلاب الذين لم تتسع لهم الكليات..

ويبدو أن الطلبة هم الطلبة فى كل زمان وفى كل مكان، بحكم السن وزهوة الشباب، والاندفاع والغرور فى كثير من الأحيان.. فبدأت المشاكل والمنازعات والخلافات بين الطلبة وأهل المدينة من ناحية؛ وبين سلطات المدينة وسلطات الجامعة من ناحية أخرى، حتى إنها وصلت إلى مرحلة العنف المتبادل بين الجانبين.. وكان نتيجة ذلك فى النهاية أن منحت الحكومة الإنجليزية - فى ذلك الوقت - للجامعة سلطات واسعة على المدينة ذاتها.. من هذه السلطات التفتيش

على التجار ومراقبة الأسعار والموازين والمكايل والمقاييس!!.. وعلى مر القرون والعصور ازداد نفوذ وسلطات جامعة كمبريدج على المدينة حتى أصبح من حقها محاكمة سكان المدينة الذين يعتدون على الطلاب أو على الجامعة!!.. وكان طبعياً أن يضايق ذلك سكان المدينة كثيراً، خصوصاً عندما بدأت الجامعة تطرد بعض السكان من بيوتهم لكي تهدمها وتقيم في مكانها كليات جديدة في أواسط القرن الخامس عشر.. حتى جاء وقت تهددت فيه جامعة كمبريدج بأن تزول تماماً، حين حدث الخلاف بين الملك عنيف الطبع متقلب المزاج «هنرى الثامن» ورجال الكنيسة، وكانت جامعة كمبريدج تعتبر بشكل أو بآخر جامعة دينية، فقالها من غضب «هنرى الثامن» على رجال الدين؛ حتى إنه أعدم رئيس الجامعة وقتها الكاردينال «جون فيشر» ضمن الكثيرين الذين أعدمهم.. لكن «هنرى الثامن» مالبث أن عاد - بمزاجه المتقلب - فأراد أن (يصالح) الجامعة مرة أخرى؛ فأنشأ بها كلية جديدة هي كلية [ترينتي كوليدج] فى عام ١٥٤٦، وعادت سلطات الجامعة تسيطر على المدينة كلها مرة أخرى.. لكن على أى حال فإن ذلك انتهى تماماً فى منتصف القرن التاسع عشر، حين توسعت الجامعة كثيراً وازدادت مبانيها وكلياتها وتفرقت وتبعثرت فى أرجاء المدينة، وبالتالي توسعت المدينة نفسها توسعاً كبيراً، فقلل ذلك من هيمنة الجامعة على المدينة، حتى - فى النهاية - استقرت الأمور فى شكلها الطبيعى المفروض، فاستعادت المدينة سلطاتها على نفسها، والتزمت الجامعة بحدودها كجامعة لتدريس العلم وليس لمراقبة الناس ومحاكمتهم..

* * *

تعداد السكان فى مدينة كمبريدج يزداد ببطء شديد: خمسة آلاف نسمة فقط فى القرن السادس عشر؛ تضاعفوا - إلا قليلاً - خلال ثلاثة قرون ليصبح عددهم فى عام ١٨٠١ هو ٩٢٧٦ نسمة!!.. لكن خلال القرنين الأخيرين، ومع دخول خط السكة الحديد إلى المدينة فى عام ١٨٤٥، والسماح بزواج الطلاب فى جامعة

كمبريدج فى عام ١٨٨٢ - قبل ذلك لم يكن مسموحاً بزواجهم.. لماذا؟!.. الله أعلم!! - زاد عدد الطلاب والأساتذة والموظفين فى الجامعة؛ فقد تضاعف عدد السكان ١٠ مرات حتى أصبحوا ١٠٢,٣٠٠ نسمة فى عام ١٩٧٩.. ويصبح - لكى نعرف مدى تغلغل الجامعة فى المدينة ومدى ارتباط المدينة بالجامعة - واحداً من كل أربعة من سكان كمبريدج له صلة ما بالجامعة: طالباً أو مدرساً أو أستاذاً أو موظفاً بها أو متعاملاً معها..

* * *

أين تقع الجامعة؟!.. السؤال التقليدى المعتاد الذى يسأله أى وافد جديد إلى مدينة كمبريدج: «كيف أصل إلى الجامعة؟!».. لكنه سؤال صعب الإجابة عليه، فإن مباني الجامعة الأقدم هى التى تحتلها الآن الإدارة المركزية للجامعة فى مواجهة كنيسة [جريت سانت مارى].. ويمكن أن نعتبر هذه المنطقة هى منطقة قلب الجامعة، لكن الكليات ومدارس الجامعة ومعاهدها وقاعات المحاضرات والمعامل والمكتبات منتشرة فى كل أرجاء المدينة كما قلت..

وجامعة كمبريدج تدير نفسها بنفسها ولا تتلقى أى إعانة من الحكومة البريطانية.. وتنفق على نفسها من موردين رئيسيين: الأول هى المصروفات التى يدفعها طلبة الجامعة للدراسة بها، والثانى الأوقاف الموقوفة على كليات الجامعة المختلفة، بالإضافة إلى التبرعات والهبات التى يغدقها أثرياء الإنجليز، وغير الإنجليز، على جامعة كمبريدج وعلى غيرها من الجامعات الإنجليزية..

ويقودنا ذلك إلى الحديث عن المصروفات التى يدفعها طالب الجامعة فى كمبريدج؛ وهى تختلف بكون الطالب إنجليزياً أو أجنبياً.. فإذا كان إنجليزياً فإنه سوف يدفع ١٤٩٤ جنيهًا - إسترلينياً طبعاً - عن السنة الدراسية الواحدة، على ثلاثة أقساط قيمة كل قسط ٤٩٨ جنيهًا، أيًا كانت المادة أو التخصص الذى يدرسه.. أما الطالب الأجنبى فإنه إذا كان يدرس الآداب أو الحقوق أو الفنون أو الدراسات النظرية عموماً؛ فهو يدفع ٣٣٠٠ جنيه فى السنة الدراسية الواحدة

على ثلاثة أقساط قيمة كل منها ١١٠٠ جنيه.. فإذا كان يدرس العلوم فهو يدفع ٤٢٠٠ جنيه على ثلاثة أقساط قيمة كل منها ١٤٠٠ جنيه.. فإذا درس الطب أو الصيدلة فهو يدفع ٧٤٠٠ جنيه في السنة الدراسية الواحدة على ثلاثة أقساط أيضاً قيمة كل منها ٢٤٦٦ جنيهًا وبضعة بنسات!!..

وتلك هي مصاريف الدراسة فقط.. ويشرح الكتاب السنوي الذي تصدره جامعة كمبريدج أن الطالب يحتاج بعد ذلك إلى مصاريف (الكلية) نفسها - التي اتفقنا أنها مكان إقامته - وهي أقل قليلاً من ١٠٠٠ جنيه في العام الدراسي الواحد نحو ٩٥٠ جنيهًا..

ليس ذلك فقط؛ بل إن طالب جامعة كمبريدج سوف يحتاج أيضاً إلى نفقات معيشته وطعامه.. الطالب الإنجليزي يحتاج إلى مبلغ ١٩٥٠ جنيهًا إذا كان سيدرس لمدة ٩ شهور فقط، وإلى ٢٦٠٠ جنيه إذا كان سيدرس لمدة عام دراسي كامل ١٢ شهراً.. بينما يحتاج زميله الطالب الأجنبي إلى ٢٤٧٥ جنيهًا إذا كان سيدرس لمدة ٩ شهور، وإلى ٣٣٠٠ جنيه إذا كان سيدرس لمدة عام كامل..

انتظر قليلاً ولا تتعجل فلم ينته بند المصروفات بعد: المصروفات التي ذكرتها سابقاً للطالب الأعزب الوجداني (اللى بطوله).. لكن الطالب المتزوج - إنجليزي كان أو أجنبياً - سوف يحتاج إلى ١٥٠٠ جنيه أخرى لنفقات زوجته على مدار العام الدراسي.. فإذا لم يكن قد عمل حسابه و(نظر حوله) وتسرع وأنجب أطفالاً؛ فإن كل طفل سوف يحتاج إلى ٨٥٠ جنيهًا كنفقات خلال العام الدراسي الواحد + ٤٥ جنيهًا أسبوعياً لنفقات الطفل أيضاً، وهي تشكل في مجموعها مبلغاً آخر لا يستهان به، هو ٢٣٤٠ جنيهًا، يعني أكثر من مصاريف الطالب الأب نفسه.. ليه ولماذا واشمعتني وعلشان إيه؟؟.. ذلك مالم يوضحه الكتاب السنوي لجامعة كمبريدج..

فقرة صغيرة أخرى ينبغي أن أذكرها هنا، لأنها يمكن أن تكون مفيدة، بصورة ما، لبعض الطلاب العرب الذين (قد) تنطبق عليهم، لتخفيف أو تقليل نفقات دراستهم.. وهي مسألة: متى يعتبر الطالب إنجليزيًا، ومتى يعتبر أجنبيًا..

يعتبر الطالب إنجليزياً ، وبالتالي يدفع المصروفات كالتطالب الإنجليزي ؛ فى عدة حالات :

● إذا كانت أسرته مهاجرة إلى إنجلترا وتقيم فيها وتعمل بها منذ فترة لا تقل عن ٤ سنوات قبل التحاق الطالب بجامعة كمبريدج ..

● الطالب الذى يجرى إلى كمبريدج وفقاً لاتفاقيات التبادل الثقافى أو التبادل الجامعى - (وهو نظام آخر غير نظام البعثات المعتاد) ..

● الطالب الذى تشهد الحكومة البريطانية أنه لاجئ سياسى لبريطانيا ، هو شخصياً أو أسرته طبعاً ، وفقاً لاتفاقية جنيف للاجئين السياسيين فى ٢٨ يوليو ١٩٥١ المعدلة بالبروتوكول المضاف فى ١٤ أكتوبر ١٩٦٧ ، على شرط أن تكون بريطانيا هى محل إقامته الوحيد منذ قبوله أو قبول أسرته كلاجئين سياسيين ..

وبمجرد قبول الطالب (الإنجليزى) فى جامعة كمبريدج ؛ فإن (كل) الطلبة والطالبات الإنجليز يحصلون على منح دراسية مجانية من إدارات التعليم فى المناطق التى جاءوا منها من داخل إنجلترا ، بالإضافة إلى أنهم يتقاضون - من هذه المناطق التعليمية - (مصرف جيب) كافياً جداً ومحترماً ، تبعاً لدخل أسرهم .. فكلما قل دخل الأسرة زاد (مصرف الجيب) ، والعكس صحيح ، لنفقات طعامهم وملابسهم ومواصلاتهم ومصاريفهم الثرية .. ويكون (مصرف الجيب) هذا هو ١٤٠٠ جنيه فى السنة الدراسية ، للطالب الواحد طبعاً ، يعنى حوالى ١٢٠ جنيهًا فى الشهر! ..!

ومسألة أخرى (كلما قل دخل الأسرة زاد مصرف الجيب الذى تدفعه الإدارة التعليمية للطالب الإنجليزي) فهى مسألة نسبية جداً ولا مجال للقياس والمقارنة فيها بيننا وبينهم .. فإن الأسرة الإنجليزية التى دخلها الشهرى هنا ٨٠٠ جنيه - إسترليني طبعاً - تعتبر هنا فى إنجلترا أسرة فقيرة (دقة) تحتاج إلى المساعدة ، وتحصل عليها فعلاً من الدولة وليس من أهل الخير! ..!

ويشترط على طالب أو طالبة جامعة كمبريدج؛ إذا لم يكن يسكن في إحدى الكليات؛ أن يسكن في داخل (كردون) المدينة بحيث لا يبعد عنها بأكثر من ٩ أميال.. بمعنى أن الطالب الذى تعيش أسرته فى مدينة لندن على بعد ساعة واحدة فى القطار؛ لابد وأن يسكن فى داخل كمبريدج ولا يستطيع أن يأتى إليها كل صباح ويعود إلى لندن بعد نهاية اليوم الدراسى.. بينما الطالب الذى بيت أسرته فى قرية قريبة من كمبريدج - أقل من ٩ أميال - يستطيع أن يسكن ويعيش فى بيته مع أسرته، ويظل أيضاً يتقاضى (مصروف الجيب) ١٢٠ جنيهًا كل شهرًا!!..

أما الطلبة الذين وجدوا لهم أماكن فى داخل مباني الكليات؛ فهم قد يسكنون فى غرف حديثة ومبينة هذا العام فقط؛ وقد يسكنون فى غرف عمرها ٦٠٠ سنة!!..



عند بداية جامعة كمبريدج فى أواسط القرن الثالث عشر؛ كانت أقرب ما تكون مركزاً للدراسات والأبحاث.. ثم بدأ طلبة المرحلة الجامعية - الليسانس والبكالوريوس - يتدفقون بكثرة على الجامعة منذ عام ١٧٢٠.. وحتى ذلك الوقت كان طلبة جامعة كمبريدج يتعلمون فى نفس المباني التى يقيمون وينامون ويعيشون فيها - (أقرب إلى نظام المدارس الداخلية والكليات العسكرية عندنا فى مصر) - وحتى اليوم لازالت تبنى مبانٍ جديدة وقاعات جديدة للمحاضرات وللأستاذة.. والمواد التى تدرس فى جامعة كمبريدج تبدأ بالموسيقى وتنتهى بالكومبيوتر، مروراً بالآداب والفنون واللغات الحية واللغات غير الحية، والدراسات الشرقية والاقتصاد والعلوم السياسية والتاريخ والتربية وعلم النفس وعلم النفس التجريبي وعلم الاجتماع والقانون والفلسفة والهندسة والجغرافيا وعلم الحيوان والجيولوجيا والرياضيات والإحصاء والكيمياء والفيزياء والكيمياء الحيوية والأشعة والعلاج بالأشعة والصيدلة والطب وطب الأطفال والطب النفسى وعلم الأورام والجراحة والآثار وهندسة العمارة وتاريخ العمارة والهندسة الكيميائية والاقتصاد المحلى

والدراسات الأفريقية والدراسات الدولية ودراسات أمريكا اللاتينية ودراسات جنوب آسيا، كما أن هناك معهداً خاصاً لدراسة الجريمة..
وذلك كله فى دورات دراسية تبدأ من ٩ شهور، حتى عام دراسى كامل ١٢ شهراً، فما فوق ذلك بلا حد أقصى للمدة، حتى تزهى أنت من الدراسة أو تزهى الدراسة منك..

* * *

وكل كلية من كليات جامعة كمبريدج مستقلة تماماً عن إدارة الجامعة وتدير نفسها بنفسها ولها إدارتها المستقلة مالياً وعلمياً، ولها مكتبتها وأنديتها الرياضية وأنشطتها الاجتماعية التى لا تخضع لأى نوع من الإشراف من إدارة الجامعة.. بل ولها أيضاً عقوباتها ونظامها التأديبى الخاص..

وقد أنشئت هذه الكليات غالباً بواسطة منح أو هبات من بعض الأثرياء.. وعند بداية إنشاء الكليات كانت كل كلية تقدم للطلاب الذين يتعلمون بها السكن والإقامة والمعيشة، والتعليم طبعاً، مجاناً.. ثم حين أصبح من المعتاد أن تقبل الكليات طلاب المرحلة الجامعية للحصول على الليسانس أو البكالوريوس؛ كان على طلاب هذه المرحلة فقط أن يدفعوا مصروفات.. ولازال ذلك هو، غالباً، المعمول به حتى الآن.. أما الذين يطلق عليهم لقب (فيلو Fellow) أو (زميل) - وهو مايعادل (المعيد) عندنا - فتتولى الكليات نفسها الإنفاق عليهم وعلى دراساتهم بها، من رصيد المنح والهبات والأوقاف التى توقف على الكليات.. وفى جميع كليات جامعة كمبريدج - ماعدا ثلاث كليات فقط - يتولى هؤلاء الـ (زملاء) أو الـ (Fellow) انتخاب رئيس كلياتهم..

وكل كلية فيها قاعة طعام وكنيسة صغيرة ومكتبة وبار وقاعة للجلوس والدراسة وقراءة الصحف.. وفى بعض الكليات يوجد ما يشبه الـ (ميس) للوجبات السريعة غير الرسمية (!!!).. فإن نظام الوجبات الرسمية يحتم على طلبة الكلية أن يجتمعوا جميعاً على مائدة العشاء فى صالة الطعام الرئيسية خمس مرات كل أسبوع على الأقل!!!

وابتداءً من عام ١٩٧٢ بدأت العديد من كليات جامعة كمبريدج التي كانت تصر على عدم اختلاط الجنسين فى السكنى بداخلها؛ تغير من نظامها لى تسمح بقبول الجنسين معاً، فيتجاوز الصبيان والبنات فى السكن فى داخل الكلية الواحدة، وتصبح الغرف المتجاورة تضم صبياناً وبنات لا يهم!!... وحتى عام ١٩٨٠ كانت ١٨ كلية قد سمحت بإقامة الجنسين معاً داخل الكليات، بينما بقيت كليتان فقط قاصرتان على قبول الرجال فقط، وخمس كليات لا تقبل إلا البنات فقط. وفى البداية كان من غير المسموح للطالبات البنات بزيارة الطلبة الصبيان فى حجراتهم الخاصة أو (البقاء معهم فيها) إلا لوقت محدد - العاشرة مساءً فى بعض الكليات - لكن يبدو أن ذلك قد أصبح ماضياً الآن أيضاً!!..

وفى جامعة كمبريدج الآن بكلياتها المختلفة ١٢٦٨٠ طالباً وطالبة.. منهم ٣٨٢٠ فى مرحلة الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراة)، و٨٨٦٠ طالباً وطالبة فى المرحلة الجامعية (الليسانس والبكالوريوس).. يقابلهم ٢٧٤٧ من الأساتذة والمحاضرين.. أى بمتوسط أستاذ واحد لكل ٥ طلاب، أو - للدقة - ١٠ أساتذة لكل ٤٦ طالباً وطالبة!!.. وباللهم على رأى يوسف وهبى: أين نحن من ذلك فى جامعاتنا فى مصر، التى - على قدر علمى - يوجد فى أصغر كلية فى أى جامعة من جامعاتنا عدد طلاب أكبر من عدد طلاب جامعة كمبريدج كلها!!..

نلتقط أنفاسنا ونستريح قليلاً من الحديث عن جامعة كمبريدج؛ ونحدث عن شىء آخر قبل أن نعود إلى الحديث عن الجامعة مرة أخرى.. فنحن لا نستطيع أن ننسى أن الجامعة هى المدينة والمدينة هى الجامعة..

فى كمبريدج؛ على الرغم من صغر المدينة؛ عدد كبير من المتاحف أهمها متحف [فيتز ويليام]، متحف [فولك]، متحف الجامعة، متحف العمارة التقليدية أو الكلاسيكية، متحف الحيوان، متحف العلوم، متحف الجيولوجيا، متحف

الفنون، متحف التكنولوجيا، متحف تاريخ كمبريدج.. بالإضافة إلى مكتبات الجامعة المسموح بزيارتها كمتاحف..

وحول مدينة كمبريدج يوجد العديد من الأماكن والمعالم التي تستحق الزيارة والمشاهدة، المسافات بينها وبين المدينة تقطعها بين دقيقتين و٤٥ دقيقة.. ومكتب السياحة البريطاني في كمبريدج ممكن أن يزود السائح الذى يزور المدينة بكل ما يحتاجه من المعلومات أو الخدمات، إبتداءً من زيارة كليات الجامعة المختلفة والكنائس الأثرية العديدة والمتاحف المنتشرة فى كل مكان؛ إلى أين يقيم وأين يأكل وأين يقضى فترة المساء والسهرة، إلى تزويده بدليلة أو مرشدة حسناء تشرح له كل ما يراه ويزوره فى كمبريدج: الجامعة والمدينة..

* * *

يطلق على خريج جامعة كمبريدج لقب [كمبريدج مان Cambridgeman].. ومن أشهر من درسوا فى جامعة كمبريدج:

الملك هنرى السابع ملك إنجلترا (١٤٨٥ - ١٥٠٩) + ٤ آخرين من أفراد الأسرة الملكية البريطانية.. لكن ولا واحد منهم أتم دراسته فى كمبريدج كاملة غير الأمير «تشارلز» ولى عهد بريطانيا الحالى..

بالمناسبة؛ سطر سريع أوضح فيه شيئاً لبعض القراء اللى مش شاطرين أوى فى التاريخ: لا نستطيع أن نقول (ولى عهد إنجلترا) بدلا من (ولى عهد بريطانيا)، وليس صحيحاً أن نقول (إنجليزيا) والصحيح أن نقول (بريطانيا).. لأن الدولة الآن اسمها (بريطانيا) وليس (إنجلترا).. لماذا؟!.. لأن (إنجلترا) مجرد إقليم واحد من أربعة أقاليم تتكون منها (بريطانيا) أو (المملكة المتحدة)، هى: إنجلترا - إسكتلندة - ويلز - أيرلندا الشمالية.. مثل أن نقول أن فلاناً (أسيوطى) أو (منوفى) أو (شرقاوى)، لكنه فى النهاية (مصرى) ولا يحمل جواز سفر (أسيوطى) أو الجنسية المنوفية.. أظن المسألة أصبحت واضحة الآن..

وبالمناسبة أيضاً مادمنّا قد فتحنا هذا الموضوع ولكى نخلص منه تماماً: كثير من الناس، ومن بينهم عدد من الكتاب والصحفيون، يقولون أو يكتبون (بريطانيا

العظمى)، وهى تسمية غير صحيحة، وصحتها (بريطانيا الكبرى)، كما نقول عن مدينة القاهرة (القاهرة الكبرى) وليس (القاهرة العظمى).. نسميها القاهرة (الكبرى) لأنها توسعت حتى تداخلت والتحمت بالمحافظات المتاخمة لها التى هى القليوبية والجيزة.. نفس الأمر بالضبط حدث مع مدينة لندن التى زحفت على حدود المقاطعات المتاخمة لها فأصبحت (لندن الكبرى) وليست (لندن العظمى)، وكما حدث مع (إنجلترا) حين انضمت إليها (ويلز) و (إسكتلندة) و (أيرلندا الشمالية) لكى تصبح جميعها مملكة واحدة باسم (بريطانيا الكبرى) وليست (بريطانيا العظمى).. اللهم إنى قد أبلغت..

* * *

من بين الذين درسوا فى جامعة كمبريدج أيضاً الشاعر الإنجليزي الشهير «ميلتون».. وواضح أنه كان يحب الجامعة جداً لأنه قضى فيها ٧ سنوات كاملة!!..

الشاعر الإنجليزي الأشهر «لورد بايرون»..

العالم «إسحق نيوتن» صاحب قانون الجاذبية، الذى درس الفيزياء والرياضيات فى كلية «ترينيتى كولدج» عام ١٦٦١، ثم أصبح أستاذاً وپروفيسوراً فى نفس الكلية..

العالم «تشارلز داروين» صاحب كتاب (أصل الأنواع) ونظرية (النشوء والارتقاء).. ولم يكن هو وحده الذى درس فى كمبريدج؛ لكن هناك ثلاثة آخرون من أبنائه درسوا أيضاً فيها: «فرانسيس» و «جورج» و «هوراس»..

«أوليفر كرومويل».. الذى درس فى كلية «سيدنى ساسكس كولدج» عام ١٦١٦ لمدة عام واحد، ثم توفى والده فعاد إلى قريته ليعمل مزارعاً ويدير أرض الأسرة.. وأصبح عضواً فى البرلمان الإنجليزي عن منطقة كمبريدج عام ١٦٤٠، ثم قاد الحرب الأهلية بين البرلمان والملك «تشارلز الأول»، وجعل كمبريدج مقر قيادته فى الوقت الذى كانت جامعة كمبريدج فيه تدين بالولاء للملكية، فجعل «كرومويل» من كلية

[سانت جورج كولدج] سجنًا للمتعاطفين مع الملك.. حتى استطاع فى النهاية أن يرد الدين للملك «هنرى الثامن» الذى كان قد قطع رأس أحد رؤساء الجامعة قبل ذلك بنحو مائة عام؛ فقطع «كرومويل» رأس الملك «تشارلز الأول» بعد أن انتصر عليه، وحكم إنجلترا مكانه كأول - وآخر - رئيس لـ (جمهورية) إنجلترا لمدة ١١ سنة فقط، من عام ١٩٤٩ حتى عام ١٦٦٠، حين توفى «كرومويل»، فعادت الملكية إلى إنجلترا، أو عادت إنجلترا إلى الملكية مرة أخرى!!..

* * *

على الرغم مما ذكرته قبلاً من أن نظام (الكلية) فى جامعة كمبريدج يجعلها أقرب ما تكون إلى نظام (المدينة الجامعية) التى يقيم ويسكن فيها الطلاب لكنهم لا يتلقون العلم فيها؛ لكن - مع ذلك - فإنه لا يمكن لأى طالب أن يلتحق بالدراسة فى جامعة كمبريدج إلا إذا قبل طلبه للإقامة فى إحدى كلياتها أولاً!!.. بمعنى أنه يتقدم بطلبه أولاً إلى الكلية التى يريد أن يقيم فيها، فإذا قبلته كان ذلك معناه أن له مكاناً للدراسة التى يريدتها فى جامعة كمبريدج!!..

وقد ذكرت قبلاً مجالات الدراسة فى جامعة كمبريدج؛ والآن أقدم عرضاً سريعاً وموجزًا جداً عن كل كلية من كليات الجامعة، حسب تاريخ إنشائها:

● كلية [بيتر هاوس كولدج].. هى أولى وأقدم كليات الجامعة، فقد أنشئت فى القرن الثالث عشر: عام ١٢٨٤، وفى الوقت نفسه هى أصغر كليات الجامعة.. أنشأها «هيو بالسهام» أسقف منطقة (إيلى).. عدد الطلبة بها ٤٠ فى مرحلة الدراسات العليا و ٢١٠ فى المرحلة الجامعية (الليسانس أو البكالوريوس)..

● كلية [كلير كولدج].. الكلية رقم ٢ فى تاريخ جامعة كمبريدج.. بدأ وجودها فعلياً عام ١٣٢٦، بعد ٤٢ سنة كاملة من أول كلية.. ثم تولت رعايتها والإنفاق عليها عام ١٣٣٨ لىدى «إليزابيث دى كلير» وأطلقت على الكلية اسمها.. وهى كلية مختلطة تقبل الجنسين للإقامة بها.. عدد الطلبة والطالبات بها ١١٥ للدراسات العليا (الماجستير والدكتوراة) و ٣٥٠ للمرحلة الجامعية..

● كلية [بيمبروك كولدج].. أنشئت عام ١٣٤٧.. عدد طلبتها ٦٠ للدراسات العليا + ٣٣٠ للمرحلة الجامعية..

● كلية [جونفيل أند كايس كولدج].. أنشئت بعد [بيمبروك كولدج] بعام واحد فقط: عام ١٣٤٨.. تضم ١٠٠ طالب دراسات عليا + ٤٥٠ للمرحلة الجامعية..

● كلية [ترينيتي هول كولدج].. جاءت بعد عامين آخرين، ففي عام ١٣٥٠ أنشأها أساساً لدراسة القانون الأسقف «بيتمان» أسقف منطقة (نوريتش) - حيث توجد الآن قرية إنجليزية كل سكانها مسلمين إنجليز!! - وهي كلية صغيرة نسبياً تضم من الجنسين ٨٠ دارساً ودارسة لمرحلة الدراسات العليا + ٣٠٠ للمرحلة الجامعية..

● كلية [كوروبوس كرايستى كولدج].. كانت السنوات الخمس ١٣٤٧ - ١٣٥٢ من أنشط السنوات في تاريخ جامعة كمبريدج؛ فقد تم خلالها إنشاء ٤ كليات، في حين أنه في خلال الـ ١٥٣ سنة التالية لم تنشأ غير ٤ كليات أخرى فقط. انضمت كلية [كوروبوس كرايست كولدج] إلى كليات جامعة كمبريدج عام ١٣٥٢ ليصبح عدد كليات الجامعة حتى ذلك الحين ٦ كليات خلال ٦٨ سنة منذ بدء إنشاء الجامعة نفسها.. وتضم هذه الكلية ١٠٠ طالب دراسات عليا + ٢١٠ طلاب للمرحلة الجامعية..

● كلية [كنجز كولدج].. بعد ما يقرب من ٩٠ سنة كاملة مرت دون إنشاء أية كليات جديدة؛ بدأت الجامعة تزيد من عدد كلياتها في ببطء شديد، حتى إنه في خلال القرن الخامس عشر كله لم يتم إنشاء غير ٤ كليات فقط، كانت أولاهـا [كنجز كولدج] عام ١٤٤١ التي أنشأها الملك «هنرى السادس».. وهى الآن كلية مختلطة للجنسين معاً تضم ١٣٥ طالباً وطالبة لمرحلة الدراسات العليا + ٣٥٠ للمرحلة الجامعية..

● كلية [كوينز كولدج].. أنشأتها فى البداية الملكة «مارجريت» عام ١٤٤٨ ، ثم أعادت إنشائها مرة أخرى عام ١٤٦٥ الملكة «إليزابيث وودفيل» - وهى غير

الملكة «إليزابيث» الحالية التى لم تكن موجودة قطعاً فى ذلك التاريخ منذ أكثر من ٥٠٠ سنة، بل وغير الملكة «إليزابيث الأولى» التى كانت ثانى ملكة فى تاريخ إنجلترا وحكمتها لمدة ٤٥ عاماً من ١٥٥٨ إلى ١٦٠٣.. وأتصور - وذلك استنتاج شخصى قابل للتعديل والتصحيح طبعاً - أن الملكة «إليزابيث وودفيل» قد تكون زوجة الملك «إدوارد الرابع» الذى كان يحكم إنجلترا فى تلك الفترة ١٤٦١ - ١٤٨٣..

بعض خريجى كلية [كوينز كولدج] كانوا عابرة مرموقين، مثل العالم «أوسبورن رينولدز» الذى يطلق عليه لقب (أبو الهيدرو ديناميك) والذى عين كأول أستاذ للهندسة فى جامعة [مانشستر] وعمره ٢٦ سنة فقط.. ومثل القديس «جون فيشر» الذى أصبح كاردينالاً ورئيساً لجامعة كمبريدج نفسها، قبل أن يقوم الملك نارى المزاج متقلب الطباع «هنرى الثامن» بإعدامه!!.. و «هنرى الثامن» (١٥٠٩ - ١٥٤٧) يبدو أن الإعدام كان من (هواياته) المفضلة؛ فقد أعدم أيضاً اثنتين من زوجاته الست، وأعدم أعز أصدقائه سير «توماس موور» رئيس الكنيسة الإنجليزية وقتها، فليس مستغرباً إذن أن يصل (نشاطه) إلى إعدام رؤساء الجامعات كذلك!!..

● كلية [كوينز كولدج] مختلطة تقبل الطلبة والطالبات معاً للدراسة بها..
● كلية [سانت كاترين كولدج].. على الرغم من أن الملك «هنرى السادس» كان قد توفى عام ١٤٦٣؛ إلا أن كلية [سانت كاترين كولدج] التى أنشئت بعد وفاته بعشر سنوات كاملة، عام ١٤٧٣، تدين له بالفضل فى إنشائها.. وهى تضم ٦٠ طالباً للدراسات العليا + ٣٨٠ لمرحلة الدراسات الجامعية.. وهى كلية طريقة لها تقاليد «دمها خفيف».. منها أنه مسموح لطلبتها أن يدعوا زوجاتهم وأصدقاءهم وصديقاتهم لتناول (كل) وجبات الطعام معهم فى صالة الطعام فى الكلية، فيما عدا وجبة الإفطار!!.. لماذا وجبة الإفطار بالذات؟!.. الله أعلم..

● كلية [جيساس كولدج] أو [كلية عيسى]، التى كانت آخر كلية أنشئت فى القرن الخامس عشر، عام ١٤٩٦.. وهى كلية مختلطة للجنسين معاً، طلبة وطالبات، وتضم ٩٠ فى مرحلة الدراسات العليا + ٣٨٠ فى المرحلة الجامعية..

● كلية [كرايستز كولدج] أو [كلية المسيح].. كان اسمها فى بداية إنشائها على يد «ويليام بينجهام» عام ١٤٣٧ [جودز هاوس] أو [بيت الله]؛ ثم جاء الملك «هنرى السادس» فقطع فى موقعها القديم المطل على النهر ليكون قصراً له؛ فاستولى عليه ونقل [جودز هاوس] إلى موقعها الحالى.. ثم جاءت ليدى «مارجريت بيوفورت» أم الملك «هنرى السابع» لكى تعيد إنشاء هذه الكلية من جديد عام ١٥٠٥ وتغير اسمها إلى الاسم الحالى [كرايستز كولدج].. [كرايستز كولدج] كلية رجالى أو للرجال فقط، وعدد الطلبة بها ١٠٠ للدراسات العليا + ٣٦٠ للمرحلة الجامعية..

● كلية [سانت جونز كولدج].. ويبدو أن ليدى «مارجريت بيوفورت» أم الملك «هنرى السابع» وكونتييسة (ريتشموند) و (دربى)؛ صاحبة أفضال كثيرة على جامعة كمبريدج؛ فبعد ٦ سنوات فقط من إنشائها كلية [كرايستز كولدج] كانت ليدى «مارجريت» نفسها قد انتقلت إلى رحمة الله، لكنها لم تنس أن تخصص جانباً من وصيتها لإنشاء كلية أخرى جديدة تضم لجامعة كمبريدج، وكانت هى كلية [سانت جونز كولدج] التى أنشئت عام ١٥١١ لتكون ثانى أكبر كليات الجامعة كلها.. ففى تضم ٧٠٠ دارس، ربعهم تقريباً فى مرحلة الدراسات العليا..

● كلية [ماجدالين كولدج].. كان مبناها موجوداً منذ عام ١٤٢٨ كبيت أو كـ (نزل) للرهبان.. وفى عام ١٥٤٢ تحول إلى كلية باسم [ماجدالين كولدج].. وقد هاجر عدد كبير من خريجي [ماجدالين كولدج] إلى أمريكا فى بداية اكتشافها واستقروا فى ولاية (نيو إنجلاند) أو (إنجلترا الجديدة)، وأصبح واحد منهم أول رئيس لجامعة [هارفارد] أشهر وأهم الجامعات فى أمريكا..

● كلية [ماجدالين كولدج] هى الأخرى كلية رجالى أى للطلبة الرجال فقط ولا تقبل الجنس الناعم.. وتضم ٦٠ طالباً فى مرحلة الدراسات العليا + ٢٩٠ بالمرحلة الجامعية..

● كلية [ترينيتى كولدج] أو كلية [الثالوث المقدس].. أنشئت عام ١٥٤٦ فى عهد الملك العنيف «هنرى الثامن» وقبل عام واحد من وفاته.. وهى تعتبر أكبر كليات

جامعة كمبريدج من ناحية عدد الطلاب المقيمين بها، وأكثرها ثراءً من ناحية الأوقاف الموقوفة للاتفاق عليها.. وقد ظلت [ترينيتي كوليدج] تقاوم التحاق البنات بها لمدة ٤٣٠ عاماً؛ حتى استسلمت أخيراً فبدأت في قبول طالبات الدراسات العليا بها في عام ١٩٧٦.. وبعدها بعامين فقط كانت قد فتحت كل أبوابها للبنات الصغيرات القادمات من المدرسة الثانوية للاتحاق بجامعة كمبريدج لدراسة المرحلة الجامعية، ليصبح عدد طلابها وطالباتها ٦٥٠ للمرحلة الجامعية + ٢٤٠ لمرحلة الدراسات العليا..

● كلية [إيمانويل كوليدج].. أنشئت عام ١٥٨٤ وتضم ٩٠ في مرحلة الدراسات العليا و ٣٧٠ في المرحلة الجامعية.. ومن تقاليد الطريفة أنها لا تسمح بقبول الطالبات فيها لمرحلة الدراسات العليا إلا إذا كن من خريجات جامعة كمبريدج أصلاً.. بمعنى أننا لن نجد فيها طالبة واحدة حصلت على الليسانس أو البكالوريوس من أى جامعة أخرى، حتى لو كانت جامعة أوكسفورد الأخت الكبرى لجامعة كمبريدج!!..

اثنان من خريجي كلية [إيمانويل كوليدج] حصلوا على جائزة نوبل..

● كلية [سيدنى ساسكس كوليدج].. سادس وآخر كلية من كليات جامعة كمبريدج أنشئت خلال القرن السادس عشر.. أنشئت عام ١٥٩٦ تنفيذاً لوصية ليدى «فرانسيس سيدنى» كونتيسة (ساسكس).. وهى تقبل الجنسين معاً، وتضم ٧٠ طالباً وطالبة في الدراسات العليا + ٣٠٠ بالمرحلة الجامعية..

● كلية [داوننج كوليدج].. وتمر أطول فترة ركود فى حياة جامعة كمبريدج، فطوال قرنين كاملين هما القرن السابع عشر والثامن عشر، لم تزد كليات جامعة كمبريدج ولا كلية واحدة جديدة.. لكن بعد ٢٠٤ سنوات ومع نهاية آخر سنة من سنوات القرن الثامن عشر، سنة ١٨٠٠، ظهرت كلية [داوننج كوليدج] تنفيذاً لوصية الديبلوماسى الإنجليزي سير «جورج داوننج» الذى توفى عام ١٧٤٩.. وهو نفسه الرجل الذى يحمل اسمه الشارع الشهير فى لندن الذى فيه مقر رئاسة الوزارة

وسكن رئيس الوزراء فى بريطانيا (رقم ١٠ داوننج ستريت).. الطريف فى الأمر أن «سير جورج داوننج» نفسه لم يتخرج فى جامعة كمبريدج وإنما درس فى جامعة (هارفارد) فى أمريكا!!!..

كلية [داوننج كولدج] تضم ٦٠ دارساً لمرحلة الدراسات العليا + ٣٤٠ للمرحلة الجامعية..

● كلية [جيرتون كولدج].. ويبدو أن لجامعة كمبريدج فترات صحو وفترات ركود فى مسألة إنشاء الكليات.. فبعد [داوننج كولدج] مرت ٦٩ سنة أخرى قبل أن تنشأ كلية جديدة: كلية [جيرتون كولدج]، التى أنشئت عام ١٨٦٩ لطلبة الدراسات العليا فقط.. التى من تقاليدھا الطريفة أن الطلبة وأصدقاءهم يدعون للعشاء مرة كل أسبوع مع أعضاء هيئة التدريس.. وتوضح الدعوة أن هذا العشاء مجاناً للطلبة وأصدقائهم!..

● كلية [نيونهام كولدج].. مرحلة الصحو مرة أخرى فى حياة جامعة كمبريدج.. فبعد ٦٩ سنة من عدم إنشاء كليات جديدة فى الجامعة؛ تنشأ ٣ كليات أخرى فى خلال ١٣ سنة فقط.. فبعد كلية [جيرتون كولدج] بعامين فقط تنشأ كلية [نيونهام كولدج] عام ١٨٧١.. وفى الوقت الذى لم تكن فيه نساء ذلك العصر يجرؤن على الالتحاق بالجامعات؛ أنشئت كلية [نيونهام كولدج] لتكون أول كلية نسائية قاصرة على الطالبات فقط فى تاريخ جامعة كمبريدج، لتشجيع النساء على الالتحاق بالدراسة الجامعية.. ويبدو أنه قد حدثت محاولات عديدة لإلحاق الطلبة الرجال بكلية [نيونهام كولدج]، كانت آخرها عام ١٩٧٧، لكن كل هذه المحاولات كانت نتیجتها أن ظلت [نيونهام كولدج] كلية حريمى لا يسمح للرجال بالإقتراب منها.. ويبلغ عدد طالباتها الآن ٣٥٠ طالبة فى المرحلة الجامعية + ٥٠ فى مرحلة الدراسات العليا، بعضهم يقمن بالتدريس لطالبات المرحلة الجامعية فى نفس الوقت الذى يقمن فيه بأبحاثهن للماجستير والدكتوراة..

● كلية [سيلوين كولدج] هى الكلية الرابعة التى أنشئت خلال القرن التاسع عشر، فقد أنشئت عام ١٨٨٢ (نفس عام الإحتلال الإنجليزى لمصر!).. تخليداً

لذكرى «جورج أوجسطس» أول أسقف لنيوزيلاندا، ولكى تدرس فيها مبادئ كنيسة إنجلترا.. لكنها منذ عام ١٩٥٧ بدأت تقبل الجنسين معاً للالتحاق بها.. وتضم الآن ٦٠ طالباً وطالبة فى مرحلة الدراسات العليا + ٣٣٠ طالباً وطالبة فى المرحلة الجامعية..

● كلية [هيوز هول كوليدج].. أول كلية من كليات جامعة كمبريدج تنشأ لغرض إلحاق طلبة الدراسات العليا فقط.. أنشئت عام ١٨٨٥ لتكون الكلية الخامسة والأخيرة التى تنضم إلى جامعة كمبريدج خلال القرن التاسع عشر.. وهى تضم الآن ١١٠ طلاب وطالبات يدرسون لدرجة الماجستير والدكتوراة..

● كلية [نيو هول كوليدج].. ويأتى القرن العشرون ويمضى نصفه الأول كاملاً تقريباً بلا كلية واحدة جديدة فى جامعة كمبريدج؛ ثم تعود فترة الصحو مرة أخرى إلى الجامعة فيتوالى إنشاء الكليات الجديدة بها.. وقبل أن تمضى ٢٨ سنة من بداية النصف الثانى من القرن العشرين تكون ١٠ كليات جديدة قد انضمت إلى جامعة كمبريدج.. أولاها [نيو هول كوليدج] التى أنشئت عام ١٩٥٤، لتكون ثالث مستعمرة نسائية فى جامعة كمبريدج تحتلها النساء فقط.. وهى تضم ٣٠ طالبة فى مرحلة الدراسات العليا + عشرة أضعافهن بالضبط (٣٠٠ طالبة) فى المرحلة الجامعية..

● كلية [تشرشل كوليدج].. أنشئت عام ١٩٥٩ تكريماً لـ «سир ونستون تشرشل» رئيس وزراء إنجلترا خلال الحرب العالمية الثانية.. وهى كلية مختلطة طلبتها من الجنسين.. منهم ٢٠٠ فى مرحلة الدراسات العليا + ٣٧٠ فى المرحلة الجامعية..

● كلية [داروين كوليدج].. ويبدو أنه قد حدث فى أوائل الستينات من القرن الماضى - القرن العشرين - حدث تدفق طلابى على جامعة كمبريدج، فى مرحلة الدراسات العليا بالذات، كان نتيجته إنشاء خمس كليات جديدة متالية فى خلال ٣ أعوام فقط: من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٦، خصصت جميعها لطلبة وطالبات الدراسات العليا فقط.. كانت أولاها كلية [داروين كوليدج] عام ١٩٦٤، التى تعاونت فى إنشائها ثلاث من شقيقاتها الأقدم فى تاريخ جامعة كمبريدج، هى كليات [كونفيل

كولدج] و[جايوس كولدج] و [سانت جونز كولدج].. وقد حملت كلية [داروين كولدج] اسم واحد من أبرز خريجي جامعة كمبريدج هو العالم الشهير «داروين» صاحب نظرية (النشوء والارتقاء) وكتاب (أصل الأنواع).. وكان المفروض أساساً أن تضم ٤٠ دارساً فقط؛ لكنها حتى عام ١٩٨٠ كانت قد توسعت كثيراً حتى إنها قبلت عشرة أضعاف ذلك الرقم، ليصبح عدد طلبتها ٤٠٠ طالب وطالبة جاءوا من ٤٤ دولة من دول العالم..

● كلية [سانت إدموندز هاوس].. أنشئت عام ١٩٦٥ لطلبة الدراسات العليا فقط أيضاً.. وهى كلية صغيرة مختلطة من الجنسين تكاد تكون كلية عائلية، لأن زوجات الطلاب وأزواج الطالبات يعتبرون أعضاء فعليين فى أسرة الكلية ويشتركون فى كل أنشطتها..

ولأنها كلية عائلية فقد فتحت مؤخراً باباً صغيراً جداً لقبول عدد محدود جداً من طلبة وطالبات المرحلة الجامعية.. لكنها اشترطت فيهم شرطاً ظريفاً جداً وغريباً جداً أيضاً: هو ألا تقل أعمارهم عن ٢٥ سنة!!..

● كلية [ولفستون كولدج].. أنشئت عام ١٩٦٥ أيضاً، ولطلبة الدراسات العليا كذلك.. وأطلق عليها عند إنشائها اسم [يونيفيرسيتى كولدج]، ثم حملت اسمها الحالى [ولفستون كولدج] ابتداء من عام ١٩٧٣.. وهى أيضاً فتحت باباً صغيراً مؤخراً لقبول عدد محدود من طلاب المرحلة الجامعية عددهم ٤٠ فقط، بينما يبلغ عدد الملتحقين بالدراسات العليا ٢٤٠ طالباً وطالبة..

● كلية [لوسى كافينديش كولدج].. ثالث كلية تنشأ فى خلال نفس العام: ١٩٦٥، ورابع كلية فى جامعة كمبريدج تقبل الطالبات فقط. ليس ذلك فقط؛ إنما يشترط أيضاً ألا يقل عمر الطالبة عن ٢٥ سنة، على الرغم من أنها تضم ٥٠ طالبة فى المرحلة الجامعية المفروض أنهن جميعاً لم يحصلن على الليسانس أو البكالوريوس بعد، بينما متوسط السن الذى تحصل فيه الفتاة - إنجليزية كانت أو مصرية أو من أى جنسية أخرى - على شهادة الليسانس أو البكالوريوس هو ٢١ سنة أو ٢٢ سنة على الأكثر!!..

على العموم؛ فهناك ٢٠ طالبة أخرى فى مرحلة الدراسات العليا فى كلية [لوسى كافينديش كولدج]، ليصبح عدد الطالبات جميعهن ٧٠ طالبة فقط فى المرحلتين الجامعية والعليا..

● كلية [كلير هول كولدج].. ثانى كلية فى تاريخ جامعة كمبريدج، التى أنشئت عام ١٣٢٦، تحمل نفس الاسم: [كلير كولدج].. وهى التى أنشأت أختها الصغرى - أو لعلها حفيدتها الصغرى - كلية [كلير هول كولدج] عام ١٩٦٦، يعنى بعد ٦٤٠ سنة من وجود الكلية القديمة.. الكلية الجديدة مختلطة تضم الجنسين معاً، وأيضاً لطلبة الدراسات العليا فقط..

● كلية [فيتز ويليام كولدج].. أنشئت أساساً فى القرن الثامن عشر فى عام ١٨٦٩، لغرض إسكان ورعاية الطلبة الفقراء الذين لا يستطيعون الالتحاق بكليات جامعة كمبريدج ذات المصروفات.. ثم تحولت عام ١٩٦٦ إلى كلية مستقلة مختلطة للجنسين تضم ٧٠ من طلبة وطالبات الدراسات العليا + ٣٦٠ من طلبة وطالبات المرحلة الجامعية.. ولو أنها لازالت تحاول حتى الآن، بقدر الإمكان، أن تحتفظ بنفس التقليد فى رعاية وقبول الطلبة الممتازين الذين تنقصهم الإمكانيات المادية..

● كلية [روبنسون كولدج].. هى أول كلية من كليات جامعة كمبريدج تنشأ مفتوحة الأبواب بلا قيود.. فهى تقبل الطلاب من الجنسين أساساً، وللمرحلتين فى نفس الوقت: المرحلة الجامعية ومرحلة الدراسات العليا.. أنشأها «ديفيد روبنسون» الذى تحمل اسمه، وفتحت أبوابها للطلاب عام ١٩٧٧ بالرغم من أن مبانها لم تكتمل تماماً إلا فى عام ١٩٨٠.. ولأنها أحدث كليات جامعة كمبريدج على الإطلاق لذا فهى مبنية على أحدث طرز الجامعات الحديثة وبها كل الخدمات التى تحتاجها كلية جامعية..

* * *

أتصور أنه قد نالكم التعب من القراءة نفس ما نالنى من التعب من الكتابة عن جامعة كمبريدج.. لكننى بالفعل قد استمتعت بجامعة كمبريدج استمتاعاً كاملاً

ثلاث مرات: مرة في زيارتي للجامعة وكلياتها المختلفة، ومرة في لقائي بعدد كبير من طلابها والدارسين المصريين والعرب بها، والمرة الثالثة بقراءتي لتاريخ مدينة كمبريدج وجامعة كمبريدج وكلياتها؛ حتى تمنيت لو أنني كنت واحداً من طلبتها أو خريجها، وحتى حسدت طلبتها الحاليين وتمنيت لو أن يكونوا فعلاً يشعرون بأهمية الجامعة التي يعيشون فيها الآن أجمل أيام العمر: أيام الصبا والشباب وأيام الدراسة في الجامعة..

ولست أظنني كنت قادراً على أن أضع على الورق كل ماعرفته وكل ما قرأته عن جامعة كمبريدج وإلا احتاج الأمر إلى مئات من صفحات هذا الكتاب قد تصلح كتاباً مستقلاً.. لذا فإنني أضع في نهاية هذا الفصل عنوان جامعة كمبريدج نفسها، للقراء الذين قد يحتاجون إلى أى معلومات أخرى عن جامعة كمبريدج أو السبيل للالتحاق بأية كلية من كلياتها، ليكتبوا إليها مباشرة للاستفسار عن أية معلومات أخرى يريدونها.. ولعل الأسهل من ذلك أن يطلبوا (الكتاب السنوي) الذي تصدره الجامعة ويضم كل المعلومات عن كليات الجامعة المختلفة وشروط الالتحاق بها وفروع الدراسة المختلفة الموجودة في ثلثي أشهر جامعة في العالم بعد جامعة أوكسفورد وقبل جامعة هارفارد..

* * *

وكننت قد تلقيت في بريدي اللندني عدداً من رسائل القراء والمستمعين الذين عرفوا عنواني في لندن من إذاعة الشرق الأوسط التي كنت أقدم فيها برنامجاً اسبوعياً بعنوان (حسين قدرى يحييكم من لندن)، يطلبون مني أن ألقى بعض الضوء على نظام المنح التي تقدمها بعض الجامعات البريطانية إلى الطلاب الأجانب، ومنهم الطلاب المصريون والعرب بطبيعة الحال.. وحملت حصيلة هذه الأسئلة والاستفسارات إلى الملحق الثقافي المصري في لندن، وقتها، الدكتور «هشام مخلوف»، الذي أوضح لي، وللقرء والمستمعين، الصورة:

- نظراً للظروف الإقتصادية الصعبة التي تمر بها بريطانيا في الوقت الحالي؛ فإن عدد المنح التي تقدمها الجامعات البريطانية للطلبة الأجانب - غير الإنجليز

- قد انخفض كثيراً جداً في السنوات الأخيرة.. والمنح تقدمها الحكومة البريطانية عادةً من خلال (المجلس البريطاني) أو (The British Council)، الذى يوزع هذه المنح - القليلة جداً أصلاً - على الجهات المختلفة كالجامعات ومراكز البحوث وما أشبه ذلك، فى الدول الأجنبية.. وتكون فى أغلبها منحةً تدريبيةً لمدة قصيرة وليسست للحصول على درجتى الماجستير أو الدكتوراة.. وهى توزع للجهات وليس للأشخاص.. بمعنى أن كل مؤسسة تعليمية هى التى توفد بمعرفتها الأشخاص من العاملين فيها الذين ترى أنها فى حاجة إلى إيقادهم للتخصص، حسب احتياجاتها هى..

النوع الآخر من المنح تقدمه بعض الجامعات البريطانية.. وهى منح لها ظروفها الخاصة.. فبعض الشركات الكبيرة ليست لديها إدارات بحوث خاصة بها، فتقدم مبلغاً ما لإحدى الجامعات الإنجليزية لى يقوم الدارسون بهذه الجامعة بإجراء بحثٍ ما معين تحتاجه هذه الشركة فى مدى سنتين أو ثلاث سنوات أو أربع، حسب ظروف الشركة.. وبالتالي تقسم الجامعة هذا المبلغ بحيث يكفى لتقديم عدد من المنح لعدد من الباحثين أو الدارسين يشتركون فى إجراء هذا البحث، كل منهم يقوم بدراسة نقطة معينة أو جزء معين منه.. وفى هذه الحالة تعلن الجامعة عن هذه المنح لدراسة الدكتوراة بحيث تحدد الجامعة موضوع البحث الذى سيجريه الدارس ولا يكون ذلك متروكاً لرغبة أوقرار الدارس نفسه.. بحيث يخدم البحث فى النهاية الجهة أو الشركة التى أنفقت أصلاً على دراسة الدارس أو المبعوث.. وفى هذه الحالة تخاطب الجامعات البريطانية مكاتب البعثات الأجنبية فى بريطانيا، كمكتب البعثات المصرى أو السورى أو السودانى، إلخ.. وترسل إلينا الشروط التى تتطلب هذه المنح توفرها فى الدارس المطلوب ترشيحه لهذه المنحة أو تلك.. ومن ناحيتنا نحن؛ فمن باب التوفير على حكومتنا فإننا نبحث ما إذا كانت هذه الشروط ممكن أن تنطبق على أى عدد من المرشحين أصلاً لبعثات من مصر على نفقة الدولة، ونضعهم على هذه المنح، حتى يمكن أن نستفيد من الوفر

الذى سيحدث فى ميزانية البعثات نتيجة ذلك ؛ فى إيفاد عدد آخر غيرهم من المبعوثين المصريين للدراسة على نفقة الدولة..

وفى خلال وجودى كملحق ثقافى فى لندن خلال الأعوام الأربعة الأخيرة لم يكن نصيب مصر - على سبيل المثال - من هذا النوع من المنح سوى منحتين فقط كل سنة من هذه السنوات الأربع..

ويستطرد الدكتور «هشام مخلوف» الملحق الثقافى المصرى فى لندن :

- النوع الثالث من المنح جاء نتيجة الارتفاع الياهظ فى المصروفات الدراسية بالجامعات الإنجليزية فى الوقت الحالى ؛ مما جعل كثيراً من الدول غير الغنية ، مثل مصر ، تعلن أننا سوف نضطر إلى تقليل عدد مبعوثينا إلى بريطانيا نتيجة ارتفاع المصروفات.. لذا فقد اجتمعت اللجنة البريطانية التى تعادل [المجلس الأعلى للجامعات] فى مصر ، وتم الاتفاق على أن تقدم الحكومة البريطانية نحو ٥٠٠ أو ٦٠٠ منحة كل سنة للدول النامية.. لكنها ليست منحة كاملة تغطى كل نفقات المبعوث مثلما كان الحال فى الماضى ؛ لكنها فقط تغطى (فارق المصروفات الدراسية) التى يدفعها الطالب الأجنبى زيادة عما يدفعه زميله الطالب الإنجليزى.. وعلى سبيل المثال فإنه إذا كان الطالب الأجنبى يدفع ٤ آلاف جنيه إسترلنى فى السنة ، بينما يدفع الطالب الإنجليزى ١٠٠٠ جنيه فقط؛ فإن هذه المنحة تجعل الطالب الأجنبى يدفع ١٠٠٠ جنيه فقط مثله مثل الطالب الإنجليزى.. وفى هذه الحالة يكون قد وفر على دولته ٣٠٠٠ جنيه إسترلنى فى السنة الدراسية الواحدة..

ونرسل نحن - المكتب الثقافى المصرى فى لندن - إلى الجامعات المصرية لنخطرهما بهذه المنح ، ونطلب منها ترشيح من تراهم جديرين بهذه المنح من المرشحين للبعثات أصلاً.. وترسل الجامعات المصرية أسماء هؤلاء الدارسين المرشحين وبياناتهم إلى المجلس الأعلى للجامعات الإنجليزية ، ليختار من بينهم العدد الذى يريده..

ونصيب مصر من هذه المنح يتزايد باستمرار عاماً بعد عام.. فقد كان منذ عامين ٢٠ منحة فقط؛ وفى العام الماضى حصلنا على ٩٠ منحة.. وهو رقم كبير بالنسبة

لدولة واحدة تحصل عليه من بين ٥٠٠ أو ٦٠٠ منحة.. وفى هذه الحالة تكون المنحة شخصية باسم الدارس الذى فاز بها..

وفى حالة فوز طالب مصرى بهذه المنحة فإنه يكون قد وفر على الدولة فى مصر نحو ثلثى نفقات البعثة، وأحياناً أكثر.. لذا فإن الدولة فى مصر قررت أن تصرف مكافأة قدرها ٥٠٠ جنيه إسترليني فى السنة للطالب الذى يفوز بهذه المنحة.. وإذا نظرنا إلى أن عدد المبعوثين المصريين فى إنجلترا الآن هو ٥٠٠ مبعوث؛ فسنجد أن الـ ٩٠ مبعوثاً مصرياً الذين فازوا بهذه المنح يمثلون نحو ٢٠٪ من مجموع المبعوثين كلهم..

ولم يكن ممكناً أن أذهب إلى كمبريدج وأعود منها دون أن التقى بالطلاب العرب بها.. تلك مسألة طبيعية تماماً.. أما الذى لم يكن طبيعياً فى تقديرى؛ فهو أنه على رغم الشهرة التى تتمتع بها جامعة كمبريدج فى العالم العربى كله؛ ولمعرفتى أن عدد الطلاب العرب الذين يدرسون فى جامعات بريطانيا يزيد عن ١٠ آلاف طالب؛ ولو أن هؤلاء الـ ١٠ آلاف طالب عربى قد قسموا بالتساوى على الـ ٣٥ جامعة المنتشرة فى أنحاء بريطانيا؛ فإن نصيب كل جامعة منها سيكون حوالى ٢٨٥ طالباً.. لكننى مع ذلك فقد تصورت أن نصيب جامعة كمبريدج - هى وشقيقتها الكبرى جامعة أوكسفورد - سيكون نصيب الأسد تبعاً لشهرتهما فى العالم أجمع وفى العالم العربى بالذات الذى يكاد لا يعرف غيرهما من الجامعات الإنجليزية.. لكننى فوجئت بأن عدد الطلاب العرب فى جامعة كمبريدج لا يكاد يبلغ ثلث هذا الرقم أصلاً!..!

الطبيب السعودى «إبراهيم صقر الحسن» يدرس فى جامعة كمبريدج منذ ما يقرب من سنة الآن، ويبقى أمامه سنتان أخريان حتى ينتهى من رسالة الدكتوراه فى (علم الحداثة).. حكى لى الدكتور «إبراهيم صقر» عن شعارات كليات جامعة كمبريدج:

- كل كلية من كليات جامعة كمبريدج لها شعار أو (بادج) تتميز به ويدل عليها، بالإضافة إلى أنه للجامعة كلها شعار واحد أو (بادج) واحد، هو رسم لكتاب مقبول.. نفس الشيء بالنسبة لجامعة أوكسفورد الشقيقة الكبرى لجامعة كمبريدج.. لكن رمز جامعة أوكسفورد هو كتاب مفتوح.. والمنافسة التقليدية بين الجامعتين العريقتين جعلت المداعبات بينهما تصل إلى أن طلبة جامعة كمبريدج أطلقوا تشنيعة بأن جامعة أوكسفورد قد اختارت رسم الكتاب المفتوح رمزاً لها لأن طلبة جامعة أوكسفورد يعانون من بطة في الفهم جعل الكتاب بين أيديهم مفتوحاً إلى الأبد لا ينتهى أبداً!!.. ورد طلاب جامعة أوكسفورد على التشنيعة بمثلها تقول إن رمز جامعة كمبريدج هو كتاب مقبول لأن طلبتها يتخرجون منها كما دخلوها لا يقتحون كتبهم ولا يستفيدون منها!!..

والتشنيعتان كما ترى - ياعزيزى القارئ المصرى والعربى - واضح فيهما مستوى التنكيت الإنجليزى وخفة الدم الإنجليزية التى تتواءم كثيراً مع حالة الطقس هناك!!..

* * *

الطبيب المصرى الدكتور «محمد رأفت خلف» المدرس المساعد بكلية الطب بجامعة أسيوط؛ عضو بعثة هنا فى كمبريدج للحصول على درجة الدكتوراة فى (التحاليل الطبية)؛ لكنه بعد أن حصل على الدكتوراة ويعود إلى مصر سوف يعين مدرساً فى كلية الطب جامعة المنوفية التى أوفدته فى البعثة.. الدكتور «رأفت» الذى بدأ دراسته فى كمبريدج منذ سنتين ويبقى أمامه سنتان أخريان قبل أن يحصل على درجة الدكتوراة؛ كان دليلى فى زيارتى لكمبريدج وجامعة كمبريدج، هو وزميليه المبعوثين المصريين أيضاً: الطبيب «عماد الدين نافع» والمهندس «فهمى فتح الباب»..

قال لى الدكتور «رأفت» إن جامعة كمبريدج تضم ٢٣ نوعاً من الدراسات الأكاديمية تشمل ٥٠ قسماً.. فمثلاً (الطب) هنا نوع واحد من الدراسة، لكن يتفرع منه أقسام:

التشريح والميكروبيولوجى والجراحة والتحاليل ، وهكذا.. وأن فى بريطانيا كلها ٣٥ جامعة موزعة ومنتشرة فى جميع أنحاء بريطانيا ، لكن أشهرها جميعاً جامعتا أوكسفورد وكمبريدج ، لأنهما أقدم جامعتين ، فمر كل منها أكثر من ٧٠٠ سنة.. وجامعة كمبريدج متغلغلة تماماً فى المدينة - يستطرد الدكتور محمد رأفت خلف - فتخيل ٣٠ مدينة جامعية صغيرة + ٥٠ مبنى للأقسام أو الدراسات + مبانى الإدارة والمعامل والمكتبات والملاعب الرياضية ؛ مبعثرة جميعها فى أرجاء المدينة التى هى صغيرة أصلاً - ١٠٠ ألف نسمة فقط - فنستطيع أن نقول : إن المدينة قائمة حول الجامعة أو إن الجامعة موجودة فى كل المدينة.. لذا يطلق على مدينة كمبريدج (المدينة الجامعة) ، وذلك صحيح فعلاً..

وفى جامعة كمبريدج ٩٠٠٠ طالب وطالبة يدرسون للحصول على الليسانس أو البكالوريوس + ٣٠٠٠ طالب وطالبة لمرحلة الدراسات العليا : الماجستير والدكتوراة ، من كل أنحاء العالم.. والفروض أنهم جميعاً يقيمون داخل كردون المدينة بحيث لا يبعد سكن الواحد منهم عن المدينة بأكثر من عشرة أميال.. والغرض من ذلك توفير مشقة الانتقال على الدارس لكى يعطى كل وقته للدراسة والتحصيل أولاً ، ثم معايشة الحياة فى الجامعة معايشة كاملة ثانياً.. لأن الجامعة هنا ليست مجرد مكان لتحصيل العلم فقط وإنما هى حياة اجتماعية كاملة..

والجامعة تدبر لطلبتهـا الـ ١٢٠٠٠ جميعاً مسألة الإقامة والسكن.. فبالإضافة إلى الـ (كلية) - التى اتفقنا على أنها هنا هى ما نطلق عليه فى بلادنا (المدينة الجامعية) - التى يوجد منها ٣٠ مدينة جامعية فى كمبريدج ، تستوعب النسبة الأكبر من الطلاب ؛ فإلى جانب ذلك فإن الجامعة بها مكتب خاص لديه بيان بالأسر والعائلات الإنجليزية التى تسكن فى مدينة كمبريدج ولديها الاستعداد لاستضافة طلاب وطالبات للإقامة لديها عند تعذر إيجاد أماكن لهم داخل المدن الجامعية.. وفى الحالتين فالفرصة متاحة أمام الطالب أو الطالبة لمعايشة ومعاشره والاحتكاك بالحياة الإنجليزية اليومية ، سواء داخل المدن الجامعية أم فى بيوت الأسر الإنجليزية..

والمبعوث الذى معه أسرته : زوجة ، أو زوجة وأطفال ؛ فإن الجامعة تعطيه شقة مناسبة كاملة تتسع للأسرة بشكل مريح جداً.. والعزب الذى يسكن فى شقة من حجرة واحدة داخل المدينة الجامعية يدفع ٦٠ جنيهاً شهرياً ، والمتزوج الذى يسكن فى الجامعة يدفع ١١٠ جنيهاً فى الشهر.. أما إذا سكن كل منهما خارج الجامعة فإن هذه الإيجارات تزيد بنسبة ٥٠٪ تقريباً.. والمبعوث المصرى الأعزب يتقاضى من مكتب البعثات المصرى فى لندن مرتباً قدره ٢٦٠ جنيهاً شهرياً - إسترلينياً طبعاً - فإذا كان متزوجاً تقاضى زيادة قدرها ٣٠٪ للزوجة + ١٠٪ لكل طفل من أطفاله الموجودين معه فى إنجلترا.. وغير مصاريف الدراسة التى تدفعها عنه الدولة فى مصر للجامعة هنا ؛ فإن الدولة فى مصر تدفع عنه أيضاً ٩٥٠ جنيهاً سنوياً رسوم المدينة الجامعية فى مقابل الأنشطة والرحلات والحفلات والرعاية الاجتماعية والصحية وما إلى ذلك..

* * *

الطبيب الأردنى «نايف عقل» مبعوث إلى جامعة كمبريدج للحصول على درجة الدكتوراة فى (علم الأمراض).. سألته مندهشاً: «يعنى إذا كنت أنا مريضاً بماذا ، أذهب إليك لتعالجنى؟!».. وفزعت حين عرفت أننى لكى أذهب إليه لكى يفحصنى لابد وأن أكون (مرحوماً) وليس مريضاً فقط؛ لأنه يدرس تشريح الموتى لتشخيص الأسباب التى أدت إلى وفاتهم! .. يعنى ما هو معروف بال (طبيب الشرعى) ، وقانا الله وإياكم شرف المثول بين يديه..

قال لى الطبيب الأردنى «نايف عقل» :

- أنا أعتبر نفسى محظوظاً لأننى جئت للدراسة فى جامعة كمبريدج ؛ والدراسة التى أدرسها فى القسم مستواها ممتاز جداً..

ويشرح لى الدكتور «عقل» السبب فى أن بعض الدول العربية لا ترسل مبعوثيها ليس فقط إلى جامعة كمبريدج ولكن إلى إنجلترا كلها؛ فيقول: إن دول الجزائر وتونس والمغرب بسبب الاستعمار الفرنسى لها فإنهم قد تعلموا اللغة الفرنسية

وأصبحت هى لغتهم الأوروبية الأولى؛ لذا فإنه من الأسهل لهم أن يستمروا فى الدراسات العليا بنفس اللغة فى فرنسا وليس فى إنجلترا.. لأنهم لو جاءوا إلى إنجلترا فسوف يضطرون إلى تعلم لغة جديدة عليهم تماماً هى اللغة الإنجليزية، وحتى إذا فعلوا ذلك فلن يصلوا فيها إلى الدرجة التى تمكنهم من الاستمرار فى الدراسة بها للمرحلة العليا..

وعدد المبعوثين العرب فى جامعة كمبريدج نحو ١٠٠ مبعوث فقط.. جميعهم يدرسون للمرحلة العليا وليس بينهم من يدرس للمرحلة الجامعية..

ويشرح لى الدكتور «مقل» مسألة كانت جديدة على معلوماتى تماماً، فيقول:
- توزيع السكان فى الأردن غريب إلى حد ما.. فإن أكثر من ٥٠% من تعداد السكان أعمارهم نحو ١٥ سنة.. لذا فإن عدد الطلاب الذين يحصلون على شهادة التوجيهية كبير جداً لا تستوعبه الجامعات الست فى الأردن: ٣ فى الضفة الشرقية و٣ فى الضفة الغربية.. لذا يتجه عدد كبير منهم لدراسة المرحلة الجامعية خارج الأردن.. وفى رومانيا وحدها على سبيل المثال نحو عشرة آلاف طالب أردنى يدرسون للمرحلة الجامعية وليس للدراسات العليا، وعدة آلاف أخرى فى تركيا وفى ألمانيا وفى أسبانيا.. لكنهم جميعاً يدرسون على نفقة أسرهم وليس على نفقة الدولة الأردنية، لأن الدولة فى الأردن لا تستطيع أن تتحمل نفقات دارس المرحلة الجامعية الذى يدرس خارج الأردن ويكفيها تحملها لنفقات مبعوثيها للدراسات العليا..

* * *

المبعوث السودانى «إبراهيم موسى محمد» لم يبق أمامه فى جامعة كمبريدج إلا شهور قليلة حتى يحصل على درجة الدكتوراة فى علم الآثار.. وهو على رغم أنه سودانى ومبعوث من جامعة الخرطوم إلا أنه متخصص فى الآثار المصرية.. وقد أمضى فى دراسته للدكتوراة خمس سنوات حتى الآن، لكنها لم تكن كلها فى داخل جامعة كمبريدج؛ فقد أمضى منها سنتين فى السودان لكى يتابع الاكتشافات

الأثرية الجديدة.. وعند عودته إلى جامعة كمبريدج أحضر معه مواد أثرية (آلات حجرية) لتحليلها هنا، على أن تكون (عهدة) يعيدها معه إلى السودان بعد الانتهاء من بعثته.. وبعد أن يعود من البعثة ومعه الدكتوراة، والعهدة، سيكون عليه أن يقوم بالتدريس في جامعة الخرطوم لمدة ٦ سنوات أخرى في مقابل النفقات التي أنفقتها الدولة في السودان عليه حتى حصل على الدكتوراة..

يحكى لي الدكتور السوداني - على اعتبار ما سيكون بإذن الله - «إبراهيم موسى محمد»؛ أن في السودان الآن ٨ جامعات: جامعة الخرطوم + جامعة أم درمان الإسلامية + جامعة القاهرة فرع الخرطوم + كلية الأحفاد الجامعية + جامعة الجزيرة + جامعة جوبا + جامعة دارفور - تحت الإنشاء، وجامعة أخرى..

وحين سألته عن سبب تسمية (كلية الأحفاد) الجامعية بهذا الاسم الغريب؛ شرح لي أن الشيخ «بابكر البدرى» كان قد بدأ يدرس لأحفاده - الصبيان والبنات طبعاً - حين بلغوا سن المدرسة؛ بدأ يدرس لهم مناهج المرحلة الابتدائية، ثم المرحلة الثانوية، وأخيراً للمرحلة الجامعية أيضاً للدراسات النظرية فقط. ثم انتقلت كلية للدراسات النظرية في أم درمان لكل الطلاب والطالبات السودانيين وليس لأحفاد الشيخ «بابكر البدرى» فقط، لكنها ظلت مع ذلك تحتفظ بنفس الاسم!!..

لعله حين يصل هذا الموضوع إلى يد القارئ منشوراً؛ أن يكون الطبيب العراقي «عباس ناجي» قد حصل على درجة الدكتوراة فعلاً من جامعة كمبريدج وعاد إلى وطنه العراق وعاد إلى التدريس في كلية الطب بجامعة بغداد التي تخرج منها في الأصل والتي أوفدته في هذه البعثة..

يحكى لي الطبيب العراقي «عباس ناجي» أن المبعوثين العراقيين للدراسة في بريطانيا كانوا رقم ٢ من ناحية ال (كم) بالنسبة لمبعوثي الدول العربية؛ لكن نظراً لظروف الحرب الآن فقد انخفض عدد المبعوثين العراقيين - ضغطاً للمصروفات - إلى ٤٠٠٠ طالب عراقي فقط في بريطانيا الآن للمرحلتين الجامعية والعليا..

طلبة المرحلة الجامعية يدرسون على نفقة أسرهم، أما طلبة الدراسات العليا فعلى نفقة الدولة.. لكن بشكل عام فإن الطلبة العراقيين للمرحلة الجامعية الذين لا يجدون لأنفسهم أماكن في جامعات العراق يذهبون للدراسة في جامعات اليونان بالذات لسببين: السبب الأول هو أن اليونان هي أقرب دولة أوروبية إلى العراق، والسبب الثاني هو أن الدراسة في جامعات اليونان مجانية يعكس بريطانيا باهظة المصروفات: ٥٠٠٠ جنيه إسترليني لدراسة العلوم، و ٦٠٠٠ جنيه لدراسة الطب + ٩٥٠ جنيهها لكل منهما كمصاريف الكلية أو المدينة الجامعية..

والمبعوث العراقي بعد أن ينتهي من بعثته عليه أن يعمل في خدمة الدولة مدة تساوى ضعف مدة البعثة.. بمعنى أنه إذا قضى في البعثة خمس سنوات حتى حصل على درجة الدكتوراة؛ فعليه أن يقضى ١٠ سنوات في التدريس في الجامعات العراقية بعد عودته من البعثة..

ويستطرد الطبيب العراقي «عباس ناجي»:

- زمان كانت هناك إغراءات مادية وأدبية لإغراء المبعوثين العرب الذين ينتهون من دراساتهم هنا للبقاء في إنجلترا للاستفادة من الخبرات التي اكتسبوها ولأن بريطانيا كانت في حاجة إليهم، أما الآن فذلك غير وارد نظراً لأزمة البطالة الخانقة في بريطانيا الآن؛ التي جعلت عدة آلاف من الأطباء وعدداً كبيراً من أساتذة الجامعات الإنجليز أنفسهم متعطلين عن العمل.. وبالتالي لم يعد هناك مبرر الآن لإغراء الدارسين العرب على البقاء في بريطانيا بعد انتهاء دراستهم؛ بل إن العكس هو الصحيح؛ وهو إغراؤهم وترغيبهم في العودة إلى بلادهم بأقصى سرعة.. فحكاية (هجرة العقول) أو (هجرة الأدمغة) كانت زمان وليس الآن.. ويكفي أن تعرف أن في مدينة [ميتشيغان] في أمريكا وحدها ٣٠ ألف عراقي يعيشون فيها، سواء كانوا من الذين درسوا في جامعة ميتشيغان نفسها أم في أي جامعة أخرى، لأن الوضع والظروف في أمريكا تختلف!!..

* * *

أغلب الدارسين العرب فى جامعة كمبريدج يدرسون الطب.. فإن ٩٠ ٪ ممن قابلتهم يدرسون للحصول على درجة الدكتوراة فى الطب.. منهم الطبيب المصرى «عماد الدين محمد نافع» الذى يدرس هنا منذ سنتين وباقى أمامه ٣ سنوات أخرى حتى يحصل على درجة الدكتوراة ليعود إلى مصر مدرساً فى كلية الطب بجامعة المنوفية..

قال لى الطبيب «عماد الدين نافع» :

– على الطالب الذى يريد أن يأتى ليدرس فى جامعة كمبريدج أن يتقدم بطلبه لجهتين فى نفس الوقت: للكلية التى سوف ينتسب إليها ويعيش وينام فيها؛ وطلب آخر لفرع الدراسة الذى يريد أن يدرسه..

والفرق بين المدينة الجامعية فى مصر والكلية هنا هو أن المدينة الجامعية فى مصر تابعة للجامعة كوحدة من وحداتها تتلقى منها التعليمات والأوامر، وموظفو المدينة الجامعية هم موظفون فى الجامعة يتقاضون مرتباتهم منها ويمكن أن ينقلوا من المدينة الجامعية إلى أى مكان آخر فى الجامعة أو حتى إلى وزارة التعليم نفسها.. لكن الكلية هنا لا علاقة لها بالجامعة على الإطلاق ومستقلة عنها استقلالاً كاملاً فى كل شىء، والعلاقة بينهما كالعلاقة فى مصر بين هيئة السياحة ووزارة العدل مثلاً.. كل منها مستقل عن الآخر تماماً ولا علاقة له به.. الشىء الوحيد الذى يربط بين الجامعة والكلية هنا هو الطالب نفسه: الطالب الذى يقيم فى الكلية ويدرس فى الجامعة.. لكن، مع ذلك؛ فإن شرط قبول أى طالب فى جامعة كمبريدج هو أن تقبله كلية ما أولاً.. فإذا قبلته الجامعة ولم تقبله كلية ما فهو لا يعتبر مقبولاً للدراسة!!..

ليس ذلك فقط؛ بل لأن كل كلية مستقلة استقلالاً كاملاً عن أى كلية أخرى.. ولا تجمع كل الكليات إدارة واحدة ولا أى نوع من الربط. وهناك كليات غنية جداً بحكم الأوقاف الموقوفة عليها من الأثرياء، وكليات أخرى ليست على نفس القدر من الثراء، أيضاً بسبب قلة الأوقاف الموقوفة عليها من الأثرياء.. ولا علاقة

لذلك بالمصروفات التى يدفعها الطالب للكلية.

قلت للطبيب المصرى «عماد الدين نافع»:

● لكن هناك طلبة فى جامعة كمبريدج لا يسكنون فى الكليات، مثلك أنت مثلاً.. فأنت تسكن فى بيت عادى فى شارع عادى بعيد عن الكلية التى تنتسب إليها!؟..

- هذا البيت، ومئات أخرى من البيوت المتناثرة فى أنحاء مدينة كمبريدج، تابعة للكليات المختلفة، والكلية هى التى تعطينى هذا البيت وكأنه جزء منها، كل ما فى الأمر أنه خارج أسوار مبانى الكلية..

● وتظل مع ذلك تدفع مصاريف الكلية أيضاً، الـ ٩٥٠ جنيه!؟..

- طبعاً.. لأن هذه المصاريف هى للنشاط الرياضى والاجتماعى والثقافى وليست مصاريف إقامتى بالكلية.. بمعنى أن الطالب الذى يسكن داخل الكلية يدفع نفقات إقامته أيضاً.. وبالمناسبة؛ فجامعتى أوكسفورد وكمبريدج هما الجامعتان الوحيدتان فى إنجلترا وفى العالم كله اللتان تتبعان هذا النظام الغريب.. لكنه على أى حال يميزهما..

● كم تدفع إيجاراً للشقة التى رأيتها أنا، والتى تتكون من غرفتى نوم وغرفة معيشة فى بيت قديم عادى جداً وبسيط جداً من بيوت مدينة كمبريدج!؟..

- أدفع ٢٥ جنيهًا و٥٥ بنسًا كل أسبوع، يعنى نحو ١١٣ جنيهًا فى الشهر.. والشقة التى تماثلها تماماً لكنها لا تتبع الكلية لا يقل إيجارها عن ٢٠٠ جنيه فى الشهر.. إذن أنا أوفر الكثير فى مقابل المبلغ الذى أدفعه كمصروفات للكلية.. الأكل فى مطعم الكلية لو كان يكلفنى جنيهًا ونصف الجنيه للوجبة؛ فنفس الوجبة بالضبط فى أى مطعم خارجى تكلف خمسة أو ستة جنيهات، ذلك بند آخر من بنود التوفير.. وهناك بنود أخرى لتوفير النفقات يستفيد منها الطلبة الأوروبيون ولا نستفيد منها نحن الطلبة المصريين، غالباً، وهى أسعار الخمر والمشروبات الروحية وحفلات الرقص والديسكو وما أشبه.. فلا يمضى أسبوع إلا وهناك

حفلات راقصة وسهرات اجتماعية من هذا النوع يسيل فيها (المنكر) أنهاراً وبأسعار رخيصة عن الخارج كثيراً.. لكننا نحن الطلبة المصريين، والحمد لله، لا نستفيد ولا نريد أن نستفيد، من هذه الميزة بالذات!!..



قلت للطبيب «عماد نافع»:

● منذ دقائق وأنا واقف في أحد ممرات الكلية أتكلم مع بعض الطلبة العرب؛ مرت بنا فتاة أوروبية ترتدى بيجامة نوم وحافية القدمين.. قطعاً هي لم تجيء من بيتها للكلية حافية وبالبيجاما!!..

- طبعاً.. لأنها لم تجيء من بيتها أساساً.. لأننا خلاص اتفقنا أن الكلية هي بيتها الذى تقيم فيه، فهي الآن فعلاً فى بيتها..

● أفهم من ذلك أن الكلية الواحدة تضم طلاباً شبانا وطالبات فتيات ينامون وينمن فى نفس المبنى؟!..

- طبعاً.. ولو أن هناك عدداً قليلاً جداً من الكليات قاصر على الطالبات البنات فقط، وعدد قليل جداً من الكليات قاصر على الطلبة الذكور فقط؛ إلا أن معظم الكليات فيها الجنسان معاً، يحيون حياتهم الكاملة تحت سقف واحد.. بمعنى أن نتخيل إحدى المدن الجامعية فى مصر يعيش فيها الطلبة والطالبات فى نفس المبنى.. صحيح فى غرف مستقلة لكن ليس فى أجنحة مستقلة.. بمعنى أنه ليس هناك تحديد أو تخصيص لغرف البنات بعيداً عن غرف الصبيان.. فتجد أن الغرفة رقم ٦ مثلاً فيها بنت والغرفة رقم ٧ التى تجاورها مباشرة فيها ولد.. يعنى كده سايحين على بعض!!..

● هایل وعقبالنا، وياريت لو بأثر رجعى من سنة ١٩٥٠.. وهل تستطيع البنت الطالبة المقيمة فى الكلية أن تستقبل «صديقها» الشاب فى غرفتها، أو يستطيع الطالب أن يستقبل «صديقه» فى غرفته.. هل ذلك مسموح به؟!..

- طبعاً.. وفى منتهى الحرية..

- ولو أرادت أن يقضى الليلة في غرفتها أو أن تقضى الليلة في غرفته !..؟
- هم أحرار طبعاً.. فليس هناك حد حاييجي يقتش عليهم..
- يا سلام.. طول عمري وأنا أقدم الحرية ومن أشد أنصار الحرية ، لكن للأسف فانتى سن الالتحاق بجامعة كمبريدج الآن ! !..

* * *

برمنجهام.. العاصمة الإنجليزية رقم ٢.. المدينة التي أشهر أبنائها: مخترع.. ومفكر.. ومجنون!!

- ★ أشهر علماء برمنجهام هاجر إليها متعطلاً يبحث عن عمل!!
- ★ برمنجهام.. هدية من لورد إلى خادمه!!
- ★ لماذا أراد الملك تشارلز الأول، أن يهدم برمنجهام؟!..
- ★ وراء كل مخترع عظيم، رجل مجنون!!..
- ★ صدق أو لا تصدق: بين المطار والمدينة: دقيقة ونصف فقط!!..
- ★ حذاء برايان روبنسون، يساوى ٢ مليون جنيه!!..
- ★ (عيد الحرائق) الذى تحتفل به بريطانيا كلها!!..
- ★ مسابقة سنوية فى برمنجهام: للرقص الشرقى!!..
- ★ يطلب يد حبيبته عن طريق إتحاد كرة القدم!!..
- ★ هل سيأتى اليوم الذى أكتب فيه كتاباً فى أدب الرحلات عن (برمنجهام الى فوق)!!..
- ★ حين فوجئ أنور، بأن الإنجليز يتكلمون اللغة الإنجليزية!!
- ★ المصرى أحمد... فعل فى ٤ شهور ما عجز عنه الإنجليز فى ١٠ سنوات!!..
- ★ حضرة الضابط الصومالى الإنجليزى المسلم، طردنى من بيت الله!!..
- ★ أحمد محمود سيد عبد العال.. ومع ذلك فهو: طليانى!!

المدن كالنساء..

مدينة تشعر فيها كأنك بصحبة صبية فى السادسة عشرة، يادوب تطرق أعتاب الأنوثة، ولا زالت تتأرجح بين طفلة كبيرة وامرأة صغيرة.. كل ما فيها مرح وجذل وطروب ومتفتح للحياة..

ومدينة تجعلك تشعر فيها كأنك مع فتاة فى الخامسة والعشرين اكتمل جمالها ووفرت أنوثتها، تضج بالحيوية والصحة والشباب والانطلاق.. العمل موجود فى حياتها لكنه، أبداً، ليس أهم شىء.. لا تهتم كثيراً بما فات وتأمل الكثير فيما هو آت..

مدينة فى الأربعين، رصينة عاقلة، لم يعد الجمال بالنسبة إليها هو الأهم، لكن لديها الكثير مما لا زالت تستطيع أن تعطيه.. تأنس إليها وتشعر معها بالهدوء والراحة والأمان، وبأنك تحب أن تعود إليها كلما احتجت إلى فترة تبتعد فيها عن الصخب والضوضاء..

ومدينة فى الستين.. لازال فيها وهج وسحر جمال قديم وعطر شباب قديم.. مدينة تشعر ب أنك تجلس إلى أمك أو جدتك.. تحبها، تحترمها، لكنك لا تستطيع أن تعشقها..

أحب مدن العالم إلى قلبى ثلاثاً: القاهرة لأن فيها أهلى وأصدقائى.. لندن لأن فيها حياتى الآن.. برمنجهام لأنها فى الخامسة والعشرين!!..
القاهرة أُمى.. لندن صديقتى.. برمنجهام حبيبتي..

* * *

برمنجهام هى العاصمة الثانية لبريطانيا بعد لندن.. مثل مكانة الإسكندرية بعد القاهرة بالنسبة لمصر، واللاذقية بعد دمشق بالنسبة لسوريا، وتبرز بعد صنعاء بالنسبة لليمن، والمدينة بعد الرياض بالنسبة للسعودية.. وهى - برمنجهام - تبعد عن لندن بـ ١٠٥ أميال (١٨٥ كيلومتراً) وساعة ونصف بالقطار الإنجليزي السريع..

برمنجهام هى المدينة رقم ٢ فى إنجلترا بعد لندن، على الرغم من أن عدد سكانها مليون و ١٠٠ ألف فقط، بينما سكان لندن الآن عشرة ملايين.. لكن أهمية برمنجهام تأتى من حيث موقعها فى وسط الخريطة الإنجليزية تماماً، مما يجعلها محور الطرق الرئيسية فى إنجلترا كلها، سواء الطرق البرية أم السكك الحديدية أم حتى القنوات والممرات المائية.. وأيضاً من ناحية أهمية الإنتاج وأهمية حركة العمل فيها وأهميتها كسوق كبير ليس لإنجلترا وحدها؛ وإنما لأوروبا كلها.. بل وإذا نظرنا إلى الجانب الآخر من جوانب الحياة: جانب الثقافة والفنون والآداب، والمتعة واللهو والمرح وحياة الليل؛ فهى أيضاً رقم ٢ فى بريطانيا.. وإلى جانب ذلك فهى منطقة سياحية تماماً يشعر فيها السائح بأنه لو قضى فيها يوماً واحداً فسوف يرى شيئاً يستحق المشوار، ولو قضى فيها شهراً فسوف يرى خلاله كل شيء فى برمنجهام وحول برمنجهام، ابتداءً من (مدرسة المجوهرات) إلى (ستراتفورد شكسبير)، ومن (قلعة ووريك) إلى (كاتدرائية كوفنتري) و ١٠٠ مكان آخر يستحق الزيارة والمشاهدة فى برمنجهام وحول برمنجهام..

الأهم من ذلك كله هو أن برمنجهام مدينة تجيد الدعاية لنفسها وتعرف جيداً كيف تدعوك إليها، وإذا ذهبت إليها فأنت لا شك واقع فى حبها.. كما حدث معى..



انطبعتى الأولى التى خرجت بها من زيارتى لبرمنجهام التى استمرت أربعة أيام؛ هى أن الناس فى برمنجهام يشعرونك منذ اللحظة الأولى بأنهم أصدقاءك ويعرفونك من زمان.. يقابلونك بودٍ حقيقى ويعاملونك بإقبال ليس مصطنعاً وكأنه

طبع أصيل فيهم.. إبتداء من «روجر تومسون» مدير [فرايداي جايد] والمسئول عن عالم شكسبير، و «جيليان هال» دليلى الحسنة فى ستراتفورد التى تتعامل مع شكسبير كما لو أنه «أونكل ويليام» خالها مباشرة، ومعاون مدرسة [الملك إدوارد السادس] التى تعلم فيها شكسبير فى طفولته، و «تيم آيرسون» مدير فندق شكسبير الذى نزلت فيه فى مدينة ستراتفورد، إلى «جيني» فتاة محل [آندروود] التى حكّت لى قصة حياتها كلها فى خمس دقائق وأنا أشتري منها شيئاً صغيراً جداً.. إلى الذين التقيت بهم فى مدينة برمنجهام نفسها: «فيليب تايلور» مدير السياحة فى برمنجهام ومساعداته الجميلات «سو برنارد» و «ميتشيل كولمان» و «كارول أورايلى»، و «جون فيركلاو» مدير الفندق الذى نزلت فيه فى برمنجهام، و «جوليان ستانتون» الذى صحبني فى رحلة نهريّة فى قنوات برمنجهام.. وقبل هؤلاء جميعاً «كريس واتون» مندوب هيئة السياحة البريطانية [BTA] الذى صحبني طوال هذه الأيام الأربعة، وكان طول الوقت يحدثني عن برمنجهام حيث العاشق المحب، حتى اكتشفت فى آخر يوم من أيام الرحلة أنه هو أيضاً من أبناء برمنجهام.. كل هؤلاء الذين قابلتهم خلال رحلتي يجعلونك تشعر أنهم لا يؤدون واجباً أو عملاً وظيفياً روتينياً؛ إنما هم يستضيفونك فى بيوتهم شخصياً، بيتهم الكبير، برمنجهام.. ولعله ليس بموقعها المتميز فقط؛ لكن بالحب والمودة التى تملأ قلوب أبنائها؛ استحققت برمنجهام اللقب الذى يطلق عليها والذي هو شعارها: [قلب إنجلترا الكبير] أو [The Big Heart of England]..

* * *

لم تكن برمنجهام موجودة على خريطة إنجلترا حتى القرن السادس أو السابع الميلادى، يعنى منذ ١٣٠٠ أو ١٤٠٠ سنة.. لكن بعد وصول قبائل الـ (أنجلوساكسون) المسماة [بيرم Berm] أو [بيورما Beorma] أقامت هذه القبائل لنفسها بيوتاً بالقرب من الوادى الخصب لنهر الـ [رى Rea].. وأصبحت هناك قرية صغيرة فى هذا المكان، لكنها لم تكن قد حملت اسماً بعد..

وبعد انتصار النورمانديون بقيادة الملك «ويليام الأول» أو «ويليام الفاتح» عام ١٠٦٦ - الذى هو بداية الأسرة الملكية البريطانية الحالية والجد الأكبر للملكة إليزابيث - أصبحت تلك القرية الصغيرة إقطاعية ضمن ممتلكات لورد «ويليام فيتزانسكلف William Fitzansculf»، الذى وهبها أو منحها إلى خادمه المخلص «ريتشارد» - (لأن كلمة Steward فى اللغة الإنجليزية تتأرجح معانيها بين (كبير الخدم) و (مدير البيت) و (وكيل أعمال).. لكن فى النهاية يظل أى واحد من هؤلاء الثلاثة (خادماً) لـ (سيد).. وقد أردت أن أوضح لكم ذلك حتى لا نظلم الخواجة «ريتشارد» سواءً كان كبيراً للخدم أو مديراً للبيت أم وكيلاً للأعمال)، على الرغم من أنه هو نفسه قد أصبح بعد ذلك (سيداً) هو الآخر وحمل لقب «دى برمنجهام De Birmingham» وأصبح هو ثم ورثته من بعده ملاكاً لـ (إقطاعية برمنجهام) حتى منتصف القرن السادس عشر، يعنى ما يقرب من ٥٠٠ سنة..

وكانت القرية الصغيرة برمنجهام فى عام ١٠٨٦ أصغر من جاراتها الإقطاعيات الأخرى [آستون Aston] و[نورث فيلد Northfield].. اليوم أصبحت [آستون] و[نورث فيلد] مجرد ضاحيتين من ضواحي مدينة برمنجهام الآن!!.. وبدأت قرية برمنجهام تكبر وتنمو وتزدهر اقتصادياً منذ ذلك الحين.. لكن الاعتراف الملكى بها كمركز هام من مراكز التجارة لم يأت إلا عام ١١٥٦، حين قرر الملك «هنرى الثانى» أن يمنح «بيتر دى برمنجهام» حق إقامة سوق للقرية!!.. فقد كانت إقامة الأسواق، حتى أسواق القرى الصغيرة البعيدة، فى تلك الأيام لا تتم إلا بعد موافقة الملك شخصياً، وتعتبر منحة ملكية هامة!!.. ويبدو أنه لم يكن لدى الملوك زمان الكثير مما يشغلهم حتى أن إقامة سوق فى قرية كان يحتاج إلى موافقة الملك شخصياً!!..

بعد ذلك بمائة عام أخرى ٣ ملوك آخرين؛ فى عام ١٢٥٠، تلقت برمنجهام منحة أخرى من الملك «هنرى الثالث» الذى منح «ويليام دى برمنجهام» تصريحاً بإقامة (معرض) للتجارة والتجار فى برمنجهام..

وبعد أن ظلت برمنجهام زمناً طويلاً سوقاً للتجارة والتجار فحسب؛ بدأت مع بداية القرن الرابع عشر تكتسب أهمية وشهرة جديدة بتزايد عدد الحرفيين والصناع فيها.. وبعد قرنين آخرين من الزمان كانت مصنوعات برمنجهام تغزو إنجلترا كلها من أقصاها إلى أديانها، بما فى ذلك العاصمة لندن نفسها..

وخلال الحرب الأهلية بين قوات الثائر الإنجليزي «كرومويل» وقوات الملك «تشارلز الأول» (١٦٤٢ - ١٦٤٩) كانت برمنجهام هى المصدر الرئيسى للسيوف والرماح وباقى الأسلحة لقوات «كرومويل»، بينما رفضت أن تمد القوات الملكية بقطعة سلاح واحدة.. لذا فسرعان ما تلقت عقابها ففى ذلك حين هاجمتها قوات الملك «تشارلز الأول» عام ١٦٤٣ وحاصرتها واحتلت قصر حاكم المنطقة.. ولا زالت آثار مدفعية القوات الملكية باقية على بعض الجدران حتى الآن بعد أكثر من ٤٥٠ سنة على انتهاء تلك الحرب.. ولعل من حسن حظ برمنجهام أن قوات «كرومويل» قد انتصرت فى الحرب الأهلية؛ وإلا فلو كانت القوات الملكية هى التى انتصرت لمحت برمنجهام من على الخريطة البريطانية عقاباً لها على تمردھا على الملك..

وقد خرجت برمنجهام من تلك الحرب بازدياد شهرتها وصيتها كبلد صناعية، وبدأت تفتح فيها صناعات أخرى جديدة ناجحة ومزدهرة تعتمد على مهارة سكان برمنجهام وقدرتهم على العمل الشاق، مثل صناعة البنادق والمسدسات والأسلحة النارية، حتى إن الحكومة الإنجليزية فى عام ١٦٩٠ - بعد انتهاء الحرب الأهلية بما يقرب من ٤٠ عاماً، وكانت الملكية قد عادت من جديد - حين احتاجت الحكومة إلى أسلحة لتحارب بها فى فرنسا وأيرلندا؛ تعاقدت مع صناع الأسلحة فى برمنجهام على تزويد الجيوش الإنجليزية بـ: ٢٠٠ بندقية كل شهر!.. (قد إيه زمان كانت الحروب بسيطة وسهلة)، حتى إن الجيش وهو فى حالة حرب لا يحتاج إلى أكثر من ٢٠٠ بندقية فى الشهر!.. وفى عام ١٧٥٤ - وأنا أذكر التواريخ لأن الكثيرين من القراء يعشقون التواريخ ويهتمون بها كثيراً - فى

عام ١٧٥٤ أصبح واحداً من تعاقدات برمنجهام الأساسية الثابتة لتصدير ٦٠٠ قطعة أسلحة النارية كل: أسبوع!.. الحروب تزداد صعوبة مع الأيام كما ترى!!.. وازدهرت فى برمنجهام فى تلك الفترة أيضاً صناعة الحلى المعدنية الصغيرة، كالأساور والأقراط والخواتم والبروشات، والعدد والأدوات الصناعية الصغيرة كالمفكات والمناشير والكماشات والمسامير وما إليها، و (توك) الأحزمة والأزرار المعدنية - فلم يكن البلاستيك قد اخترع بعد - والأدوات المصنوعة من النحاس الأصفر والنحاس الأحمر والصلب والزنك والزجاج، وزخرفة وطلاء المعادن وتلميعها..

وفى القرن الثامن عشر بدأت الثورة الصناعية تجتاح العالم كله، وانجلترا على وجه الخصوص، فازداد نمو برمنجهام وتطورها مع متطلبات عصر الصناعة الجديد، حتى إنها اعتبرت العاصمة الصناعية والتجارية والثقافية لمنطقة وسط إنجلترا التى كانت تسمى فى ذلك الوقت (ورشة بريطانيا).. وأصبحت برمنجهام هى الملاذ والملجأ لكل أصحاب الأفكار الجديدة المتطورة.. ودخل تاريخ الصناعة فى بريطانيا العديد من أسماء رجال الصناعة فى برمنجهام، أمثال رجل الطباعة «جون باسكرفيل John Baskerville» و «جوزيف بريستلى Joseph Priestley» الذى أطلق عليه لقب (أبو الكيمياء الحديثة) بعد أن اكتشف الأوكسوجين والنتروجين وغيرهما، على الرغم من أنه طرد وأبعد عن برمنجهام عام ١٧٩١ نتيجة أمور متعلقة بالدين، فرحل إلى [ينسلفانيا] فى أمريكا حيث مات حسيماً كسيراً بعد ١٣ عاماً من طرده من بلده، وآلن برمنجهام تذكّر فضله وتفخر به وتضع اسمه وصورته فى نشراتها السياحية والكتب التى تتحدث عن تاريخها كواحد من أشهر وأهم أبنائها.. وأيضاً «هربرت أوستين Herbert Austin» الذى ابتكر السيارة التى تحمل اسمه: (أوستين) عام ١٩٠٦ لتصبح السيارة الشعبية الأولى والأكثر مبيعاً فى العشرينات من القرن الماضى، وكان يبيع منها ١٥٠٠ سيارة فى العام، وكان ذلك رقماً كبيراً جداً فى تلك الأيام.. و «ويليام موردوك William Murdoch» الذى

جاء إلى برمنجهام متعطلاً يبحث عن عمل، فاخترع غاز الإضاءة.. و«جيمس وات James Watt» الذى جاء إلى برمنجهام (على كبر) وعمره ٣٦ سنة، فاخترع (ذراع الحركة)، فنتج عن ذلك واحد من أعظم الاختراعات فى تاريخ البشرية وهو: قطار السكك الحديدية، التى بدأت فى بريطانيا لتكون أول دولة فى العالم تدخلها السكك الحديدية.. وبالمنااسبة: كانت مصر هى ثانى دولة فى العالم تدخلها السكك الحديدية بعد بريطانيا مباشرةً، وقبل أمريكا نفسها..

ومن رجال الصناعة أيضاً الذين جلبوا الشهرة والرخاء والازدهار الاقتصادى لبرمنجهام، على الرغم من أنه هو شخصياً لم يخترع شيئاً ولم يبتكر شيئاً ولم يكتشف شيئاً؛ لكنه كان فقط رجلاً جريئاً: «ماثو بولتون Matthew Boulton»، الذى جاء من أسرة تصنع الأزرار المعدنية و (توك) الأحزمة!.. وقد أصبحت مصانع «ماثو بولتون» مزاراً يقصده السياح من كل مكان فى أوروبا حين أصبحت - فى عام ١٧٧٤ - أول مكان فى العالم يضاء بالغاز؛ مما جعل العمل والإنتاج يستمران بعد حلول الظلام، وبالتالي لا يتوقف العمل فى المصانع عندما يهبط الظلام فى الساعة الثالثة بعد الظهر فى شتاء بريطانيا المظلم، وبالتالي أيضاً فقد أمكن - لأول مرة فى تاريخ الصناعة فى العالم - إدخال نظام الـ (ورديات) فى المصانع بحيث يمكن أن يستمر العمل ٢٤ ساعة فى اليوم على ٣ أو ٤ (ورديات)، بدلاً من عدد قليل من الساعات تنتهى بهبوط الظلام فيتوقف كل شىء.. ومن المؤكد أن ذلك قد تسبب فى نهضة صناعية كبرى تفجرت فى إنجلترا ثم انتقلت بعد ذلك إلى العالم الصناعى كله، وأدت إلى تشغيل ملايين جدد من العمال لم يكن نظام عمل الساعات القليلة يحتاجهم.. وذلك يؤكد النظرية القائلة - أنا الذى أقولها - أنه لا يكفى أن يكون هناك مخترع عبقرى، بل يجب أن يكون هناك أيضاً رجل مجنون يقتنع بأفكار هذا المخترع العبقرى ويخرجها إلى حيز التنفيذ.. وبالتالي يمكن أن نبتكر أيضاً مثلاً جديداً يقول - أنا أيضاً الذى أقوله -: (وراء كل مخترع عظيم ممول مجنون).. انتهى المثل!!..

لذا فإن مدينة برمنجهام توضع الآن فى واحد من أهم شوارعها الرئيسية تمثالاً ضخماً يجمع بين أبنائها الثلاثة الذين تعتبرهم رواداً وأصحاب فضل عليها وعلى العالم كله ، على الرغم من أنهم لم يكونوا من رجال السياسة وإنما كانوا : (مخترعين ومفكرين ومجانبين..) وهم :

المخترع : «ويليام مورديوك» .. (١٧٥٤ - ١٨٣٩) ..

المفكر : «جيمس وات» .. (١٧٣٦ - ١٨١٩) ..

المجنون : «ماثو بولتون» .. (١٧٢٨ - ١٨٠٩) ..

تاريخ برمنجهام أيضاً يشير بشكل هامشى جداً وعابر جداً؛ إلى أن أشهر أدباء إنجلترا على الإطلاق - بعد «ويليام شيكسبير» - «تشارلز ديكنز»؛ كان مديراً لمعهد [برمنجهام ووسط إنجلترا] .. ولم أكن أعلم عن «ديكنز» ذلك على رغم أننى قرأت كل ماكتب وقرأت الكثير عنه ، وكنت أظنه لندنياً لكثرة ماكتب عن لندن وعن الحياة فى لندن بالذات ..

وقد نمت وازدهرت أيضاً التجارة فى برمنجهام لكى تواكب بطبيعة الحال هذه النهضة الصناعية ؛ حتى إن البنوك التى كان يديرها المرابون لقرون عديدة سابقة أصبحت فى ذلك الوقت نشاطاً تجارياً شديد الأهمية .. فى بريطانيا الآن خمسة بنوك يطلق عليها (الخمسة الكبار) ؛ اثنان منها تأسسا أصلاً وبدأ نشاطهما فى برمنجهام ، هما بنك (لويدز) الشهير عندنا فى العالم العربى بمسألة التأمين على السفن ، وبنك (ميدلاند) ..

وقد تطورت مجالات الصناعة فى برمنجهام لكى تصبح رائدة أيضاً فى تصنيع وتعليب الأطعمة والمشروبات .. وعلى سبيل المثال فإن الشوكولاتة ماركة [كادبورى] والمشروبات التى تحمل اسم [شويبس] الشهيرتين جداً فى العالم العربى الآن ؛ كلاتهما بدأتا فى مدينة برمنجهام كمقاهى صغيرة من مقاهى شارع [بال Bull Street] فى بدايات القرن التاسع عشر ، وبالتحديد عام ١٨٢٤ .. وصناعات أخرى

عديدة بدأت فى برمنجهام ثم انطلقت منها لتشتهر فى العالم كله ، مثل شاي [تايفو] وصلصة [HP].. وتصنيع البيرة أيضاً يعتبر من الصناعات التقليدية فى المدينة من قديم الزمان..

ولم يجرى عام ١٨٠٠ وبداية القرن التاسع عشر إلا وبرمنجهام مزدهرة متألفة ذات شهرة عريضة ، كما أصبحت المركز والميدان الرئيسى لحركة الملاحة النهرية فى القنوات المائية التى كانت تستخدم فى نقل التجارة بين برمنجهام وباقى مدن بريطانيا.. وحتى الآن يوجد فى برمنجهام وحدها قنوات نهرية ملاحية أطول مما يوجد فى مدينة (فينيسيا) الشهيرة التى تعوم على هذه القنوات وشوارعها عبارة عن قنوات.. وأصبحت برمنجهام أيضاً البؤرة والمحور الرئيسى الذى تتجمع عنده وتنتقل منه شبكة خطوط السكك الحديدية الإنجليزية وكذلك شبكة الطرق البرية ، وذلك لموقعها الذى يتوسط إنجلترا فعلاً ، فجعلها تستحق اللقب الذى تشتهر به الآن : [قلب إنجلترا الكبير]..

وعلى الرغم من شهرة برمنجهام إلا أنها لم تمنح حق انتخاب عمدتها ومجلسها المحلى إلا فى عام ١٨٣٨ فقط ، بل وحتى لم تحمل لقب (مدينة) رسمياً إلا بعد أن منحته لها الملكة «فيكتوريا» فى عام ١٨٨٩ ، يعنى أنه منذ أعوام قليلة فقط احتفلت برمنجهام بمضى ١٠٠ سنة على ترقيتها إلى درجة مدينة!!.. وامتناناً من (مدينة) برمنجهام للملكة «فيكتوريا» صنعت لها تمثالاً هائلاً من الرخام وضعته فى أهم ميادينها وأسمته (ميدان فيكتوريا) فى عام ١٩٠١.. لكن لم يقدر للملكة «فيكتوريا» - أطول ملوك وملكات إنجلترا حكماً على الإطلاق : ٦٤ سنة على العرش - لم يقدر لها أن تنعم طويلاً برؤية تمثالها يحتل أهم ميادين برمنجهام ، لأنها ماتت فى نفس السنة.. بل وليس تحت يدي تاريخ وضع التمثال فى الميدان بالتحديد لكى أستطيع أن أؤكد ما إذا كان قد وضع فى حياتها أصلاً أو وضع بعد وفاتها بفترة ما.. لكن برمنجهام على أية حال قد استبدلت التمثال الرخامى للملكة «فيكتوريا» بتمثال آخر جديد من البرونز نصب فى نفس المكان فى الذكرى الخمسين لوفاة الملكة «فيكتوريا» فى عام ١٩٥٠..

الشعار الذى تتخذه مدينة برمنجهام لنفسها هو قلب أحمر نابض ملئ بالدم والحياة، مكتوب عليه - باللغة الإنجليزية طبعاً - [اعط موعداً فى برمنجهام، قلب إنجلترا الكبير Make A Date In Birmingham, The Big Heart Of England]، ثم جعلت هذا القلب الأحمر النابض على أرضية لونها كحلى غامق، شعارها فى كل شئ: على شئط المشتريات البلاستيك، فى ورق لف البضائع والهدايا التى تشتريها من المحلات، فى سلاسل وعلاقات المفاتيح، فى الكرافات وربطات العنق، فى أقداح وفناجين القهوة والشاي الكبيرة التى يسمونها هنا الـ [Mug]، فى محافظ الجيب، فى الأقلام الجافة والأقلام الحبر.. أينما تول وجهك وأنت هنا تجد هذا الشعار أو الرمز بألوانه المميزة أمامك فى كل مكان.. وهى فكرة لا شك جيدة ومتميزة وملفتة للنظر ولو رأيته فى أى مكان فيما بعد فسوف تجعلك على الفور تتذكر برمنجهام..

الرجل الذى ابتكر هذا الشعار هو «فيليب تايلور Phillipe Taylor» مدير مكتب السياحة فى برمنجهام، المكتب الذى يطلق عليه [BCV] اختصاراً لاسمه الطويل [Birmingham Convention And Visitors Information Bureau] أو [مكتب برمنجهام لاستعلامات المؤتمرات والزوار].. فإذا كنت حضرتك من رجال الأعمال - الإنجليز أو الأوروبيين أو العرب أو من أى جنسية فى العالم - واحتجت أن تعقد اجتماعاً أو تقيم مؤتمراً فى مدينة برمنجهام، فإنك لا أنت ولا سكرتاريتك ولا موظفى مكتبك أو شركتك سوف تجرون يمينا ويساراً هنا وهناك لكى تبحثوا عن مكان تعقدون فيه الاجتماع أو تقيمون فيه المؤتمر، سواء كان اجتماعاً لدسته أشخاص أم مؤتمراً يحضره ٢٠,٠٠٠ شخص، ولا عن الفنادق والأماكن التى سوف يقيم فيها الذين سوف يشتركون فى هذا الاجتماع أو ذلك المؤتمر.. كل ما هو مطلوب منك هو أن ترفع سماعة التليفون - وهى مسألة سهلة ولا تكلف جهداً - وتطلب «فيليب تايلور» وتبلغه بما تريد، ثم تترك كل شئ بعد ذلك إلى «فيليب» وطاقم مكتبه من الشبان النشطين والشابات الحسنات بالغات الكفاءة والمقدرة - وقد

رأيتهم ورأيتهن جميعاً - فسوف يقومون هم بكل العمل لأن تلك هى مهمتهم؛
ابتداءً من حجز المكان المناسب لعقد الاجتماع أو المؤتمر، إلى حجز أماكن النوم
في الفنادق وأماكن إقامة الاحتفالات والاستقبالات والولائم، والزيارات والجولات
السياحية والبرامج الترفيهية والمسارح، إلى تدبير وسائل الانتقال لهم جميعاً، ابتداءً
من التاكسيات إلى سيارات الليموزين إلى الطائرات لو لزم الأمر..

فمهمة هذا المكتب - والكلام لـ «فيليب تايلور» - هو جذب الناس، كل
الناس، سواء من داخل إنجلترا أم من أى مكان فى العالم، إلى برمنجهام.. وسواء
السياح العاديون مثلى ومثلك، إلى الاجتماعات صغيرة العدد، وصولاً إلى المؤتمرات
التي يشترك فيها أعداد ضخمة من الأعضاء.. كالمؤتمر السنوى لأعضاء أندية الـ
[روتارى] من جميع أنحاء العالم الذى أقيم فى برمنجهام وشارك فيه ٢٣,٠٠٠ عضو
من أعضاء الـ [روتارى].. وذلك ليس من داخل إنجلترا فقط، ولكن من أى مكان
فى العالم يريد أن يعقد مؤتمراً فى برمنجهام تحاول أن تقتنصه لنفسها ليقام هذا
المؤتمر فيها.. ومن أجل ذلك، يستطرد «فيليب تايلور»:

- ومن أجل ذلك أقيم معرض برمنجهام الدولى الذى افتتح عام ١٩٧٦ ليصبح
منذ ذلك الحين نافذة العرض الرئيسية لبريطانيا وواحدًا من أهم معارض أوروبا،
وفى الحقيقة فهو رقم ٢ فى معارض أوروبا الآن، على مساحة ٢٥٠ فداناً..
أنشئ بمساهمة المواطنين العاديين فى برمنجهام وتكلف إنشاؤه ١٣٠ مليوناً من
الجنيهات، ليصبح أكبر بؤرة جذب فى بريطانيا الآن، حتى إن ٨٠ ٪ من معارض
بريطانيا الصناعية والتجارية تقام فيه، وبالتالي تجتذب كل زوار ومشاهدى - وفى
الأساس: عارضى - هذه المعارض، حتى إن زوار ورواد المعرض ينفقون فى منطقة
برمنجهام ما بين ٧٠ و ٨٠ مليون جنيه كل سنة.. ويجتذب أيضاً المؤتمرات
والاجتماعات الدولية لتتعدد فيه.. وعلى سبيل المثال اجتمع فيه ٢٣,٠٠٠ من
أعضاء أندية الـ [روتارى] من مختلف أنحاء العالم اجتماعهم السنوى الذى
يعقدونه كل عام فى مكان مختلف.. وكذلك معرض أجهزة وآلات الطباعة الدولى

الذى اجتذب هو الآخر ١٠٠,٠٠٠ مشاهد، بينما معرض السيارات اجتذب نحو ٨٠٠ ألف مشاهد..

معرض برمنجهام الدولى يضم ٩ قاعات عرض مختلفة المساحة، تغطى فى مجموعها مساحة ١٠٥,٠٠٠ متر مربع مكيفة الهواء والإضاءة الطبيعية - إلى جانب الإضاءة الصناعية طبعاً - والكهرباء والغاز والمياه والتليفونات.. وعلى سبيل المثال فإن القاعة رقم ٧ واسمها قاعة [إرينا Arena] تتسع لـ ١٢,٠٠٠ كرسى، يعنى ١٢,٠٠٠ مشاهد جالسين فى نفس الوقت يشاهدون شيئاً ما يعرض أمامهم، سواء كان ذلك مؤتمراً دولياً أم مباراة فى الملاكمة أو فى كرة السلة مثلاً، أم حفلاً لمُعْنٍ أو مغنية من مطربى هذه الأيام الذين يجتذبون آلاف المشاهدين المهاويس بهم، أمثال «بوى جورج» و «مارلين» و «كليف ريتشارد» و «توم جونز» و «دايانا روس» و «جورج مايكل» وغيرهم.. ويقام فى هذه القاعة العديد من المعارض التى يؤمها جمهور كبير من المشاهدين، مثل معرض النبيذ الذى اشتركت فيه شركات النبيذ من كل أنحاء العالم، ومعرض الأنتيكات والتحف والمجوهرات والمشغولات الفضية والبورسلين والكريستال، إلى الأثاثات قديمة الطراز والسجاد الأثرى وغير ذلك.. ليس ذلك فقط؛ بل أقيمت فيه بطولة إنجلترا فى : الفروسية!! .. يعنى عشرات من الخيول تجرى وترمح وتقفز الحواجز والسدود التى أقيمت فى قاعة [إرينا] المغلقة التى شبهتها حين رأيته بصحبة «فيليب تايلور» بأنها قاعة من المطاط ممكن أن تتسع وتضيق حسب الظروف والاحتياجات.. فممكن أن يكون فيها فى وقت واحد ١٢,٠٠٠ جلوساً يشهدون ويستمعون إلى عرض فنى أو موسيقى أو إلى مطرب ما يغنى على خشبة المسرح، أو يكون جميع المشاهدين وقوفاً وليس فى القاعة كلها كرسى واحد للجلوس عندما يكون هناك معرض للسيارات مثلاً أو لآلات الطباعة.. بل ومن الممكن أن تنقسم قاعة [إرينا] هذه إلى قسمين منفصلين تماماً يقدم كل منهما عرضاً مستقلاً تماماً ومختلفاً تماماً تحت نفس السقف وفى نفس الوقت، دون أن يزعج واحد منهما الآخر أو يشوش عليه.. كما حدث عندما أقيم فى نفس القاعة

وفى نفس الوقت المعرض الملكى للخيول + بطولة إنجلترا الدولية فى القروسية
وقفز الحواجز..

فى عام واحد أقيم فى معرض برمنجهام الدولى ٤٠ معرضاً + ٦٥ حفلاً كبيراً..
وفى عام آخر يقام به ٥٠ معرضاً و ٦٥ حفلاً أيضاً، غير ما قد يستجد خلال الجزء
الباقى من هذا العام..

* * *

«فيليب تايلور» نموذج لرجل السياحة القاهم لشغله جيداً، الذى يعرف تماماً
ما الذى يريده الصحفي أو الكاتب، ويعرف أيضاً كيف يوصل إليه ذلك فى جمل
موجزة مفيدة وافية تماماً بالغرض.. يستطرد «فيليب»:

— وإذا كان مطار [هيثرو] الرئيسى فى لندن قد بدأ يئن تحت الضغط المتزايد عليه
من الرحلات الجوية منه وإليه؛ فقد فكرت برمنجهام فى ذلك منذ فترة واستعدت
له.. فكان مطار برمنجهام الدولى الذى أفتتح فى عام ١٩٨٤.. لأن موقعها الفريد فى
وسط إنجلترا وعلى بعد ١٠٥ أميال فقط من لندن؛ يجعل عدداً كبيراً من المسافرين
الآن من وإلى أى مكان فى العالم ومن وإلى أى مكان داخل إنجلترا؛ بل وحتى إلى
لندن نفسها كذلك؛ يفضلون استخدام مطار برمنجهام الدولى لأنه يجعل مشوارهم
— حتى إلى لندن — أسرع وأقل مضيعة للوقت.. ذلك لأننا نستخدم للمرة الأولى فى
العالم وسيلة مواصلات جديدة تماماً أطلق عليها اسم [ماجليف MAGLEV].. وهى
عبارة عن عربة معلقة تسير على قضبان علوية وتنقل ٤٠ راكباً فى المرة الواحدة
بين داخل المطار ومحطة السكة الحديد الرئيسية فى برمنجهام فى ٩٠ ثانية فقط:
دقيقة ونصف! ..! بينما محطة السكة الحديد متصلة أيضاً بالمطار بممشى متطى
يستطيع الركاب أن يسيروا فيه على الأقدام من المحطة إلى المطار أو العكس، لو
أرادوا.. والمطار متصل أيضاً بشبكة الطرق الرئيسية فى بريطانيا إذا كانت هناك
سيارة سوف تنتظرك فى المطار أو إذا كنت ستذهب إلى المطار فى سيارة..

* * *

فى صباح اليوم الثانى كانت دليلى واحدة من فتيات مكتب السياحة هناك : «لوسيل ويليامز».. صحبتنى فى جولة فى المدينة فضلت أنا أن تكون سيراً على الأقدام لكى، أولاً، (إن اللى يمشى يشوف أكثر)، وثانياً لكى أستطيع أن أتوقف أمام أى شىء عندما أريد، وثالثاً - وهو الأهم - أن أستمتع بصحبة الجميلة «لوسيل» أطول وقت ممكن..

وإذا كانت برمنجهام هى قلب إنجلترا الكبير؛ فإن ميدان [سانت مارتين] هو قلب برمنجهام النابض.. ففيه وحوله تتجمع أسواق المدينة الخمس، التى أكبرها سوق من عدة طوابق مبنى على الطراز الحديث الذى يطلق عليه اسم [شوبنج سنتر Shopping Center] والذى ممكن أن تقضى فيه ساعات وساعات دون أن تكفى أو تمل منه.. ففيه كل ما يخطر على بالك وعلى بال السائح العادى مثلى ومثلك، ابتداءً من الملابس والمأكولات والمشتريات الأخرى؛ إلى أحدث كتب أخرجتها المطابع فى العالم.. وفيه أيضاً - فى ميدان [سانت مارتين] - محطة السكك الحديدية الرئيسية للمدينة، وأيضاً محطات الأوتوبيسات التى تنطلق من برمنجهام إلى باقى مدن إنجلترا، وكذلك المحطة الرئيسية للأوتوبيسات الداخلية ذات الطابقين التى تنتشر فى أنحاء المدينة كلها..

تقول لى «لوسيل ويليامز» إن على قائمة برمنجهام السياحية ٢٤ مكاناً أساسياً ينبغى زيارتها؛ ابتداءً من مدرسة [ياردلى] التى أنشئت عام ١٢٦٠؛ إلى كاتدرائيات وكنائس ومباني من القرون الوسطى وحتى القرن السابع عشر، مثل كنيسة [سانت مارتين] التى لازال برجها قائماً حتى الآن بعد ٧٠٠ سنة من إنشائه.. والعديد من المتاحف التى تتزايد عاماً بعد عام فى برمنجهام، مثل متحف المواصلات والسكك الحديدية ومتحف العلوم والصناعات، ومتحف الطبيعة الذى هو أقرب إلى حديقة حيوانات، ومتحف القنون وغيرها من المتاحف.. وحتى المتوسيكلات أوجدت لها برمنجهام متحفاً يحكى تاريخها منذ أول موتوسيكل جرى فى الشوارع منذ ٧٥ عاماً فقط - وكنت أظنها أقدم من ذلك بكثير، بل كنت أظنها سابقة على اختراع السيارة أصلاً - حتى آخر طراز من المتوسيكلات ظهر فى السوق.. لكن

أسعار دخول هذا المتحف - فى تقديرى - غالية جداً.. فهى جنيهان ونصف للكبار وجنيهان إلا ربعا للصغار والعواجز من أرباب المعاشات.. وإن كنت لا أظن أن أهل المعاشات سوف يكلفون أنفسهم عناء الفرجة ومشاهدة الموتوسيكلات الآن؛ إلا إذا كانوا غاويين، وإلا إذا لم يكن لديهم شيء آخر أكثر أهمية ليفعلوه..

وكعادة الإنجليز الشطار أقاموا مع المتحف محلاً يبيع الهدايا والتذكارات عن الموتوسيكلات - موجود مثله فى كل متحف - و (كانتين) أو مطعم صغير يقدم وجبات سريعة جاهزة، أيضاً ستجد مثله إلى جوار كل متحف موجود فى أى مكان فى بريطانيا..

ولما كانت برمنجهام تضم أكبر جالية عربية فى بريطانيا بعد لندن؛ وتقدر بأكثر من ٣٠,٠٠٠ عربى أغلبهم من اليمينين الشمالى والجنوبى؛ لذا لم يكن مستغرباً أن يكون بها - منذ عام ١٩٧٣ - واحد من أكبر المساجد الموجودة فى بريطانيا - وعددها، بالمناسبة ٣٠٠ مسجد (!!) - إلى جانب عدد من الزوايا الصغيرة لإقامة الصلوات..

وتأخذنى «لوسيل ويليامز» أيضاً إلى: كلية المجوهرات!!.. التى هى الكلية الأولى من نوعها فى العالم ولم أكن أتصور أنها ممكن أن تكون موجودة فى أى مكان..

وفى برمنجهام والمناطق المحيطة بها ثروة من الأماكن التاريخية التى تروى غليل السائح الذى يحب المشاهدة والفرجة مثلى.. مثل [ستراتفورد أبون إيفون Stratford Upon Evon] بلدة «ويليام شيكسبير» الرائعة على بعد ٢٠ ميلاً فقط تقطعها فى أقل من نصف ساعة بالقطار أو السيارة.. ومثل [قلعة ووريك Warwick Castle] وقلعة [كوستولدز Costwolds]، وكاتدرائيات [كوفنتري Coventry] و[جلوستر Gloucester] و[ليتشفيلد Lichfield] و[وورستر Worcester] وغيرها وغيرها.. وقد زرتها جميعاً؛ لكن لأن المساحة المخصصة لهذا الفصل لن تستوعب الكلام عنها كلها بالشكل الذى يفيها حقها؛ فإننى قد أتناولها فى فصل قادم..

اليوم الثالث لى فى برمنجهام يبدو أنه يوم رياضى ، فبرنامجى طوال اليوم كله متعلق بالرياضة..

فى الصباح مر على فى الفندق الشاب الظريف «جوليان ستانتون Jullian Stanton».. الإنجليز حالهم عجب فى لغتهم الإنجليزية ؛ فهم يطلقون كلمة [Boat] على كل شىء، يتحرك فوق سطح الماء، ابتداءً من الزورق الصغير ذى المجاديفن الذى يتسع لشخص واحد أو شخصين على الأكثر، ما نسميه نحن (فلوكة) ؛ إلى الباخرة الكبيرة التى تحمل عدة آلاف من الركاب والمسافرين والبحارة.. ولعلنا نذكر المسلسل الكوميدى الذى أشتهر فى تليفزيوناتنا العربية باسم [سفينة الحب] واسمه بالإنجليزية [Love Boat].. وعلى ذلك فإذا قلنا: إن الشركة التى يديرها الشاب الظريف «جوليان» تصنع زوارق أو [Boats] فإننا قطعاً سوف نحير القراء المصريين والعرب فى أى نوع من الزوارق هذه؟!.. لكن أقرب تشبيه لها ممكن أن نبسطه لقرائنا الذين أغلبهم يعرفون الأوتوبيس النهري الموجود الآن فى العديد من الدول العربية وأولها مصر: زورق بخارى فى حجم الأوتوبيس النهري، أو لنقل فى حجم اللنش البخارى العادى ٥ أو ٦ مرات مثلاً، لكنه مصمم من الداخل بحيث يكون عبارة عن بيت صغير أو شقة صغيرة، به عدد من السراير للنوم يتراوح بين سريرين و ٨ أو ١٠ سراير حسب حجم الزورق، وبه كل ما يحتاجه بيت عادى من دواليب وحمام ودورة مياه جارية وكهرياء وتليفون لاسلكى إذا احتاج الأمر، وغرفة سفرة أو لنسمها (ركن للأكل)، ومطبخ، وعدد من الأرائك للجلوس.. وكلها أشياء مختصرة صغيرة الحجم حتى لا تشغل حيزاً كبيراً على الزورق الصغير نسبياً.. وتعالوا نتفق على أن نطلق على هذا النوع من الزوارق تسمية (البيوت العائمة) لأنها كذلك فعلاً: بيت، بيت فيه كل ما تحتاجه أسرة صغيرة فى بيتها، لكنه يتحرك بالأسرة الصغيرة التى تستأجره ليوم واحد أو لعدة أيام أو لأسبوع أو أكثر، فى القنوات الملاحية والأنهار بسرعة ٤ كيلومترات فى الساعة.. أو كما قال لى «جوليان»: بسرعة شخص عادى يمشى بسرعة.. يعنى وأنت تقود هذا البيت

العائم بسرعته القصوى ، لو أنك صادفت صديقاً يسير على الشاطئ المجاور لك ؛ فسوف يستطيع أن يظل هو يسير على الشاطئ وهو يتبادل معك الحديث وأنت في ذلك البيت العائم ، على أن صديقك (يعد شوية) ولا يمشى على مهله !! ..

وقد كنت أظن أن قيادة هذه الزوارق أو البيوت العائمة تحتاج إلى خبرة قبطان أعالي البحار لكي يقودها ؛ أو على الأقل تحتاج إلى (رخصة قيادة) مثل رخصة قيادة السيارات أو حتى الموتوسيكلات.. ولم أكن أتصور أن قيادتها بهذه السهولة إلا بعد أن شرحها لى «جوليان» على أنها : ١ - ٢ - ٣ ليس إلا.. واحد : إضغط على هذا الزر فيشتغل المحرك ويصبح البيت العائم جاهزاً للتحرك الآن.. اثنين : هذا الذراع اسحبه إلى الخلف يهدوء فيتحرك البيت العائم ويمشى إلى الأمام ، وإذا ضغطت الذراع نفسه إلى الأمام تحرك البيت إلى الخلف.. ليس هناك أبسط من ذلك : اضغط ذراع الحركة عكس الاتجاه الذى تريد الإتجاه إليه ، وبس.. تحرك البيت العائم خلاص.. تبقى إذن مسألة توجيهه بحيث يظل فى وسط القناة المائية التى يسير فيها.. ذلك هو رقم ٣ : ذراع الدفة تحركه بيدك.. إذا أردت أن تظل (متوسطاً) فى وسط القناة فليظل ذراع الدفة فى الوسط بالضبط.. بدأت القناة تنحرف يميناً حرك أنت ذراع الدفة عكس الإتجاه أيضاً : حرك ذراع الدفة إلى اليسار ليتجه البيت العائم إلى اليمين ، حرك ذراع الدفة إلى اليمين ليتجه بيتك العائم إلى اليسار ، ليس أكثر من ذلك.. نفس الشيء إذا أردت أن (تركن) إلى جوار الشاطئ الأيمن ، فحرك ذراع الدفة إلى اليسار ، تريد أن تركن إلى جوار الشاطئ الأيسر فاجعل ذراع الدفة إلى اليمين.. ليس هناك أى شىء على الإطلاق غير ذلك ، ولا قبطان أعالي بحار ولا أعالي أنهار ولا تَرَع ولا حاجة أبداً ، ولا حتى يتطلب منك أن تكون تعرف كيف تقود سيارة ولا حتى بسكلتة..

ويسألنى : «جوليان ستانتون» بعد أن شرح لى ذلك كله فى أقل من دقيقة واحدة : «هل تحب أن تقود البيت العائم بنفسك الآن ؟! .. فسألته مستريباً : «وإذا اصطدم بنا فى الشاطئ ؟! .. فأجاب «جوليان» ضاحكاً : «لن يحدث شىء ، على

الإطلاق، ولا حتى سوف يشعر بذلك من هم بداخل الزورق.. فلا تنس أنه كما قلت لك يسير بسرعة ٤ كيلومترات فقط في الساعة، ولو اصطدم بالشاطئ وهو يسير بهذه السرعة فكأنه قد اصطدم ببالة قطن مثلاً!!..

وتوكلت على الله وأخذت مكان القيادة، على رغم أن خبرة القيادة الوحيدة التي اكتسبتها في حياتي هي قيادة أسانسيرات العمارتين اللتين أسكنهما في القاهرة وفي لندن، وقيادة فريق كرة السلة في نادى الزمالك فى سالف العصر والأوان.. لكننى قدت البيت العائم بنفسى ولعدة أميال، واستطعت أن ألق به لأعكس اتجاهه لنعود من حيث بدأنا، دون إشراف من «جولييان» الذى تركنى وتوجه إلى مقدمة «الباخرة» لكى يشرح شيئاً لرفيقي فى الرحلة «كريس واتون»، وحتى إننى فى نهاية المشوار استطعت أن أركنه إلى جانب رصيف الميناء الصغير الذى بدأنا منه وعدنا إليه، بل ودخلت به - بالراحة وبهدوء - بين بيتين عائمين آخرين كانا راكبين «واقفين» إلى جانب الرصيف، دون خسائر فى الأرواح..

* * *

تناولنا غداءنا بسرعة؛ «كريس واتون» وأنا، فى أحد المطاعم الصغيرة المنتشرة فى شوارع برمنجهام.. «كريس» يبدو منفعلاً متوتراً إلى حد ما: «مالك يا كريس؟!.. يحكى لى «كريس» أنه أصلاً من أبناء ضواحي برمنجهام، لكنه رحل مع الأسرة إلى منطقة أخرى بعيداً عن برمنجهام وهو طفل صغير ولم يعد إليها على الإطلاق إلا معى هذه المرة الآن.. وكان وهو طفل قد بدأ يهوى كرة القدم - تشجيعاً فقط - فأخذه أبوه معه مرة وهو فى الرابعة من عمره - «كريس» طبعاً هو الذى كان فى الرابعة من عمره وليس والده - ليشهد مباراة فى كرة القدم من مقاعد الدرجة الثالثة فى ملعب نادى [آستون فيللا].. ولأنها كانت المرة الأولى والأخيرة فى حياة «كريس» فقد ظلت عالقة فى ذهنه حتى اليوم على أنها من ذكرياته السعيدة..... اليوم نحن ذاهبان إلى نفس الملعب: [آستون فيللا]؛ لكننا سوف نشهد المباراة من مقصورة كبار الزوار ومديرى النادى!!.. القارق الشاسع بين المرتين: من مقاعد

الدرجة الثالثة إلى مقصورة كبار الزوار؛ هو الذى يثير انفعال الشاب «كريس واتسون»، على رغم أنه قد أصبح الآن الرجل رقم ٢ فى إدارة الشرق الأوسط فى هيئة السياحة البريطانية.. لذا فقد ظل طول الوقت يحدثنى عن نادى [ويست بروميتش] الذى كان يشجعه وهو طفل ولازال يشجعه حتى الآن، وعن الرياضة عموماً فى برمنجهام..

فى منطقة برمنجهام ٣ أندية محترفة لكرة القدم، يلعب ٢ منها فى دورى الدرجة الأولى الإنجليزى الذى يضم ٢٢ نادياً؛ هما نادى [آستون فيللا] ونادى [ويست بروميتش].. أما النادى الثالث [برمنجهام سيتى] فيلعب الآن فى دورى الدرجة الثانية.. وقد كانت الأندية الثلاث أندية كبيرة وقوية وممتازة فى سالف العصر والأوان، حتى إن نادى [آستون فيللا] الذى سنشاهد المباراة فى ملعبه اليوم فاز ببطولة دورى إنجلترا خمس مرات فى خلال أقل من ١٠ سنوات، كانت آخرها عام: ١٨٩٩!!.. يعنى فى نهاية القرن قبل الماضى!!.. ومنذ ذلك الحين لم ير البطولة مرة أخرى - ولا حتى من بعيد - لا هو ولا الناديان الآخريان فى برمنجهام، بل على العكس؛ فقد تبادلت الأندية الثلاثة الهبوط إلى دورى الدرجة الثانية الإنجليزى عدة مرات خلال الثلاثين سنة الأخيرة.. وهى الآن - إذا تصادف - ولعبت فى دورى الدرجة الأولى فهى ليست من أندية المقدمة؛ بل تتراوح أماكنها بين منطقة الوسط ومنطقة المؤخرة فى الترتيب، وتكافح كفاحاً مجيداً لمجرد أن تبقى فى دورى الدرجة الأولى.. وذلك لأنها أندية فقيرة لا تستطيع دفع ملايين الجنيهات لشراء لاعبين ممتازين كما تفعل الأندية الغنية أمثال [ليفربول] و[توتنهام] و[مانشستر يونايتد].. بل فى الحقيقة أيضاً هى تعتبر نفسها معزلاً لتفريخ اللاعبين الممتازين لحساب الأندية الغنية.. فهى تأخذهم صغاراً ناشئين وتربيتهم وتصلبهم حتى يصبحوا ممتازين فلا تكاد تستفيد من امتيازهم لأنها تبيعهم على الفور إلى الأندية الغنية.. مثلما حدث عندما باع نادى [ويست بروميتش] لاعبه «برايان روبنسون» إلى نادى [مانشستر يونايتد]

بمليونين من الجنيهات - الإسترلينية طبعاً، (واضرب فى ١١ علشان تعرف قد إيه بالعملة المصرية) دخل جيب اللاعب ١٠ ٪ منها = ٢٠٠,٠٠٠ جنيه + مرتب سنوى قدره ١٥٠,٠٠٠ جنيه أخرى - كان ذلك منذ سنوات بعيدة - وذلك مبلغ لا بأس به على الإطلاق يجعلنى أندم كثيراً على العمر الذى ضيعته فى الدراسة والقراءة والكتابة والصحافة والأدب، وعلى أننى سمعت كلام أبى وأمى وبطلت لعب الكورة فى الشارع وأنا صغير؛ وإلا كان زمانى الآن أساوى - كلاعب كرة قدم - على الأقل حوالى عشرة جنيهات، ويمكن ١٥ كمان..

الطريف أن اللاعب «بريان روبنسون» الذى استغنى عنه نادى [ويست بروميتش] وباعه إلى نادى [مانشستر يونايتد]، قد أصبح بعد ذلك كابتن فريق منتخب إنجلترا كلها لكرة القدم! ..!

* * *

ويشير «كريس واتسون» إلى أرض الملعب وهو يقول لى: إنه لأن نادى [آستون فيللا] يعتبر نادياً فقيراً، فبان مجموع ثمن لاعبيه الذين يلعبون هذه المباراة أماناً الآن ضد فريق نادى [ليستر سيتي]؛ لا يزيد كثيراً عن ٤/٣ مليون جنيه.. وهو مبلغ يقل كثيراً عن ثمن لاعب واحد من لاعبي الأندية الأخرى الغنية التى يلعبون ضدها.. وذلك يؤكد المثل القديم القائل (الغالى ثمنه فيه)! ..!

* * *

ألاحظ شيئاً طريفاً على اللوحة الكهربائية التى توجد فى مكان عالٍ من الملعب بحيث يراها الجمهور كله وتعلن عليها نتيجة المباراة وأهدافها أثناء اللعب؛ أنها تتحول خلال فترة الـ (هاف تايم) بين شوطى المباراة إلى لوحة إعلانات ضوئية ظريفة جداً: فلان الفلانى يهنئ أمه بعيد الأم.. فلان الفلانى تبرع للنادى الذى يشجعه بـ ١٠٠ جنيه.. وكان أطرف إعلان رأيته عن «موهاميد ناسر فاريد» الذى يطلب من حبيبته أن توافق على الزواج منه! ..! ولم يقل لها ذلك فى مواجهتها مباشرة لأنه بينكسف؛ لكنه دعاها لمشاهدة المباراة، وأثناء الاستراحة

هاص الجمهور فى المدرجات وزااط وصفقوا وهتفوا باسم الحبيبة «آن مونييه»
يطالبونها بأن توافق على الزواج من «فاريدي».. فنظرت الست «آن مونييه» إلى لوحة
الإعلانات وفوجئت ثم أغرقت فى الضحك والكسوف - آل يعنى - ووافقت على
الفور طبعاً، قبل ماينكسف تانى..

مسكين ذلك الحبيب المكسوف الخواجة «فاريدي»؛ انتقل إلى رحمة واحدة

ست!!!

أعود إلى الفندق الذى أقيم فيه طوال فترة زيارتى لبرمنجهام، لكى أستريح
قليلاً قبل أن تجيء الحسنة «سو برنارد Sue Bernard» - من مكتب السياحة
أيضاً - لكى تصحبني فى برنامجي المسائي.. لكن لأن مدير الفندق الشاب «جون
فيركلو John Fairclough» يدرك بحسه السياحي والفندقي أنني لا بد وأن أكون
شخصية هامة لأن رجال وفتيات مكتب السياحة فى برمنجهام يأتون ويأتين
دائماً ليأخذونني من الفندق ويعيدونني إليه؛ ويكتشف أنني صحفي مصرى أزور
برمنجهام لكى أكتب عنها؛ لذا يقرر «جون فيركلاو» أن يضع نفسه فى برنامجي
هو أيضاً لكى يحدثني عن جانب آخر من جوانب برمنجهام هو خبير فيه:
الفنادق.. وهكذا ضاعت فترة الراحة القليلة جداً التي كنت أمني نفسي بها بين
برنامجي الصباحي - الذى ينتهى عادةً فى السادسة أو السابعة مساءً - وبرنامجي
المسائي، فقد استولى عليها الشاب الظريف «جون فيركلاو»..

الفندق الذى أقيم فيه اسمه [بلاو آند هارو Plough And Harrow].. وهو قصر
قديم يضم ٤١ غرفة و٣ أجنحة، بنى عام ١٦١٢، يعنى منذ نحو ٤٠٠ سنة، ثم
تحول إلى فندق فى عام ١٧٠٤، يعنى منذ ٢٩٧ سنة بالضبط.. وذلك معناه أن
الغرفة التى أنام فيها الآن نام فيها نزيل آخر قبلى منذ ٢٩٧ سنة!!!.. «وأنا كمان
يا اخويا باقول التليفزيون اللي فى غرفتي شكله قديم شوية ليه!!!»..

ولا يتركني «جون» أتصور شكل الحياة فى فنادق برمنجهام منذ ٢٩٧ سنة؛
قبل اختراع الكهرباء والغاز والإضاءة عموماً، وقبل اختراع السيارات والأوتوبيسات

والمترو ووسائل الانتقال الحالية، والتليفونات والتليفزيونات والراديو وووو.....
 يعنى شكل الحياة فى الفنادق منذ نحو ٣ قرون من الزمان.. لكنه يستطرد ليقطع
 على تصوراتى؛ بأن فنادق برمنجهام كلها معاً تضم ٨,٠٠٠ سرير + ١٥,٠٠٠ سرير
 أخرى فى المناطق المحيطة بالمدينة على بعد أقل من ٣٠ كيلومتراً أو نصف ساعة
 بالسيارة، على كل المستويات، ابتداءً من فنادق الـ ٥ نجوم - يعنى المتأجرة جداً
 - إلى فنادق اللا نجوم على الإطلاق؛ يعنى الفنادق التى يريدها السائح العادى
 أو السائح الفقير.. وابتداءً من الفنادق التى على أحدث طرز العمارة الحديثة، مثل
 الهيلتون والشيراتون والميريديان؛ إلى الفنادق التاريخية الطراز - مثل الفندق الذى
 أقيم فيه - التى كانت قديماً قصوراً ثم تحولت إلى فنادق يفضل الإقامة فيها كثير
 من السياح الذين ينبهرون كثيراً عندما ينزلون فى فندق يعرفون أنه كان موجوداً
 فى مكانه هذا من قبل أن تكتشف أوطانهم نفسها، كالسياح الأمريكان والأستراليين
 والكنديين والنيوزيلانديين وغيرهم!!..

* * *

تنقذنى «سو برنارد» فتاة السياحة الجميلة من يدى «جون فيركلاو» مدير
 الفندق.. برنامجى المسائى مع الجميلة «سو» - بالمناسبة: «سو» اختصار
 أو اسم الدلع لـ «سوزان»، و «سوزان» اسم منتشر جداً فى كل دول أوروبا
 - سوف تأخذنى إلى أحد مسارح برمنجهام لمشهد مسرحية غنائية، ثم للعشاء
 فى أحد رستورانات المدينة، ليس على حساب «سو» طبعاً؛ وإنما بدعوة من مكتب
 السياحة، ثم استكمال السهرة بعد ذلك حسب الظروف.. أعنى إذا كان فى الإمكان
 مشاهدة شئ آخر فى برمنجهام فى ذلك الوقت من الليل!!..

لاحظت شيئاً غريباً جداً اندهشت له فى البداية؛ فلما فسرت له «سو» عندما
 سألتها اندهشت أنا من نفسى وتذكرت المثل الشعبى الذى نقوله فى مصر (يموت
 المعلم ولا يتعلم).. بمعنى أن الواحد يظل يتعلم كل يوم شيئاً جديداً حتى آخر يوم
 فى حياته.. فبعد سنوات طويلة من الحياة الدائمة المستقرة فى أوروبا لم يخطر

ذلك الشيء الذى أثار دهشتى اليوم على بالى ولا مرة واحدة من قبل؛ واحتاج الأمر إلى أن أتلقى وأتعلم درساً جديداً فى كيفية التعامل مع الحياة الأوروبية من فتاة فى بداية العشرينيات من عمرها، يعنى أقل من نصف عمرى..

كنت قد لاحظت أن «سو» عندما جاءت لتأخذنى من الفندق قد جاءت فى سيارتها الأنيقة الشيك الوجيهة؛ لكن عندما خرجنا من الفندق لنذهب إلى المسرح طلبت «سو» من فتاة الاستقبال فى الفندق أن تطلب لنا سيارة تاكسى!!.. فدهشت أنا، بل ووجعت: هل لا تريد «سو» أن تشاهد وأنا فى صحبتها فى سيارتها!!؟.. هل هى فتاة محافظة إلى هذا الحد!!؟.. لكننا سوف نشاهد معاً ونحن داخلان إلى المسرح، ونحن خارجان من المسرح، ونحن جالسان متجاوران داخل المسرح، ونحن نتناول العشاء معاً فى الرستوران أو المطعم، ونحن عائدان إلى الفندق، بل ونشاهد معاً الآن فى التاكسى ونحن ذاهبان إلى المسرح.. فما معنى ذلك التصرف الغريب والحركات البلدى التى ليس لها داع من «سو»!!..

ولم أشأ أن أبدأ السهرة من أولها وأنا مشدود هكذا؛ فملت على «سو» ونحن فى التاكسى وسألتهما، فأجابتنى على الفور ببساطة البنت الأوروبية منظمة التفكير، بل ولعلها اندهشت لسذاجة تفكيرى أنا: «ولماذا أتعب نفسى بقيادة سيارتى فى زحام وسط المدينة وقت دخول المسارح والسينمات والملاهى!!؟.. ولماذا أتعب نفسى بقيادتها فى نفس الزحام بعد الخروج من المسرح!!؟.. ولماذا أتعب نفسى فى البحث عن مكان لأركنها فيه حتى تنتهى من المسرح، ثم مرة أخرى حتى تنتهى من العشاء!!؟.. وغالباً لن أجد مكاناً قريباً من المسرح الذى سوف ندخله أو الرستوران الذى ستناول فيه العشاء.. لكن؛ وينفس تكلفة البنزين التى كنت سأنفقها لو ذهبت بسيارتى + رسوم ركن السيارة مرتين فى وسط المدينة؛ التاكسى يأخذنا من أمام باب الفندق لننزل منه أمام باب المسرح، ثم تنتهى علاقتنا به، وهكذا بعد المسرح، ثم بعد العشاء والسهرة يأخذنا من حيث نحن لينزلنا أمام باب الفندق دون أن نشغل أنفسنا بركن سيارتى ولا لدقيقة واحدة..

فعلاً طلعت «سو» فتاة محافظة، لكن على سيارتها..

المسرحية التى دعتنى الجميلة «سو» إلى مشاهدتها على مسرح [هيبودروم Hippodrome] هى مسرحية غنائية استعراضية بعنوان [٧ عرايس لـ ٧ أشقاء Seven Brides For Seven Brothers].. من نوعية [سيدتى الجميلة] و [صوت الموسيقى] و [قصة الحى الغربى] و [أوليفار] و [غناء تحت المطر] وغيرها.. وعندما يحل الظلام على مدينة برمنجهام فإنها لا تنام؛ وإنما تبدأ فيها حياة من نوع آخر؛ شأن كل المدن الأوروبية وأغلب العواصم العربية الآن: حياة الليل كاملة، ابتداءً من المسارح التى تقدم المسرحيات والأوبرات والأوبريتات الغنائية، إلى الكباريهات والملاهى الليلية، وعروض موسيقى الجاز أو الموسيقى الكلاسيك والسيمفونية، إلى (علب الليل) أو البارات، التى يسمونها هنا [Pub] اختصاراً لكلمة [Public].. وتأتى الفرق المسرحية الشهيرة من لندن ومن كل مكان لكى تقدم عروضها الأولى على مسارح برمنجهام، على اعتبار أنها المدينة رقم ٢ فى إنجلترا، خصوصاً على [مسرح برمنجهام التجريبي]، حتى تستوى وتنضج وتأخذ شكلها النهائى فتنقل إلى منطقة الـ [ويست إند West End] أو حى المسارح والملاهى ودور السينما الشهير فى لندن، وهو منطقة [ستراند] و [ليستر سكوير] و [بيكاديللى] و [سوهو] و [كوفنت جاردن]..

على مائدة العشاء فى ركن هادئ فى مطعم إيطالى مضاء بالشموع، تستطرد الجميلة «سو برنارد» تحكى لى عن جانب المرح واللهو فى حياة برمنجهام:

- فى برمنجهام العديد من الرستورانات والمطاعم مختلفة الأنواع والجنسيات والتخصصات؛ ابتداءً من المطاعم التى تقدم منتجات البحر فقط: الأسماك والقواقع والجمبرى والكابوريا والإستاكوزا وما نسميه فى مصر (أم الخلول)، إلى المطاعم التى لا تقدم إلا الطيور، إلى المطاعم التى تقدم الوجبات والأكلات الإيطالية الشهيرة وألف صنف من المكرونة، إلى المطاعم اليونانية والصينية والتركية والهندية والعربية

والشرقية ومطاعم الـ (شيش كباب) ، إلى المطاعم الشعبية الرخيصة التي تقدم لك - على الواقف - الوجبة الإنجليزية الشهيرة الـ [فيش آند تشيبس Fish & Chips] أو السمك والبطاطس المقلية. والعديد من هذه المطاعم ؛ خصوصاً التركية واليونانية والعربية ؛ تقدم عروضاً فنية قومية كالرقص الشرقي والرقص الشعبي اليوناني ، أثناء تناول العشاء..

إن مدينة برمنجهام تعمل وتبذل جهداً شاقاً أثناء النهار؛ لكنها تعرف أيضاً كيف تستمتع بأمسياتها ولياليها..



كنت أظن أن برنامجي مع الجميلة «سو برنارد» سوف ينتهي بعد السهرة في المسرح ثم العشاء ؛ لكنني لم أكن أتوقع ؛ وإن كنت قد سعدت له كرجل عزب طروب ليس وراءه من تحاسبه وتعد عليه أنفاسه ؛ أن تستمر سهرة «سو» معي حتى الخامسة صباحاً..

تستطرد «سو» بعد أن عدنا إلى الفندق :

- إن برمنجهام شهيرة أيضاً بمهرجاناتها السياحية التي تقام فيها على مدار العام.. وعلى سبيل المثال فإن المدينة تحتفل في شهر مايو بانتخاب عمدتها الجديد الذي ينتخب مرة كل عام ، باستعراض هائل يقام في شوارع برمنجهام يضم فرق الموسيقى العسكرية النحاسية وطوابير الفتيات الجميلات والملابس التنكرية والفرسان وعربات الزهور..

وفي نهاية شهر مايو حين تتفتح الزهور في حدائق برمنجهام يقام مهرجان الـ (تيوليب) السنوي الذي يأتي لمشاهدته عشرات الألوف من برمنجهام وخارج برمنجهام.. ثم يأتي الصيف ومعه مهرجان الرقص الشعبي الإسكتلندي ، ثم مهرجان سباقات الدراجات ، ومهرجانات الرقص الشعبي غير الإسكتلندي ، والعروض الموسيقية المفتوحة التي تقدمها الفرق الموسيقية في الهواء الطلق في حدائق برمنجهام.. و - لا تندهش - هناك مسابقة للرقص الشرقي تقام في برمنجهام كل

سنة، على شرط ألا تكون المشتركات فيها من الراقصات المحترفات.. كما يحتفل الإسكتلنديون من أهالي برمنجهام بعيدهم السنوى، ويقام سباق الـ ٣٥ كيلومتراً سيراً على الأقدام، وهو سباق طريف يشترك فيه متسابقون من كل الأعمار حتى أكثر من ٨٠ سنة!!..

هذا العام فى شهر يونيو؛ تحتفل برمنجهام بالعيد المئوى لاختراع السيارة، التى كان أول ظهورها فى شوارع برمنجهام فى شهر يونيو عام ١٨٨٥.. وفى بداية شهر أغسطس يحتفل أطفال المدينة بـ (عيد المرح) الذى يستمر أسبوعاً كاملاً.. أما فى نهاية شهر أغسطس فيقام استعراض برمنجهام الرئيسى الذى يتمتع بشهرة عالمية ويجتذب مئات الآلاف من كل أنحاء العالم لمشاهدته..

وفى شهر نوفمبر يحتفل أهالي برمنجهام بالاحتفال الذى تحتفل به كل مدينة وقرية فى إنجلترا كلها، وهو (احتفال الحرائق) أو احتفال [جاي فوكس Guy Fawkes]، الذى تشعل خلاله النيران فى دمي ترتدى ملابس رجل وترمز لـ [جاي فوكس] الذى أعدم حرقاً عام ١٦٠٥ بتهمة محاولة حرق البرلمان فى لندن، بينما تشعل سماء المدينة كلها بالألعاب النارية والصواريخ الملونة.. وتستمر هذه الاحتفالات لأكثر من أسبوع ينتهى يوم ٥ نوفمبر..

وطبعاً فى شهر ديسمبر تتزين برمنجهام كلها بالزينات والأضواء الملونة استعداداً لأعياد الكريسماس ولوداع السنة المنتهية واستقبال السنة الجديدة..

* * *

وإذا كانت صناعات مدينة برمنجهام وحدها تمثل نحو ٢٥٪ من مجموع صادرات بريطانيا إلى العالم كله؛ فلعل أهم صادرات برمنجهام إلى العالم هو: اسمها نفسه!!.. فاسم [برمنجهام] يطلق الآن على ٣٠ مكاناً على خريطة العالم فى ٥ دول هى: إستراليا وكندا ونيوزيلاندا وإيرلندا، والولايات المتحدة الأمريكية وحدها بها ٢١ مدينة تحمل اسم [برمنجهام].. ليس ذلك فقط - تستطرد «سو برنارد» بفخر - بل إن اسم [برمنجهام] قد وصل إلى خارج العالم كذلك.. وصل إلى القمر.. فإن الفوهة رقم ٣٥٧ فوق سطح القمر قد أطلق عليها أيضاً اسم [برمنجهام]!!..

وأدرك شهر زاد الصباح ، فسكتت «سو برنارد» عن الكلام المباح..

وبطبيعة الحال ، وكما اعتدت أن أفعل فى كل مدينة أوروبية أزورها ؛ لم يكن ممكناً أن أجيء إلى برمنجهام دون أن أبحث عن المهاجرين المصريين والعرب فيها وألتقى ببعضهم.. كنت قد زرت برمنجهام مرة من قبل ؛ وفى تلك الزيارة عرفت أن فى برمنجهام أكبر تجمع عربى أو جالية عربية فى إنجلترا - بعد لندن بطبيعة الحال - إذ يبلغ تعدادها ٣٠ ألف عربى أغلبهم من اليمنين الشمالى والجنوبى ، يشتغلون فى الصناعات الثقيلة كمصانع الحديد والصلب ومصانع السيارات ، وعدد قليل من المصريين..

كان موعدى مع الطبيب المصرى «عوض صدقى قلينى» فى منتصف الليل فى عيادته التى هى جزء من بيته ، الذى لعله واحداً من أقدم بيوت مدينة برمنجهام.. فالدكتور «قلينى» نفسه أقدم من الملكة «إليزابيث» فى بريطانيا بزمان ، بحكم أنه جاء إلى بريطانيا قبل أن تولد الملكة أليزابيث ، فهو - باختصار - من نفس عمر أم الملكة إليزابيث ومولود معها فى نفس الدفعة ، أقصد فى نفس السنة : ١٩٠٠!!.. - لا أعرف تاريخ ميلادى بالضبط لكننى غالباً من مواليد سنة ١٩٠٠ ، لأننى جنث إلى بريطانيا سنة ١٩١٠ وأنا تلميذ فى ابتدائى ، فالتحقت بمدرسة [مارجيت سكول] فى مدينة [مارجيت] بين لندن و [دوفر].. وحين حصلت على البكالوريا أراد أبى أن يلحقنى بكلية التجارة ، وكانت وجهة نظره فى ذلك أن التاجر يستطيع أن يكسب ١٠٠٠ جنيه فى ساعة واحدة بينما لا يستطيع الطبيب أن يكسبها فى سنة كاملة.. لكننى كنت أخطب الطب فجئنت إلى مدينة برمنجهام والتحقت بكلية الطب فيها وتخرجت عام ١٩١٠!!..

[عذراً للقراء للتواريخ غير المتوافقة تماماً ، لكن العتب على الذاكرة والسن وبعد المسافة !]..

يستطرد الطبيب المصرى العجوز الدكتور «عوض صدقى قلينى» يحكى لى حكايته مع المهجر فى بريطانيا :

- اشتغلت بعد تخرجى فى كلية الطب فى أحد مستشفيات برمنجهام لمدة ٦ سنوات قبل أن أشتري هذه العيادة التى نجلس فيها الآن، ومنذ نحو سنة ١٩٢٠ وأنا أمارس عملى فى نفس العيادة.. ومنذ جئت إلى إنجلترا لم أزر مصر سوى مرتين فقط: مرة سنة ١٩٢٣ والثانية والأخيرة سنة ١٩٢٥.. لكن الحقيقة فإن «لويس» و«نشأت» أولاد أخى المرحوم «صادق صدقى قلىنى» دائماً يبيجوا يزورونى فى كل صيف هم وزوجاتهم وأولادهم وينزلون ضيوفاً على.. وده بالنسبة لى أحسن كثيراً.. فمن ناحية أنا صحتى لم تعد تحتل شحطة السفر إلى مصر أو إلى أى مكان، ومن ناحية ثانية لما أصرف أنا فلوسى على المصريين أحسن ما تأخذها منى الضرايب هنا!!..

ولاحظ الدكتور «عوض» أننى نظرت نظرة سريعة إلى السيدة العجوز التى استقبلتنا معه ورحبت بنا وقدمت لنا الشاى وتجلس معنا الآن؛ فقال لى على الفور بما يشبه الاحتجاج: «لأ..دى مش مراتى.. دى مجرد صديقة قديمة من أيام الصبا تعيش معى كمديرة للبيت، وهى من نفس عمرى تقريباً.. وأنا لم أتزوج أبداً.. أولاً لأننى لا أحب النساء الإنجليزيات، وثانياً لأن النساء هن أكبر مقامرة فى حياة الرجل وأنا لا أحب المقامرة، لأن المقامر غالباً بيخسر أكثر مما يكسب.. وإذا قلنا ذلك بشكل آخر؛ فالمقامر خسران حتى لو كسب!!..

ظريف جداً الدكتور «عوض صدقى» ودمه خفيف إلى أقصى حد وحاضر النكتة والبدية على رغم نحو قرن كامل من الزمن يحمله على كتفيه، وعلى رغم أننا دققنا بابه لنزوره فى بيته فى مدينة برمنجهام بعد منتصف الليل.. سألت الدكتور «عوض» هل لازال يعمل فى عيادته وحده أو له مساعدون من الأطباء الشبان ينقل إليهم علمه وخبرته وفته ٩١..

- فى الوقت الحالى ليس لدى مساعدون، منذ مات آخر مساعد لى بن نحو ٣ سنوات (!!).. والأطباء الشبان بمجرد أن يتخرجوا بيروحوا السعودية والخليج والبلاد العربية لأنها تعطيهم ٢٠٠٠ جنيه مرتباً شهرياً..

سألته: ألا تفكر فى العودة إلى مصر يوماً ما؟!..

قال: حين أقرر أن أتقاعد!..

قلت مندهشاً: فى سنك هذا ولم تقرر أن تتقاعد بعد؟!.. متى تتقاعد إذن؟!..

قال على الفور: حين أجد شيئاً آخر أعمله..

حين تخرج الشاب المصرى «أديب أمين الديرى» فى كلية الطب بجامعة [فؤاد الأول] - جامعة القاهرة الآن - عام ١٩٤٢ كان عمره ٢٧ سنة وكان مليئاً بالصحة والحيوية والشباب؛ فحاول أن يلتحق بالجيش المصرى كطبيب، لكنه فشل على رغم نجاحه فى الكشف الطبى.. فلم يجد أمامه إلا أن يتطوع فى الجيش البريطانى الذى كان يحتاج فى ذلك الوقت فى عز الحرب العالمية الثانية إلى (أطباء ميدان).. وراح الطبيب الشاب «أديب» مع الجيش البريطانى إلى شمال أفريقيا، ثم نزل مع قوات الحلفاء فى [سلانوا] بجنوب إيطاليا.. وحين انتهت الحرب اكتشف الطبيب الشاب «أديب» أنه فى حاجة إلى استعادة معلوماته الطبية؛ إذ إن طب ميدان القتال والتعامل مع الجرحى من الجنود يختلف تماماً عن طب العيادات والتعامل مع المرضى المدنيين.. ف جاء مع الجيش الإنجليزى العائد من الحرب إلى بريطانيا.. وتصادف أن كان فى مدينة برمنجهام فى ذلك الوقت طبيب مصرى اسمه الدكتور «إسكندر سليمان»، ومرض الدكتور «سليمان» فاختر الطبيب المصرى الشاب العائد من الحرب ليساعده فى عيادته مؤقتاً خلال فترة مرضه.. لكن المرض طال فطال بقاء الشاب «أديب» معه؛ حتى اختار الله الدكتور «سليمان» إلى جواره فمات وترك العيادة بما فيها لتلميذه الدكتور «أديب»، وترك له أيضاً ١٠ آلاف مريض كانوا سيصبحون بلا طبيب لو تخلص عنهم الدكتور «أديب» وعاد إلى مصر.. ف شعر بأنهم (أمانة فى رقبته) فقرر البقاء فى إنجلترا من وقتها - منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ - حتى اليوم!..

وتزوج الطبيب الشاب - وقتها - «أديب أمين الديرى» من الإنجليزية «مارى»،

ولديهما الآن ٤ أبناء: «أمين» و «يوسف» و «رمسيس»، والبنت اسمها «رفقة فحج النور»!!.. «رفقة» هو اسم أمه، و «فحج النور» هو اسم جدته!!..
وعلى رغم أن الدكتور «أديب» آخر مرة زار فيها مصر كانت عام ١٩٥٢؛ إلا إن والدته وشقيقته جئن ليعشن معه هنا في المهجر.. الشقيقة الصغرى «مجيدة» جاءت للدراسة هنا في أوائل الخمسينات فاستقرت هنا وعملت هنا وحصلت على الدكتوراة في علم النفس.. وفي أوائل الستينات وجدت الأم والشقيقة الصغرى «عفيفة» أنهما قد أصبحتا وحيدتين في مصر، فجاءتا أيضاً لتتضمنا إلى «أديب» و «مجيدة»، وتصبح الأسرة كلها الآن في المهجر الإنجليزي اليرمنجهامي..
قطعاً لو كان الجيش المصرى قد قبل الطبيب الشاب «أديب أمين الديرى» حين تقدم للالتحاق به في أواسط الأربعينات؛ لتغير شكل حياته تماماً؛ ولكان قد أصبح الآن (لواء طبيب بالمعاش)، فالدكتور «أديب» من مواليد عام ١٩١٤..

* * *

إذا أردت أن تقوم بتصنيف أفراد الجالية اليمنية فى إنجلترا؛ فسوف تجد أنك لن تستطيع أن تضع فى خانة (المهنة السابقة) على مجيئهم إلى المهجر الإنجليزي غير مهنتين فقط. فالمهاجرون اليمنيون فى إنجلترا لم يكونوا يعملون فى وطنهم الأصلي فى غير: الزراعة، أو عمالاً فى ميناء عدن!!..
من ذلك لن يكون صعباً أن تقدر المستوى الاجتماعى للمجتمع اليمنى فى المهجر هنا فى إنجلترا؛ فهو لم يزد كثيراً عما كان أثناء وجوده فى اليمن قبل الهجرة إلى هنا.. ومعظم الزوجات اليمنيات إما كن فى الوطن يعملن فى فلاحه الأرض وزراعتها، أو كن مجرد ربات بيوت فقط.. الأمية وعدم معرفة القراءة والكتابة باللغة العربية منتشرة جداً بين الرجال اليمنيين هنا؛ فما بالك بالنساء!!..
وإذا كان الرجل اليمنى المهاجر إلى إنجلترا منذ ١٠ أو ١٥ أو حتى ٢٠ سنة، ويخرج من البيت كل يوم إلى عمله ويعمل إلى جانيه ومن حوله عشرات ومئات من العمال الإنجليز فى كل مكان؛ ومع ذلك فهو لا زال حتى الآن يجد صعوبة فى

التفاهم أو التعامل باللغة الإنجليزية؛ فكيف نتصور شكل الزوجة اليمنية الموجودة هنا وهي لا تكاد تخرج من بيتها إلا إذا احتاجت إلى الذهاب إلى الطبيب، ولا تكاد تزور أو تزار، لا مع جاراتها ولا مع غير جاراتها، وبالتالي لا تزور ولا تزار ولا تتزاور مع أسر وعائلات رفاق زوجها في العمل من الإنجليز.. كل ذلك يجعل الحياة هنا في المهجر الإنجليزي صعبة جداً على المرأة اليمنية ويجعلها حبيسة البيت لا تكاد تخرج منه. ليس ذلك فقط؛ ليست المسألة مسألة (حياة اجتماعية) فحسب؛ بل إن هذه الحبسة في البيت لا تكاد ترى الشمس خارجه؛ ذلك يجعل المرأة حساسة جداً مع الشتاء الإنجليزي قارس البرودة الذي ينقض عليها بأمراضه، خصوصاً أمراض الحساسية التي تصاب بها اليمنيات في إنجلترا بشكل عام يكاد يمثل (ظاهرة مرضية يمنية)!!..

ويمكنك أن تستمع إلى نفس الشكوى دائماً؛ فإن عدم تواؤم الزوجات اليمنيات مع شكل الحياة الإنجليزية، لا (اجتماعياً) ولا (صحياً)؛ فإن ذلك يجعلين دائمت الإلحاح على أزواجهن للعودة بالأسرة كلها إلى الوطن.. وغالباً ما يستجيب الأزواج اليمنيون إلى ذلك الإلحاح لأنهم هم أيضاً لا يقلون عن زوجاتهم رغبة في العودة إلى اليمن، لنفس الأسباب: عدم التواءم مع شكل الحياة الإنجليزية في المهجر هنا..



كان طبيعياً بعد النجاح الذي حققه «على صالح العودلي»، واتساع أعماله ومزارعه الخمس لتربية الدواجن والأغنام والأبقار؛ كان طبيعياً أن يستعين على إدارة أعماله أول ما يستعين بإخوته الثلاث الذين كان قد تركهم وراءه في اليمن.. ولبي النداء على الفور شقيقاه «محمد» و«سالم»، أما «عبد الله» فقد فضل البقاء في اليمن لأنه كان أكثرهم تعلقاً بالتعليم..

«سالم صالح العودلي» كان تلميذاً في سنة أولى ثانوى في عدن حين قطع دراسته ليحجى، إلى إنجلترا في عام ١٩٧٥.. لكنه - كعادة اليمنيين الذين يزوجون أبناءهم

فى سن مبكرة جداً؛ كان تلميذ سنة أولى ثانوى متزوجاً!.. فترك وراءه كتبه وكراريسه وزوجته فى اليمن وجاء إلى إنجلترا - برمنجهام - لكى يعينه شقيقه «على» فى وظيفة (مدير مجزر) على الفور.. (المجزر) هو المكان الذى تذبح فيه الخراف والعجول.. وفى نفس الوقت كانت مسألة التلمذة لازالت عالقة بذهن «سالم»؛ فالتحق بمدرسة ليلية فى برمنجهام ليتعلم اللغة الإنجليزية التى تكفى لكى يستمر بعد ذلك فى دراسة أعلى فى المحاسبة، ما يوازى (دبلوم تجارة) عندنا، ويتخرج منها بعد ٣ سنوات فيتولى كل المسائل المالية والإدارية والتجارية لمزارع شقيقه «على»..

● وماذا عن زوجتك اليمنية التى كنت قد تركتها وراءك فى اليمن عندما جئت إلى هنا؟!..

- سافرت إلى الوطن فى أجازة بعد فترة قصيرة من مجيئى إلى برمنجهام وعدت أنا وزوجتى معى..

● إذن فقد قررت أن تستقر هنا فى المهجر فى برمنجهام؟!..

- أبداً.. ثلاث سنوات أخرى نعود بعدها إلى الوطن..

* * *

«المادة وحدها هى التى تضطرنى إلى البقاء هنا فى المهجر.. فإننى لازلت مديناً ببعض الديون ينبغى أن أسدها قبل العودة إلى الوطن، ورحلة العودة نفسها أنا وزوجتى وبناتى الثلاث تحتاج إلى هـ تذاكر على الطائرة ثمنها ليس متيسراً لى الآن.. كما أننى عندما أعود إلى الوطن بعد ١٠ سنوات غربة فى المهجر لابد وأن أجمع قبلها بعض المال آخذه معى لكى أضمن لبناتى الثلاث مستقبلهن، بالإضافة إلى أن لى فى اليمن أحياناً أنا الذى أنفق عليه.. لهذه الأسباب كلها، فقط، فأنا مضطر إلى البقاء فى المهجر البريطانى لمدة ٤ أو ٥ سنوات أخرى على رغم أنفى ورغم مرضى وعلى رغم عدم تأقلمى مع الحياة الإنجليزية بعد سنوات طويلة من وجودى فى إنجلترا»!..

هكذا قال لى «أحمد صالح محمد» المهاجر اليمنى الذى يعمل سائقاً فى مصنع للزجاج هنا فى برمنجهام، وفى الوقت نفسه هو سكرتير نقابة العمال اليمنيين فى المدينة التى تعتبر أكبر مدن بريطانيا بعد مدينة لندن.. «أحمد صالح محمد» من اليمنيين القلائل الذين جاءوا بزوجاتهم معهم من اليمن.. زوجته «حليمة» أيضاً تقول إن الحياة هنا فى بريطانيا تختلف كثيراً جداً عن الحياة فى اليمن:

– هنا ما بنقدر نحكى معاهم بلغتهم ولا هم بيقدروا يحكوا معانا بلغتنا.. ولو كان لنا هنا أهل أو أسرة كنا استقطعنا أن نبقى هنا فترة أطول.. لكن إحنا بلادنا عظيمة وطيبة وبنرجع لها أحسن لنا ولستقبل بناتنا.. وإن شاء الله بعد سنتين أو ثلاثة نقدر نعود لوطننا فى اليمن..

«حليمة» حين جاءت من اليمن الجنوبية لأول مرة فى عام ١٩٧٥ جاءت معها بابنتيها «أمينة» و «إيمان» – ٦ سنوات و ٣ سنوات وقتها – ثم أضافت إليهما «هنا» بعد نحو ٣ سنوات.. زوجها «أحمد صالح محمد» أجره كسائق ٦٠ جنيهًا فى الأسبوع، لكن هذا الأجر لا يكفيه هو وأسرته الصغيرة، فيضطر أحياناً إلى العمل ساعات إضافية لكى يزيد من دخله، ومع ذلك:

– أنا عارف أنني حين أعود إلى الوطن سيكون أجرى هناك أقل من أجرى هنا كثيراً؛ لكن أيضاً الأسعار هناك أقل من هنا كثيراً، والظروف الاقتصادية فى الوطن طيبة والوظائف موجودة وأى عامل يعود من المهجر يجد فى الوطن عملاً فى انتظاره..

* * *

تصادف مع وجودى فى برمنجهام احتفال العمال اليمنيين فى المدينة بعيد استقلال اليمن.. ودعا القنصل اليمنى فى برمنجهام عدداً كبيراً من أعضاء الجالية – ودعائى معهم – إلى عشاء بسيط فى مبنى القنصلية، أعقبه حفل سمر، بسيط أيضاً، غنى فيه العاملان اليمنيان «عبد الله قاسم» و «عبد الودود عبد الرحيم» بعض الأناشيد والأهازيج والأغاني العاطفية اليمنية، وقام القنصل وبعض شباب العمال

ليرقصوا رقصاتهم الوطنية القومية.. «عبد الله قاسم» عزف على العود وغنى أغاني وأناشيد وطنية، لأنه لا يحب أن يغنى الغناء العاطفى.. «عبد الله» جاء إلى المهجر هنا وعمره ١٣ سنة، وهو يعمل الآن فى مصنع لصهر الحديد كسائق ونش.. وقد اعتاد وألف الحياة فى إنجلترا وتعود عليها، على رغم أنه حتى الآن - مثل آلاف غيره من العمال اليمينيين هنا - لا زال لا يجيد اللغة الإنجليزية وإن كان يتكلمها فى حدود التفاهم العادى البسيط.. ومثله أيضاً مثل أغلب اليمينيين فى المهجر ترك زوجته وراءه فى اليمن.. حاول أن يحضرها إلى هنا لكن أمه - أمه هو وليس أم زوجته - اعترضت على سفر زوجة ابنها حتى لا تبقى الأم وحيدة فى الوطن!!.. ومن الجائز أيضاً أن تكون الأم قد أرادت أن تضمن استمرار الصلة بين الابن فى المهجر والأسرة فى الوطن بالاحتفاظ بزوجه هناك، فمن يدرى، فربما إذا سافرت إليه زوجته هناك انقطعت صلتها معاً بالأهل فى الوطن وضاعاً معاً فى زحام المهجر الكبير البعيد: بريطانيا!!..

* * *

«بعد أن قضيت سنوات طويلة فى المهجر الإنجليزي فى برمنجهام؛ وبعد أن وصل أجرى هنا إلى ١٠٠ جنيه إسترليني فى الأسبوع؛ وبعد أن ضحيت بأجمل سنوات عمرى وشبابى فى إعادة بناء بريطانيا التى خربتها الحرب مع الآلاف غيرى من العمال الذين هاجروا إليها من أوطانهم؛ الآن أصبح الإنجليزي لا يريدوننا هنا بعد أن لم يعودوا فى حاجة إلينا.. والذى كان قد وصل من العمال اليمينيين إلى مركز (رئيس عمال) أو (رئيس واديه)؛ عادوا فأنزلوه إلى مرتبة عامل عادى وجعلوا عليه رئيساً إنجليزياً منهم، وقالوا له بمنتهى الوضوح الجارح ما معناه أن «ابن البلد أحق وأولى من الغريب»!!.. الآن فقط بعد أن انتهت حاجتهم إلينا اكتشفوا أننا غرباء وبدأوا يضايقوننا فى أعمالنا ويضيقوا علينا فى الرزق حتى نزهق فنرحل ونعود إلى بلادنا.. وفعلاً قررت العودة إلى وطنى وأشتغل فى بلدى بدلاً من أن أظل غريباً هنا طول عمرى..

انتهى كلام «محمد بن محمد عبد الكريم» عضو لجنة اتحاد العمال اليمنيين فى برمنجهام.. ولا تعليق!!..

وفى دردشات سريعة مع بعض العمال اليمنيين الذين التقيت بهم فى مدينة برمنجهام:

● «عبد الخالق عبد الرحمن».. جاء إلى برمنجهام وعمره ١٩ سنة.. كان يعمل مزارعاً فى اليمن وجاء فى البداية إلى مدينة [شيفيلد] ثم إلى برمنجهام ليعمل فى مصنع للحديد.. سافر إلى الوطن مرات عديدة منذ استقر هو هنا، لأن أسرته كلها لازالت فى الوطن حتى الآن..

● «عبد الرحمن شاييف».. جاء إلى المهجر هنا عام ١٩٦٠ وعمره ٢١ سنة.. أيضاً كان فى اليمن مزارعاً وجاء إلى هنا ليعمل (لحام أكسجين) فى مصنع لقطع غيار السيارات.. لديه زوجة و٦ أولاد تركهم جميعاً وراءه فى اليمن ولم يجيئوا إلى هنا على الإطلاق، ولا حتى فى زيارات!!..

● «صالح على أسعد».. جاء إلى المهجر هنا عام ١٩٥٩ وكان عمره ٢٥ سنة، ليعمل فى مصنع أخشاب على رغم أنه كان فى اليمن مزارعاً.. هو أيضاً لم تحضر أسرته معه إلى المهجر.. وقد أدهشنى «صالح» حين أصر إصراراً غريباً، إلى حد العصبية، على عدم ذكر عدد أولاده الذين تركهم وراءه فى اليمن!!.. يمكن خائف من الحسد..

● «مسعد عياد محمد».. كان موظفاً فى جمارك اليمن قبل أن يجرى إلى بريطانيا مهاجراً عام ١٩٧٠ وكان عمره وقتها ٢٣ سنة، ليعمل كعامل فى مصنع قطع غيار سيارات.. ترك أسرته وراءه فى اليمن ووالده هو الذى يتفق على زوجته وأولاده خلال وجود «مسعد» فى المهجر..

● «صالح على صالح».. جاء إلى المهجر فى بريطانيا عام ١٩٥٩ وكان عمره وقتها ٢٧ سنة.. هو أيضاً كان فى اليمن فلاحاً.. أغلب المهاجرين إلى بريطانيا كانوا

فلاحين فى اليمن لأنه فى عهد الاستعمار البريطانى لليمن - الجنوبى - لم تكن هناك أى صناعات فى اليمن.. «صالح» يعمل الآن فى مصنع قطع غيار سيارات.. فى برمنجهام مصانع عديدة لقطع غيار السيارات، كل مصنع منها متخصص فى جزء صغير أو عدة أجزاء صغيرة من جسم السيارة.. فى المصنع الذى يعمل فيه «صالح» ٣٠٠ عامل من مختلف الجنسيات، منهم نحو ٥٠ يمنياً.. لكن العمال الإنجليز الآن يمثلون أغلبية فى كل مصانع برمنجهام.. لديه فى الوطن الأم اليمن ٧ أولاد لم يسمعوأ عن بريطانيا إلا من خطابات أبيهم فقط؛ فهم لم يجيئوا إليها ولم يروها أبداً..

● «عبد الحافظ حسين».. أيضاً كان مزارعاً فى اليمن قبل أن يهاجر إلى بريطانيا فى عام ١٩٦٠ وعمره ٢٣ سنة.. لازالت اللغة الإنجليزية تمثل مشكلة بالنسبة إليه بعد كل هذا العمر فى المهجر.. يتقاضى ٦٠ جنيهاً - إسترلينياً - فى الأسبوع، وعلى رغم أن مثل هذا المرتب يعتبر مرتباً مرتفعاً جداً فى اليمن؛ إلا أن «عبد الحافظ» يفكر جدياً فى العودة إلى الوطن حتى ولو لم يحصل على مثل هذا المرتب هناك؛ فقد افتقد زوجته وأولاده الخمس الذين ظلوا فى الوطن ولم يحضروا معه إلى المهجر..

حين جاء الحاج «مسعد» إلى بريطانيا مهاجراً من اليمن عام ١٩٥٦؛ ترك وراءه فى الوطن زوجة يمنية وولداً وبنت.. فى المهجر طلق الزوجة اليمنية وتزوج «كاثرين» الإنجليزية وأنجب منها بنتاً واحدة هى «ميريام».. وحين بلغت «ميريام» الثامنة من عمرها أرسلها الحاج «مسعد» إلى الوطن فى اليمن لتتربى وتكبر هناك، وتزوجت «ميريام» من شاب يمنى وعاشت فى اليمن فى تبات ونبات وخلفت للحاج «مسعد» أحفاد وحفيدات..

بعد ٥ سنوات من زواج الحاج «مسعد» من الإنجليزية «كاثرين» طلقها هى أيضاً وتزوج من إنجليزية أخرى هى «آن»، التى كانت حين تعرف إليها تعمل فى

مصنع للمعادن فى برمنجهام أيضاً، وأنجب منها ٤ أولاد، كلهم صبيان: فيصل
ونعمان ويوسف وعادل..

استغرقت المسألة ١٦ سنة كاملة من الزواج بين الحاج «مسعد» و«آن» قبل
أن (يكتشف) أن طباعه كرجل شرقى لا تتفق مع طباع زوجته الإنجليزية التى
تستطيع بحكم عاداتها وتقاليدها أن (تصادق) رجالاً آخرين وتلتقى بهم (و تخرج)
معهم دون حاجة إلى إذن من الزوج أو إلى أن تفعل ذلك من وراء ظهره.. ست
إنجليزية صريحة وواضحة وترتبت على كده.. فطلق الحاج «مسعد» زوجته رقم ٣
«آن» فى المحكمة الإنجليزية، وهو الآن فى طريقه للزواج من الزوجة رقم ٤ التى
اشتراط أن تكون يمنية، لكى يصبح رصيده من الزوجات متعادلاً: ٢ يمينيات و ٢
إنجليزيات.. العروس اليمنية الجديدة التى وقع عليها اختيار الحاج «مسعد» رآها
مرة واحدة وهى طفلة عمرها ١٢ سنة حين زار الوطن آخر مرة منذ ١٠ سنوات،
ويتذكرها جيداً (!!).. فطلب من شقيقه الموجود فى اليمن أن يخطبها له..
وخطبها له فعلاً!!..

الحاج «مسعد» لديه الآن (طقمان) من الأبناء: ٣ فى اليمن و ٤ فى بريطانيا..
أولاده الذين فى اليمن لا يعرفون كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية ولم يروا إنجلترا
طول عمرهم - باستثناء «ميريام» التى ولدت فى إنجلترا وذهبت إلى اليمن طفلة
فتعلمت اللغة العربية ونسيت اللغة الإنجليزية -، وأولاده الذين فى إنجلترا
لا يعرفون كلمة واحدة من اللغة العربية ولم يروا اليمن طول عمرهم.. وبالتالي لم
ير الأخوة بعضهم بعضاً ولا يعرفون بعضهم بعضاً لأنهم لم يلتقوا طول عمرهم.. وبعد
أن يتم زواج أبيهم للمرة الرابعة سوف ينتظرون - قطعاً - مجموعة ثالثة من الإخوة
والأخوات!!..

صورة أخرى مختلفة تماماً عن الصورة السابقة: «صالح أحمد عبد الله مفلحى»
هاجر إلى بريطانيا عام ١٩٥٣ وعمل فى أحد مصانع برمنجهام، وتزوج بعدها
بسبع سنوات من الإنجليزية «كارو» - اسمها الآن «صباح» - التى كانت تعمل فى

إحدى الصيدليات، وأنجبا ٤ أبناء: فتاتين كبيرتين الآن، ثم جاء بعدهما «راجح» و «أمينة».. بعد عدة سنوات من زواج «صالح» و «كارو» اشتكت له زوجته من أن صاحب الصيدلية التي تعمل بها يطاردها ويضايقها بإلحاحه.. فقرر «صالح» أن يأخذ أسرته كلها ويعود إلى الوطن الذي كان فى ذلك الوقت قد قضى بعيداً عنه ١٤ عاماً.. وفعلًا عاد إلى اليمن - الجنوبية - وأخذ معه زوجته الإنجليزية وأولاده الثلاث - لم تكن «أمينة» قد وصلت بعد، وصلت فى اليمن - الذين لا يتكلمون اللغة العربية.. وسعدت «كارو» جداً بالحياة فى اليمن، ووجدت بسهولة جداً عملاً كممرضة ومولدة فى أكبر وأهم مستشفيات عدن.. «كارو» وجدت عملاً بسهولة فى وطن «صالح»؛ لكن «صالح» نفسه ظل طوال السنتين اللتين قضاها فى وطنه اليمن دون أن يستطيع أن يجد لنفسه عملاً!!.. ولم يستطع أن يهضم فكرة أن تعمل زوجته ولا يعمل هو؛ فقرر أن يعود إلى بريطانيا مرة أخرى.. وعاد هو وزوجته فقط وتركوا الأولاد وراءهما فى اليمن.. وفى برمنجهام وجد «صالح» عملاً على الفور واشتغل.. لكنه أصر على أن تبقى «كارو» فى البيت ولا تعمل حتى لا تتعرض لمضايقات أخرى، وهى - كما رأيتهما - سيدة جميلة فعلاً ومعدورين الذين يجرون وراءها ويطاردونها.. لكن لكى يرضيها «صالح» بعد أن تعودت طول عمرها على أن تعمل؛ اشترى لها محل بقالة لكى تقف هى فيه وتديره بنفسها وتعمل لحساب نفسها بدلاً من أن تعمل لحساب الآخرين.. وظل هو حتى الآن يعمل فى مصنع للحديد والصلب حتى وصل مرتبه إلى ٨٠ جنيهًا أسبوعياً..

مرة أخرى يطل الرجل الشرقى فى داخل «صالح»؛ فيقرر أن يترك ابنتيه اللتين كبرتتا وأصبحتا فى سن الزواج؛ يقرر أن يتركهما فى اليمن لكى تشبا هناك وتزوجا هناك من يمنيين كأبيهما، لأنه سوف يعود هو الآخر إلى الوطن عاجلاً أو آجلاً.. و(آجلاً) هذه فى تقديره لن تزيد عن سنتين أو ثلاثة أخرى من الآن..

فى الحقيقة؛ وجدت فى الزوجين «صالح» و «كارو»، أو «صالح» و «صباح»؛ نموذجاً لأسرة سعيدة موقفة متفاهمة على رغم اختلاف جنسية الزوجين: العربى

والإنجليزية، مما جعلنى أتمنى لو أرى هذه الصورة فى كل البيوت التى تجمع بين زوجين من جنسية واحدة!!..

فى برمنجهام مسجد وزاوية علوية إسلامية.. سمعت كلاماً كثيراً من المهاجرين اليمنيين الذين قابلتهم عن تبرعات تجمع لصالح المسجد والزاوية لكنها لا تنفق فيما جمعت من أجله، وأغلبها يختفى ولا يظهر له أثر، و.... كلام كثير أثار فضولى كصحفى؛ فقررت أن أزور هذه الزاوية..

ذهبت إلى الزاوية وقابلت الشيخ «محمد قاسم».. وهو شيخ الزاوية العلوية الإسلامية فى برمنجهام، وأيضاً شيخ مسجد نور الإسلام فى مدينة [كارديف].. الشيخ «قاسم» كان يعمل بحاراً على السفن البريطانية وقضى فى بريطانيا ٥٠ عاماً، ثم تصوف وأصبح شيخ الزاوية والمسجد..

وقابلت أيضاً «سعيد عبد الله عبدى»، وهو مسلم صومالى الأصل ويعمل - كما قال لى هو - فى وظيفة (ضابط اجتماعى) (!!).. فلما سألته عن معنى (ضابط اجتماعى) قال لى أنه مسئول عن الشؤون الاجتماعية للزاوية العلوية الإسلامية فى برمنجهام.. لم يطل بقاؤنا كثيراً فى الزاوية؛ فقد طردنا منها فضيلة الشيخ الضابط الاجتماعى بمجرد أن سألته - ببراءة تماماً والله العظيم - عن الجهة التى تنفق على المسجد والزاوية وتدفع لهم مرتباتهم!!.. طردنا بعنف وقسوة وقظاظه تتعارض تماماً مع الإسلام كدين سماحة وحب ورحابة صدر و (جادلوهم بالتي هى أحسن).. فلا أتصور أبداً أن يطرد شيخ من المسجد عبداً مسلماً من عباد الله المسلمين، لأن هذا المسجد هو بيت الله وليس بيت فضيلة الشيخ الضابط.. ووالله حتى لو كنا فى بيت الشيخ لما كان من اللائق أن يطردنا منه، خصوصاً بعد أن رحب بالتصوير وفرح به وعمل (بوظات) أمام المصورة الصحفية التى كانت معى لكى تلتقط له عدة صور فى أوضاع مختلفة.. لكن؛ وإسلاماه!!..

طلبت أن ألتقى بنماذج من الجيل الجديد من المهاجرين؛ فأخذوني إلى كلية [براس هاوس سنتر Brasshouse Centre] لى ألتقى ببعض الشباب العرب الذين يدرسون فيها اللغة الإنجليزية تمهيداً للالتحاق بالجامعة فى برمنجهام فى العام الدراسى القادم.. كلية [براس هاوس سنتر] لا علاقة لها بمعدن النحاس الأصفر كما قد يفهم من اسمها؛ لكنها كلية متخصصة فى تعليم اللغة الإنجليزية للأجانب الذين ليست اللغة الإنجليزية لغتهم الأصلية.. وهى تضم طلاباً من ٣٠ جنسية منها - فى الوقت الحالى - ٣ جنسيات عربية.. مدة الدراسة ٤ دورات فى السنة، كل دورة مدتها ١٠ أسابيع.. ورسوم الدراسة فيها أرخص من ثمن تذكرة الأوتوبيس إلى الكلية ذهاباً وعودة.. فإذا كنت سوف تدرس ٤ أيام فى الأسبوع فإنك سوف تدفع ٣٩ جنيهات فقط طوال الدورة.. أما إذا درست مرتين فقط كل أسبوع فإن المصروفات تصبح ١٣ جنيهات فقط فى الدورة.. ولو كنت أباً أو أمّاً وأردت أن تترك طفلك فى الحضانة الملحقّة بهذه الكلية حتى تنتهى من حصتك؛ يأكل ويشرب ويلعب ويتدلع؛ فإنك سوف تدفع عنه فى الدورة الكاملة لمدة ١٠ أسابيع رسوماً قدرها: ٦٠ بنساً فقط لا غير!!.. يعنى ٦ بنسات فقط فى الأسبوع.. يابلش..

وهذه هى الرسوم التى يدفعها الطلبة الأجانب، ونحن العرب طبعاً من بين هؤلاء «الأجانب»؛ أما الطلبة الإنجليز، والحاصلون على الجنسية الإنجليزية، فلهم رسوم أخرى أقل من ذلك كثيراً، قد تصل إلى ثلث الرسوم المطلوبة من الأجانب!!..

فى كلية [براس هاوس سنتر] التقيت بثلاثة من الطلبة العرب يدرسون اللغة الإنجليزية تمهيداً للالتحاق بالجامعات فى برمنجهام - أو فى أى جامعة أخرى من جامعات بريطانيا ٣٨ - اثنان منهم من اليمن، والثالث من مصر..



حين جاءت الأسرة اليمنية بأكملها من صنعاء إلى إنجلترا لتلحق بالأب الذى سبقها فى المجرى؛ استقرت فى البداية فى مدينة [برايتون] الساحلية التى تعادل

مدينة الإسكندرية عندنا فى مصر والتى تعتبر المصيف الأول والأشهر فى بريطانيا.. لكن الأسرة فضلت بعد فترة أن تنتقل إلى مدينة برمنجهام التى توجد بها جالية يمنية كبيرة العدد - ٣٠ ألفاً - لكى تستشعر الأسرة بوجودها بين أبناء وطنها أولاً؛ ولأن المعيشة فى برمنجهام أرخص كثيراً من برايتون التى تعتبر المصيف الإنجليزى رقم ١ كما ذكرت..

«آمال مالك» الابنة الكبرى فى هذه الأسرة ١٨ سنة، بعدها «فهد» ١٦ سنة، ثم «أشواق» ١٢ سنة.. «فهد» و «أشواق» التحقا بالمدارس الإنجليزية لأنهما لا زالا فى مرحلتى الدراسة الثانوية والإعدادية.. لكن المشكلة كانت فى «آمال» التى فى البداية لم تكن تريد المجئ مع الأسرة إلى إنجلترا، لكنها حين أنهت دراستها الثانوية فى صنعاء ولم تستطع أن تلتحق بالجامعة هناك لضعف المجموع الذى حصلت عليه؛ رحبت بأن تجئ مع الأسرة إلى إنجلترا على أمل أن يكون الالتحاق بالجامعة هنا أسهل من اليمن.. لكنها بعد مجيئها إلى إنجلترا وجدت أنها لن تستطيع أن تلتحق بالجامعة هنا فى برمنجهام إلا بعد أن تدرس اللغة الإنجليزية لمدة سنة حتى تحصل على شهادة تؤهلها للالتحاق بالجامعة لدراسة المحاسبة والاقتصاد..

على رغم مضى سنة من الغربة فى إنجلترا لم تستشعر «آمال» بعد الحنين إلى الوطن فى اليمن.. يمكن لأن الأسرة كلها مجتمعة هنا؛ ويمكن لأن الجالية اليمنية المحيطة بهم هنا تعتبر وطناً مصغراً.. لكن «آمال» من الآن تتصور أنها لو استمرت عدة سنوات أخرى فى إنجلترا حتى تنتهى من دراستها فى الجامعة هنا فقد تفضل أن تكمل باقى حياتها هنا فى المهجر الإنجليزى.. لأن بعد سنوات من الحياة فى أوروبا فغالباً سوف تجد صعوبة فى أن تستطيع أن تتواءم مرة أخرى مع شكل الحياة فى الوطن العربى.. ثم تضيف «آمال» بصراحة أكثر أنها إذا أتاحت لها فرصة عمل مناسبة بعد أن تنتهى من دراستها فى الجامعة فغالباً سوف تفضل البقاء فى إنجلترا.. لكنها؛ على أى الحالات؛ وحتى لو عاشت هنا ١٠٠ سنة

أخرى؛ فلن تتزوج إلا من شاب يمنى مثلها؛ أو على الأقل من شاب عربى.. فعلى المرشحين أن يستعدوا ويتقدموا من الآن!!..

أكثر ما لفت نظر الطالبة اليمنية «آمال مالك» هنا فى إنجلترا هو الحرية التى يتمتع بها الطلبة فى مناقشة المدرسين والمدرسات، بعكس عندنا فى الوطن العربى.. عندنا المدرس يقول والطلبة تسمع وهى ساكتة لا تناقش ولا تبدى رأياً فى أى شىء، لذا فإن التعليم عندنا دائرة مغلقة: المعلومات التى عند المدرس تنتقل إلى ذهن التلميذ كما هى تماماً، من جيل إلى جيل إلى جيل، دون أى تفتح أو توسع أو إضافة..

الطالب المصرى «أحمد محمود سيد عبد العال» له اسم شهرة هو «أحمد الطليانى».. ذلك لأن جد «أحمد» تزوج من إيطالية فاشتهر باسم «الطليانى»، ومنه انتقل اللقب إلى أولاده ثم أحفاده فأصبحوا كلهم «طليانى».. «أحمد» من حى العطارين بالإسكندرية.. بعد أن تخرج قرر أن يترك مصر إلى أى بلد أوروبى لكى يستزيد من الخبرة بالحياة وهو شاب ثم يعود ليستقر فى مصر.. وكانت أقرب دولة أوروبية إلى ذهنه هى اليونان، ف قضى فى اليونان ٤ سنوات يعمل - كما هو الحال مع آلاف الشبان المصريين هناك - فى الفنادق كجرسون أو (بارمان).. واستراح إلى الحياة فى اليونان حتى إنه تزوج من يونانية فى العام الماضى.. وكان الزواج هو الذى جعله يعود ليفكر فى مستقبله وماذا سوف يفعل بعد ذلك: هل سيظل جرسوناً طول عمره؟!.. لذا قرر أن يجرى إلى إنجلترا لكى يلتحق بإحدى الجامعات الإنجليزية للحصول على شهادة فى إدارة الأعمال يعود بها إلى مصر، وعلى الأقل يبقى (رجع وفى إيده شهادة) تبرر غربته عن مصر كل هذه السنوات.. لكنه حين تقدم للالتحاق بالجامعة فى برمنجهام فوجئ بما يقابله به أى طالب لغته الأصلية ليست الإنجليزية؛ بأن عليه أن يدرس اللغة الإنجليزية أولاً فى دراسة خاصة لمدة سنة يحصل بعدها على شهادة تؤهله للقبول فى الجامعة.. وها هو ذا الآن فى كلية [براس هاوس سنتن] يحاول الحصول على هذه الشهادة..

أكثر ما يزعج «أحمد الطلياني» هنا هو الجو الإنجليزي البارد جداً المثلج الذي لم يعود عليه في اليونان التي يشبه جوها كثيراً الجو في مصر.. وهو يتصور أن الإنجليز ليسوا عشرين بسبب رداءة الطقس عندهم الذي يحبس الإنجليز داخل بيوتهم إلى جوار المدفأة أغلب العام بسبب البرد الشديد.. «أحمد» يعيش هنا في برمنجهام مع أسرة إنجليزية كان قد تعرف إليها حين كانت تقضي أجازة في اليونان.. هذه الأسرة تعيش في بيتها هذا منذ ١٠ سنوات دون أن تعرف جيرانها في البيت الملاصق لهم مباشرة.. وكان الشاب المصري «أحمد» هو الذي عرّف الأسرتين الإنجليزيتين ببعضهما خلال الشهور الأربعة فقط التي قضاها في برمنجهام حتى الآن !! ..

* * *

رقم ٣ في الطلبة العرب الذين التقيت بهم في كلية [يراس هاوس سنتر] هو الشاب اليمني «أنور أحمد محمد عبد الله الجميل» - «الجميل» هنا ليست صفة لـ «أنور» نفسه لكنها اسم عائلته !! - «أنور» عمره ٢٣ سنة ومن قبيلة (آنس) في قطاع (ذمار) الذي يبعد ٢٠٠ كيلومتر عن العاصمة صنعاء..

«أنور» حدوده ظريفة جداً.. نموذج للشباب العربي شديد الطيبة إلى حد السذاجة الذي يصدق أي كلام يقال له.. حصل على الشهادة الإعدادية من اليمن، ثم لم تمكنه ظروفه العائلية في أن يستمر في الدراسة أكثر من ذلك، فتعلم قيادة السيارات وقيادة المحراث ثم سافر إلى السعودية ليعمل في أحد المستشفيات هناك في وظيفة تجمع بين الحارس الليلي وسائق سيارة الإسعاف.. ثم جاءته الفرصة ليسافر إلى إيطاليا مرافقاً لمريض ذهب إلى هناك في رحلة علاج.. بعد شهر من وصول «أنور» إلى إيطاليا تعرف إلى مجموعة من الشبان العرب استطاعوا إقناعه بأن الشهادة الإعدادية قيمتها كبيرة جداً في بريطانيا؛ وأنه مادام يحمل الشهادة الإعدادية التي تفتح كل الأبواب فلماذا لا يذهب لدراسة الكمبيوتر والحصول على (درجة علمية) فيه من إنجلترا (!!).. وأقنعوه أيضاً بأن الجالية العربية في

بريطانيا سوف ترحب به وتنفق على دراسته للكمبيوتر (!!) وصدق «أنور» كل هذا الكلام القاضى وجاء إلى إنجلترا وإلى برمنجهام على الفور.. لكنه فوجئ هنا بأن الدراسة فى إنجلترا باللغة الإنجليزية ولم يكن أحد قد أخبره بذلك (!!). وفوجئ أيضاً بأن دراسة الكمبيوتر لا تبدأ بالشهادة الإعدادية!!.. وفوجئ بأن الجالية العربية هنا فى بريطانيا لا يعرف أحد عنوانها ولا مقرها بالضبط لكى يذهب إليها «أنور» ويطلب منها أن تدفع عنه نفقات دراسته للكمبيوتر كما قالوا له فى إيطاليا.. يعنى باختصار فوجئ «أنور» بأن الأعمال ليست بالنيات ولم يكن أحد قد نبهه إلى ذلك من قبل!..

وذهب «أنور» يطرق أبواب السفارات العربية فى لندن واحدة بعد أخرى؛ لكنهم لم يبد عليهم الاقتناع بمسألة دراسته للكمبيوتر، وطلبوا منه - حتى فى سفارة وطنه اليمن - أن يعود إلى اليمن فوراً لأن البعثات والدراسة هنا لها نظم وقواعد وليست مسائل (سهلة)، وأنه لا يكفى أن يقرر «أنور» أن يدرس الكمبيوتر لكى يهبط على إنجلترا فجأة كطرزان ويذهب إلى السفارات العربية ليقول لهم: «أنا جيت آهه، ياللا اصرفوا علىّ بأه»..

يحكى لى «أنور» كل هذه الحدوتة وهو مندهش جداً من موقف السفارات العربية من الشبان العرب الطموحين أمثاله الذين يريدون أن يدرسوا فى أوروبا فتغلق السفارات العربية أبوابها فى وجه طموحهم وترفض الإنفاق عليهم.. ويضيف أنه يبدو أن كل شىء عربى لا بد وأن يحتاج إلى الـ (واو).. فلما سألته مندهشاً: «يعنى إيه (واو) يا أنور؟! قال: «يعنى الواسطة»!!.. وحتى حين حاول أن يجد لنفسه عملاً هنا فوجئ - وهو يقاجاً كثيراً ويندهش كثيراً - فوجئ بأن أصحاب المطاعم الإنجليز يرفضون إعطاءه عملاً.. فلم يخبر أحد «أنور» - على رغم أنه موجود فى إنجلترا منذ سنة كاملة الآن - بأن إنجلترا فيها الآن ٣٥ ملايين عاطل «إنجليزى» يتمنون العمل الذى ذهب «أنور» ببساطة ليحصل عليه؛ واندesh وفوجئ حين لم يلبوا طلبه!!..

كل العرب فى ليفربول..

- ★ ما الذى قالته فتاة الميراج. الإسرائيلية للطلبة العرب؟!..
- ★ أرض بلا شعب لشعب بلا أرض!!..
- ★ الكافيتيريا تتحول إلى منتدى سياسى..
- ★ إسرائيل: دولة قامت بسبب أكذوبة!!..
- ★ سحر... التى تخفى محطة إذاعة ليفربول فى جيبها!!..
- ★ أخيراً وجدوا الحل: كيف يتوحد العرب!!..

على امتداد أسبوع كامل كان هناك مهرجان عربي في مدينة ليفربول؛ واحدة من أكبر وأهم المدن الإنجليزية في بريطانيا، وبها أيضاً واحدة من أكبر وأشهر الجامعات في إنجلترا.. دعيت لحضور هذا المهرجان، وكانت هذه هي أولى زياراتي إلى ليفربول، التي أصبحت بعد ذلك أكثر مدينة زرتها في إنجلترا، حتى إنني زرتها أكثر من ٦٠ مرة في خلال الـ ٣٠ سنة التي قضيتها في بريطانيا حتى الآن.

* * *

المهرجان العربي كان أسبوعاً فنياً وثقافياً أقامته جمعية الطلبة العرب في ليفربول، التي تضم كل الطلاب من كل الجنسيات العربية في جامعة ليفربول.. تضمن برنامج هذا المهرجان معرضاً فنياً، وسلسلة من المحاضرات والندوات عن مشاكل الوطن العربي ككل والمشكلة الفلسطينية على وجه الخصوص، كما تضمن أيضاً عروضاً سينمائية وحفلات وليالي فنية عربية..

المعرض الفني اشتركت في تقديم عروضاته (بعض) السفارات العربية في بريطانيا، كما ساهم فيه أيضاً عدد كبير من الطالبات والطلبة العرب بتقديم كل ما عندهم شخصياً من أشياء تصلح للعرض، سواء كان ذلك لوحات فنية أم حلياً أو إكسسوارات وأدوات زينة ومنتجات من الفولكلور القومي لكل دولة عربية.. وكان ذكاء اختيار مكان المعرض في المهرجان هو أول خطوة أدت إلى نجاح هذا الأسبوع العربي نجاحاً كبيراً.. فقد اختارت الجمعية العربية أن تقيم مهرجانها في مبنى اتحاد طلاب جامعة ليفربول، فأقامت الجزء الخاص بفلسطين في مدخل مبنى الاتحاد مباشرة، بحيث يكون اسم (فلسطين) هو أول ما يصادف أى داخل إلى مبنى الاتحاد ويواجهه مباشرة.. كما وضعت فتاة فلسطينية وعدد من

الشبان الفلسطينيين كل منهم يخفى بداخله محطة إذاعة كاملة: «سحر الصالح» الفلسطينية الشابة الجميلة طالبة الهندسة الإلكترونية في جامعة ليفربول، ومعها زملاؤها «وسيم حجيج» و «عماد المختار» و «عدنان الحاج» و «جمال جاسم» كانوا لا يكفون عن الكلام طول اليوم عن فلسطين يشرحون لزملائهم الطلبة الأجانب كل شيء عن المسألة الفلسطينية.. ولعلمهم تكلموا طوال أيام هذا الأسبوع أكثر مما تكلمت إذاعات الدول العربية مجتمعة عن فلسطين على امتداد الثلاثين عاماً الماضية!!..



ثم كان المعرض نفسه الذى احتل الممر الواسع الكبير المؤدى من مدخل مبنى الاتحاد إلى الكافيتيريا الخاصة بالطلاب.. فأى طالب أجنبى داخل إلى مبنى الاتحاد تفرج عنه «سحر الصالح» ومجموعة الشبان الفلسطينيين المتمركزين فى الجزء الخاص بفلسطين فى مدخل الاتحاد؛ يأخذ طريقه بعد ذلك إلى الكافيتيريا؛ لابد وأن يستوقفه ذلك المعرض الفنى المقام فى الممر المؤدى إلى الكافيتيريا.. هذه المرة سوف يتوقف من تلقاء نفسه؛ إذ ستجذبهُ اللوحات الفنية والملصقات السياحية عن كل الدول العربية وقطع السجاد الأصلية الثمينة والمشغولات النحاسية العربية المميزة ومجموعة الحلى والتحف المحلية التى تمثل الفولكلور القومى لكل دولة عربية.. وأيضاً سوف تستوقفهُ المجموعة الهائلة من النشرات والمطبوعات بلغات أجنبية عديدة عن مختلف دول الوطن العربى، تغرى بصورها الفنية وجمال طباعتها على أن يمد يده ليلتقط بعضاً منها يأخذها معه.. وطوال الأيام التى قضيتها أحضر هذا المهرجان العربى لم أجد مكان المعرض إلا مزدحماً فى كل وقت من أوقات اليوم بعشرات الطلبة والطالبات الإنجليز والأجانب فى جامعة ليفربول..



ثم كانت ضربة المعلم الأخيرة فى هذا المهرجان الثقافى الفنى فى ليفربول؛ حين أقيمت سلسلة المحاضرات اليومية فى داخل صالة الكافيتيريا نفسها.. كافيتيريا مبنى اتحاد الطلاب تبدو وكأنها هُيئت خصيصاً لهذا الغرض: مكان متسع كبير

يصلح لإقامة الحفلات، وتقام فيه فعلاً بعض الحفلات، فيه عدد كبير من الدكاترة (دك) الخشبية لكي يجلس عليها الطلاب والطالبات أثناء تناولهم وجباتهم السريعة في الكافيتيريا.. الجمعية العربية في جامعة ليفربول التي تقيم الأسبوع العربي أعادت تنسيق و(ر) هذه الدك الخشبية بحيث تحولت الكافيتيريا إلى قاعة محاضرات فعلاً.. ويدخل الطلبة والطالبات الأجانب إلى الكافيتيريا في أي وقت ليتناولوا طعامهم أو ساندوتشاتهم أو مشروباتهم أهلاً وسهلاً؛ وهم يستمعون في الوقت نفسه إلى المحاضرات التي كانت تقدم يومياً في الساعة الواحدة بعد الظهر: الموعد الذي تكون فيه فترة الراحة بين المحاضرات الصباحية والمحاضرات المسائية.. موعد إستراتيجي تكتيكي تماماً لمحاضرة تلقى فتجد جمهوراً كبيراً من المستمعين الطلبة والطالبات الأجانب في فترة راحتهم بين المحاضرات، وغالباً ما يتحولون من مجرد مستمعين يأكلون ويشربون على صوت المحاضر إلى مناقشين مجادلين مشاركين ومنغمسين حتى آذانهم مع المحاضرة والمحاضر..

اشترك في سلسلة المحاضرات التي أقيمت عدد من المحاضرين الأجانب، طلاباً وأساتذة في جامعة ليفربول، وعدد من الكتاب العرب الذين يعيشون في بريطانيا في الوقت الحالي: الكاتب العراقي «خالد قشطيني» ألقى محاضرة أعقبتها ندوة حول آخر التطورات السياسية في الساحة العربية.. «عبد الزهرة الهاشمي» نائب رئيس الاتحاد العام للطلبة العرب في بريطانيا ألقى محاضرة وأدار ندوة سياسية عن دور العرب في العالم الثالث.. «ريتشارد بوردين» عضو المنظمة البريطانية المعادية للصهيونية [البازو] ألقى محاضرة موضوعها (لماذا يجب علينا أن نساند وندعم الفلسطينيين).. الإسرائيلية الشابة «إلفي بالاس» عضو الـ Middle East Research And Action Group ألقى محاضرة فندت فيها أكذوبة إسرائيل الكبرى التي اتخذتها ذريعة لقيامها على أرض فلسطين بالذات.. الأكذوبة التي تقول إن فلسطين كانت صحراء مهجورة لا يعيش فيها شعب، في الوقت الذي كان فيه يهود العالم مشردين مبعثرين في أنحاء العالم

لا يضمهم وطن ولا تجمعهم أرض، لذا كانت حجة إسرائيل هي (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض)!! وعرضت «إلفى بالاس» بعد المحاضرة فيلماً بعنوان [لكي نعيش أحراراً] يحكى مأساة الفلسطينيين والشعب الفلسطيني منذ بداية تفكير «تيودور هرتزل» فى الصهيونية وفى إنشاء دولة باسم [إسرائيل] تجمع شتات يهود العالم، وكان ذلك على حساب وطن آخر وشعب آخر تشرد وتحول إلى شتات!!..

وكان المفروض أن يعرض فى آخر يوم من أيام الأسبوع العربى فيلم [الفلسطينى] الذى أنتجته وقدمته الممثلة الإنجليزية الشهيرة «فانيسا ريدجريف» فسبب لها كل المتاعب التى لاقتها فى الفترة الأخيرة من عدا و محاربة الصهيونية العالمية فى كل مكان.. لكن الذى حدث أنه بعد الإعلان فعلاً عن عرض الفيلم وتحديد موعد لعرضه أن احتجت دور السينما فى مدينة ليفربول على اعتبار أن الفيلم نفسه فى طريقه إلى العرض فى دور السينما فى المدينة، وأن عرضه فى الجامعة سوف يؤثر قطعاً على إيراداته حين يعرض فى دور السينما بالمدينة.. وإن كانت نفس الدور لم تمنع فى عرض نفس الفيلم فى نفس الجامعة أيضاً، لكن بعد انتهاء الأسبوع العربى!!..

* * *

وقد افتتح الأسبوع الثقافى والفنى العربى بحفل عشاء ظريف حفلت موائده بالأطعمة العربية المميزة التى ذُكرت كل طالب عربى بوطنه حيثما جاء؛ ابتداءً من الطعمية والقلافل وورق العنب المصرية، إلى التبولة والكبة اللبنانية، إلى البقلاوة والبغاشة ولقمة القاضى السورية، إلى الـ(كسكس) الجزائرية المغربية.. وكان وراء هذا العشاء الحافل الجهد الكبير الذى بذلته الشابة اللبنانية الحسنة «رجاء حجيج»، حتى خرج العشاء العربى بهذه الصورة المشرفة فعلاً، الشهية فعلاً، المشبعة فعلاً.. وكان ضيوف الشرف فى هذا العشاء هم الأساتذة الإنجليز فى جامعة ليفربول مع زوجاتهم وأولادهم وبناتهم..

وكان ختام الأسبوع ليلتين فئيتين ، واحدة منهما عربية عامة ، والثانية فلسطينية خالصة .. قدمت فيهما ألوان من الغناء والرقص الشعبي من ألوان الفولكلور القومي لكل دولة عربية ، واشترك في إحيائها الفنان السوري الطبيب خريج جامعة ليفربول الدكتور «حسن المعصراني» ، والمطرب السوري أيضاً «فوزى بكر» ، والملحن وعازف العود العراقي الفنان «ألفريد جورج» ..

ملاحظتان ، سلبيتان للأسف ، شابتا هذا الأسبوع العربي الممتاز .. وإن كانت هاتان الملاحظتان لم يشعر بهما الطلبة والضيوف الأجانب ، إلا إن الذى شعر بهما وأحس بمرارتهم وألمهما كانت اللجنة المنظمة للأسبوع من ناحية ، وغالبية الطلاب العرب من ناحية أخرى ! ..

الملاحظة الأولى أن (بعض) السفارات العربية ومكاتب الإعلام العربية تقاعست فى تقديم إمكانياتها (الأدبية) ، الأدبية وليست المادية ، للمساهمة فى إنجاح هذا الأسبوع العربى ، حتى إنه لم يعرض فيلم عربى واحد على امتداد أيام الأسبوع كله .. وكانت الحجة التى تغيظ وتفقح وتفرس التى سمعتها اللجنة المنظمة من مسئول الإعلام فى إحدى السفارات العربية الكبرى (!!) فى لندن هى أن هذه الأفلام (عهدة) ولا يستطيع إخراجها من المخزن لكى تعرض فى أى مكان غير السفارة ! .. تصوروا مدى مفهومية هذا المسئول «الإعلامى» العربى أن هذه الأفلام قد جاءت من القاهرة - مثلاً يعنى (!!) - لكى تدخل مخزن السفارة ولا تخرج منه لأنها (عهدة) ، وعلى الذى يريد مشاهدة هذه الأفلام أن يتفضل بمشاهدتها فى مخزن السفارة فى مواعيد العمل الرسمية من ٨ ل ٢ !! ..

ثم نتساءل عن «دور الإعلام العربى فى أوروبا» ؟ .. ونتساءل أيضاً عن المسئول فى الوطن الذى أرسل هذا الإعلامى المخزنجى لكى يكون صورة وصوت وطنه فى أوروبا أو فى أى مكان فى العالم ! ..

الملاحظة السلبية الثانية هي أن (بعض) الطلبة العرب الذين اشتركوا في الندوات التي أجريت بعد المحاضرات كانوا، للأسف الشديد، دون المستوى الذي يسمح لهم بالكلام.. وهناك مثل شعبي عربي يقول (تعرف الهايف بإيه؟!.. ييجي فى الهايفة ويتصد!).. وكان ذلك هو ما حدث تماماً من (بعض) الطلبة العرب الذين تركوا كل ماتغلى به الساحة العربية الآن من مشاكل ومتاعب وخلافات وموضوعات تستحق المناقشة فعلاً؛ لكي يفتنوا ويخطبوا ويزعقوا بعلو حسهم: أن الوحدة العربية لن تتم بين العرب بينما اختلاف الأسماء والتسميات موجود وقائم!.. وفى تقديرهم أن اختلاف أسماء العملات بين دينار وجنيه وروبية ومليم وقلس وقرش وليرة وريال؛ هو سبب تفكك الصف العربى (!!). فى تصورهم أن اختلاف أسماء الرتب العسكرية بين عميد وعماد وعقيد وقائمقام ومقدم وبكباشى وصاغ ورائد؛ هو سبب الصراعات العربية (!!). فى مفهومهم أن سبب انحدار وهبوط مستوى الإعلام العربى هو اختلاف التسميات فى الوطن العربى بين التليفزيون والتلفاز والإذاعة المرئية والبيث المصور (!!). وفى مدى تفكيرهم أن العرب كانوا شعباً له تاريخ وله ماضٍ ثم لم يعد له حاضر ولا مستقبل لمجرد اختلاف أسماء الشهور بين بلد عربى وآخر؛ بين أبريل ونيسان ويوليو وسبتمبر وأيلول ومارس وآذار.. وهكذا كان عند هؤلاء المفكرين المنظرين العباقرة الحل: أيها العرب أبشروا فإن مشاكلكم كلها سوف تحل بإذن الله لو اتفقت على توحيد أسماء الشهور وأسماء العملات وأسماء الرتب العسكرية وأسماء الإذاعات البثية المرئية التلفازية التليفزيونية الصورة!..

* * *

حين ذهبت إلى ليفربول لأحضر الأسبوع العربى هناك؛ لم يكن يخطر على بالى على الإطلاق أننى سوف ألتقى هناك بمفاجأة.. وحين قدموه لى على أنه: الدكتور طبيب «حسن المعصرانى» توقعت أن نتكلم فى أى شىء: طب، سياسة، أدب، تاريخ، جغرافيا.. أى شىء إلا أن يرفع عقيرته فجأة وينطلق صوته ليغنى؛ لأكتشف أننى فعلاً أمام: «أبو كلثوم»!..

أن تذهب لتزور طبيباً فى بيته؛ خصوصاً طبيباً تخرج فى جامعات إنجلترا ويعمل ويعيش فيها منذ أواخر الخمسينيات - نصف قرن الآن - منذ كان تلميذاً فى المدرسة الثانوية؛ فإنك تتوقع أن تجد جدران بيته مزينة بالجماجم أو الهياكل العظمية، وربما بعض الجثث، أو أشياء من هذا القبيل التى تشير إلى «أمجاده» فى عالم الطب.. وأضعف الإيمان أن تجد جدران بيته مكتبة من الأرض إلى السقف مليئة بالكتب والمراجع والقواميس الطبية والعلمية.. لكن أن تجد بدلاً من هذه المكتبة العلمية مكتبة اسطوانات عربية كلها لفنانين ومطربين عرب.. أن تجد ١٠٠ اسطوانة لأم كلثوم و ١٠٠ اسطوانة لعبد الوهاب ومثلها لفريد الأطرش وأسمهان وفيروز ووديع الصافى وغيرهم؛ وولا كتاب طبى واحد؛ فإن ذلك هو الغريب فعلاً..

وقبل أن أبدى ملاحظتى هذه للدكتور «حسن المصرانى»؛ وضع شريطاً فى جهاز التسجيل وأداره؛ فأتانى صوت «أم كلثوم» مجلجلاً يشدو بأغنية (من أجل عينيك عشقت الهوى).. وأطربنى صوت «أم كلثوم» كما يطربنى دائماً، وإن كنت قد لاحظت أن لهجة «أم كلثوم» وهى تغنى هذه الأغنية الآن وكأن بها (لكنة) عربية خفيفة لا تلاحظها إلا الأذن السميعة.. وسألنى الدكتور «المصرانى»:

— هل عرفت من الذى يغنى!؟..

قلت على الفور:

● أم كلثوم طبعاً..

قال: لا..

● قلت: إذن هى مطربة عربية تقلد أم كلثوم، كما تفعل سعاد محمد أحياناً ونجاح سلام أحياناً وياسمين الخيام أحياناً.. ولعل هذا هو سبب اللكنة الشامية الخفيفة إلى حد ما فى هذا التسجيل..

قال:

— أبداً..

● من الذى يغنى إذن؟! ..

وفوجئت بالرد:

- أنا.. ..

● أنت شخصياً؟! ..

- أنا شخصياً.. ..

● لكن الصوت الذى يغنى صوت نسائي ، وهو مطابق تماماً لصوت أم كلثوم..

- هكذا صوتى عندما أغنى.. ..

* * *

الدكتور «حسن المعصراني» طبيب سورى من حلب ، جاء من سوريا إلى ليفربول وهو فى السادسة عشرة من عمره ليدرس الطب فى جامعتها ، ثم استقر فى المدينة الإنجليزية الشهيرة بعد تخرجه وعاش هنا واحداً من أشهر أطبائها منذ أواسط الستينات حتى الآن ، وتزوج من ممرضته الأيرلندية الطريفة «آنا».. ومنذ بداية تلمذته فى ليفربول وحتى الآن لم ينقطع مرة واحدة عن الغناء فى الحفلات والليالى العربية التى تقام فى الجامعة أكثر من مرة فى كل عام.. ودائماً يغنى أغنيات أم كلثوم ، وأم كلثوم وحدها فقط لا غير.. الغريب أن صوته يكاد يكون مطابقاً تماماً لصوت أم كلثوم حتى إنه من الصعب التفرقة بينهما للأذن العادية أو المستمع غير الخبير.. صوت حلو حقيقة منطلق فعلاً ومن نفس طبقات صوت أم كلثوم ونفس معدنه ، بالرغم من أنه هو رجل وهى امرأة..

● أليست مسألة مستغربة إلى حد ما أن تغنى أغنيات أم كلثوم وأنت رجل!؟

- ولماذا الاستغراب؟! .. طبيعى جداً أن تغنى كل الناس أغنيات أم كلثوم..

ألا تدندن بها أنت نفسك أحياناً؟! ..

● أنا أدندن بها فى الحمام لكنك أنت تغنيها لجمهور مستمعين فى حفلات

الجامعة ، وهى حفلات عامة.. هذه الإجابة وهذا الإلتقان وهذا التوافق بين صوتك وصوت أم كلثوم الذى يقترب بك من المحترفين..

– أم كلثوم لا تغنى لها النساء فقط، لكن الرجال أيضاً.. والشباب يستمتعون بأغاني أم كلثوم..

● يستمتعون حاجة وأن يقلدوها بهذا الإتقان حاجة ثانية.. خصوصاً الطبقة التى تقارب طبقة صوت أم كلثوم إلى هذا الحد.. المفاجأة الثانية بالنسبة لى أنك طبيب.. – هذا صحيح.. لكن إذا كان الطب هو التعامل مع أوجاع الناس الصحية؛ فالغناء – والفنون عموماً – هو التعامل مع الناس أيضاً لكن من ناحية مشاعرهم وأحاسيسهم وأذواقهم المرفهة.. الطب «علاقة علمية» بين الطبيب والناس، أما الفن فهو «علاقة وجدانية» وعلاقة مشاعر وأحاسيس بين الفنان والجمهور..

● كيف بدأت معك حكاية تقليد أم كلثوم؟!..

– فقط أريد أن أصحح شيئاً صغيراً.. أنا لا أقلد أم كلثوم لكنى أغنى، فقط، أغانيها.. أغنيها بأسلوبى أنا وبطريقتى أنا..

● هل معنى ذلك أنك تتصرف فى اللحن أو فى الكلمات أو فى طريقة الأداء؟!.. – لا طبعاً..

● إذن أنت تغنى اللحن كما هو دون تصرف، وتغنى الكلمات كما هى دون تصرف، وتغنى الأداء كما هو دون تصرف.. تبقى بتقلدها!!..

– وأنا صغير كنت أعجب بصوت أم كلثوم، وكان أبى وأمى يحبان الموسيقى جداً ومعجبان أيضاً بصوت أم كلثوم.. وقبل سن زهابى إلى المدرسة وأنا طفل كنت طوال فترة الصباح أستمع إلى والدتى وهى تدندن بأغنيات أم كلثوم فى البيت وتترنم بها طوال اليوم وأنا معها، أحاول أن أقلدها وأفعل مثلما تفعل.. حتى جاء الوقت الذى صرنا فيه أنا وأمى نغنى معاً وأصبحت أمى تطرب لسماعى كما أطرب أنا لسماعها.. ولما كبرت قليلاً أستمع إلى بعض أساتذتى فى حلب واقترحوا على أن أغنى فى الإذاعة السورية، لكن أسرتى عارضت ذلك ومنعتنى من الغناء تماماً.. لكن حين جئت هنا إلى جامعة ليقربول كطالب فى كلية الطب فى أواخر الخمسينات؛ بدأت أغنى من جديد على راحتى بعد أن بعدت عن رقابة الأسرة..

وغنيت في كل حفلات جامعة ليفربول من وقتها حتى الآن، يعنى من أول وأنا طالب صغير وحتى بعد أن أصبحت خريجاً قديماً وبعد أن أصبحت طبيباً منذ منتصف الستينات.. أم كلثوم مطربة غير عادية وصوتها ملائكي وتعبّر عن الكلمات والمعاني بشكل غير عادى، وذلك هو سر عظمتها.. وذلك هو ما أفرانى أكثر بأن أغنى أغانيها هي أكثر من أى مطرب آخر أو مطربة أخرى..

● المفترض أساساً أنه حين يهوى شاب الغناء؛ فإنه يبدأ بتقليد صوت مطرب رجل أو يغنى أغنيات مطرب رجل وليس مطربة سيدة: يقلد عبد الوهاب مثلاً أو عبد الحليم حافظ أو فريد الأطرش، لكن أن يقلد صوت سيدة مطربة بما يحمله طبيعة صوت المرأة من نعمة ورقة وأحياناً دلال ودلع وأنوثة؛ فذلك هو المستغرب والصعب إلى حد ما، بل إلى حد كبير.. أما المستغرب جداً والأصعب كثيراً فهو أن يختار قمة الغناء العربى أم كلثوم ليقلدها، الشئ الذى فشلت فيه مطربات أخرى كبيرات، كثيرات!!..

– لكن، علمياً، حين يقلد شاب صوت مطرب رجل، كعبد الوهاب أو عبد الحليم أو فريد الأطرش مثلاً؛ فإنه يفقد مقومات صوته هو شخصياً.. ونصحنى بعض أساتذتى فى كلية الطب هنا بالأغنى لمطرب رجل حتى لا أفقد شخصية صوتى..

● أيهما بدأ قبل الآخر: حبك للغناء أصلاً، أو حبك لأم كلثوم شخصياً؟!..

– أنا أحب الغناء جداً، وحين أحب أن أغنى فإننى أغنى لأم كلثوم وحدها فقط..

● يعنى كنت ستغنى لأم كلثوم سواء نصحك الأطباء أم لم ينصحوك؟!..

– هذا صحيح.. وعلى رغم مرور كل هذه السنوات على فى إنجلترا الآن؛ إلا إننى لازلت أغنى فى كل حفلات جامعة ليفربول، وقد غنيت فى حفل ختام الأسبوع العربى الذى أقامته الجامعة فى الأسبوع الماضى.. يعنى لازلت أغنى حتى الآن، وأغنى طول الوقت.. وأسعد الأوقات عندى هي التى أستمع فيها إلى الغناء

الجيد، والأسعد منها هي التى أغنى فيها أنا شخصياً، لأننى أجد فى الغناء لذة روحية ونفسية وأستمتع جداً حين أغنى لأننى أحب الغناء جداً..

● مادمت تغنى طول الوقت ومتعلقاً بالغناء كل هذا التعلق؛ فهل من الممكن أن تنقلب معك الهواية إلى احتراف، كما حدث مع الكثيرين من الأطباء قبلك: «مصطفى محمود» مثلاً ترك الطب وقفل عيادته وتفرغ للأدب والكتابة والصحافة والتصوف والتعمق فى أمور الإسلام حتى أصبح من كبار الكتاب الإسلاميين فى الوطن العربى كله؛ الدكتور «يوسف إدريس» فعل نفس الشئ: قفل عيادته وتفرغ للأدب حتى أصبح عميد القصة القصيرة فى الوطن العربى، الدكتور «حسين فوزى» ترك الطب وأصبح رائد أدب الرحلات الحديث وواحد من أكبر كتاب جريدة (الأهرام)، الدكتور «إبراهيم ناجى» شاعر (الأطلال) الشهير كان شاعراً عظيماً وطبيباً (نص نص)، الدكتور «سعيد عبده» صاحب باب (خدعوك فقالوا) فى الصحف المصرية طبيب سابق، الطبيب «فاروق عجرمة» ترك الطب إلى السينما ممثلاً ثم مخرجاً ممتازاً فى السينما العالمية، الطبيب «عبد العظيم عبد الحليم» ترك الطب ليصبح قائداً لفرقة موسيقية تعزف وراء كل المطربين والمطربات الكبار، الطبيب «عزت أبو عوف» طلق الطب بالثلاثة وأصبح مغنياً ثم ممثلاً ثم مقدم برامج تليفزيونية، الطبيب «يحيى الفخرانى» ترك الطب إلى التمثيل وأصبح من أشهر ممثلى مصر.. الدكتور «حسن المصرانى»: هل من المحتمل فى وقت من الأوقات أن تتحول من طبيب إلى مطرب محترف؟! .

- أنا أحب الطب جداً، لكنى أحب الغناء أكثر.. ومع ذلك فأنا لم أفكر فى هذه المسألة من قبل.. والسبب أنه كان على ضغط عائلى حتى لا أغنى قبل حضورى إلى إنجلترا.. وحينما كنت فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري حاول أحد أساتذتى «مجدى العقيلي» وهو معروف كموسيقى وله موشحات كثيرة تذاع من الإذاعة السورية ومن إذاعات القاهرة أيضاً؛ حاول عدة مرات أن يجعلنى أغنى الموشحات التى يؤلفها، لكن أسرتى منعتنى من ذلك حتى لا أنصرف عن

الدراسة.. وإن كان ذلك لم يمننى من الاستمرار فى حب الغناء والتعلق به جداً..
أسعد اللحظات فى حياتى هى حين أغنى، سواء لنفسى أم للناس..
● فإذا طرحت عليك فكرة الاحتراف الآن؟!..

- إذا أتيحت لى الفرصة لأكون مطرباً جيداً فقد أترك الطب تماماً وأتفرغ للغناء،
لأن فى الحقيقة أن حبى للغناء أكثر من حبى للطب.. ولو أتيحت لى الفرصة
لاحتراف الغناء فسوف أفعل..

معلومة عرفتھا بالصدفة عن الدكتور «المصرانى»؛ هو أن صافى دخله السنوى
من عياداته كطبيب معروف فى مدينة ليفربول هو ١٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني،
بمتوسط ٨٣٣٠ جنيه فى الشهر الواحد.. لكى نقدر ما الذى سوف يفقده إذا
احترف الغناء فعلاً؟!..

● دكتور حسن.. هل لديك فعلاً الاستعداد لأن تترك هذا الدخل الكبير لتتحول إلى
مطرب محترف لا أحد يدرى إذا كنت سوف تستطيع أن تحقق نفس هذا الدخل
مرة أخرى نتيجة الغناء؟!..

- حتماً حين يكون الواحد فى مركزى كطبيب لازم يفكر.. لكن تصورى أننى إذا
حدثت وغنيت كمحترف فسوف أتعامل مع أفضل الملحنين وأحسن مؤلفى الأغانى
وأرقى مستوى من الموسيقيين والعازفين، لكى أستطيع أن أحقق النجاح الذى أتمناه
لنفسى منذ البداية.. صحيح أن النجاح يعتمد فى النهاية على مدى تقبل الجمهور
والمستمعين لى، لكنى أيضاً سوف أستعمل عقلى وتفكيرى بصورة صحيحة..

● قطعاً أنت سوف تستعمل عقلك بصورة صحيحة؛ لكن المطربين فى بلادنا يبدؤون
السلم الفنى عادة من أوله ثم يتدرجون بعد ذلك صعوداً حتى يصلوا ل فوق.. و - بينى
وبينك - ١٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني كدخل سنوى، واضرب هذا المبلغ فى ١١
بالعملة المصرية مثلاً؛ صعب جداً تحقيقه من الغناء فى سنة واحدة، خصوصاً فى
سنوات البداية..

- أنا عارف ذلك لكن ربنا يوفقنى للخير.. ثم إننى لم أقرر الاحتراف بعد..

● دكتور حسن المعصراني.. هل غنيت فى الإذاعة من قبل؟!..

- غنيت فى الإذاعة السورية مرات عديدة عندما كنت فى أجازات قضيتها فى حلب.. غنيت من أغنيات أم كلثوم (بعيد عنك حياتى عذاب).. ولم يكن لى حظ الاستماع لهذا اللقاءات عندما أذيعت لأننى كنت قد عدت إلى ليفربول قبل إذاعتها.. وغنيت فى إذاعة الشرق الأوسط فى القاهرة عدة مرات، فكلما كنت فى أجازة فى مصر قدمتنى السيدة «مديحة نجيب» مديرة الإذاعة فى برنامجها الأسبوعى (ألوان).. وهذه الأحاديث أحتفظ بنسخ منها فى مكتبتي بعد أن سجلها لى صديق مصرى وأرسلها لى من القاهرة..

● أنت تعيش فى إنجلترا الآن؛ وفى إنجلترا إذاعة بريطانية شهيرة تذيع باللغة العربية هى إذاعة الـ BBC للبلاد العربية.. هل تعاونت معها أو غنيت فى برامجها؟!..

- لم أغن فى الإذاعة البريطانية.. وذلك لسببين: السبب الأول أننى أخشى أن يستخدموا صوتى بما يسىء إلى الوطن العربى.. وأنت أدري منى بذلك لأنك صحفي وإذاعى وعارف..

● لأ مش عارف.. عرفنى..

- قد يضعون مثلاً أغنية لى ثم يضعون بعدها خبراً أو بعض العبارات التى تسيء إلى الوطن العربى.. وذلك يحدث هنا فعلاً فى الـ BBC..

● حتى لو كان ذلك يحدث فإنه لا يسىء للمطرب؛ لأن المطرب ليس هو الذى يختار أو يحدد وقت إذاعة أغانيه وليس مسئولاً عما يذاع قبلها أو بعدها..

- الإحتياط واجب برضه..

● يعنى.. والسبب الثانى؟!..

- أنهم، أصلاً، لم يطلبوا منى أن أغنى فى الـ BBC!!!..

● زوجتك الأيرلندية.. ما رأيها وهى تسمعك طول اليوم تغنى أغنيات بلغة لا تعرفها هى ولا تفهمها.. هل هى مقدرة قيمة زوجها كفنان صاحب صوت جميل لكنها لا تفهم ما يغنى أو ما يقول؟!..

- هي تقدر حبي وإعجابي بأم كلثوم لأنني أحدثها عنها كثيراً.. وهي تستمع دائماً لأم كلثوم إما من خلال تسجيلاتها التي أديرها دائماً في البيت، وإما من خلال صوتي أنا وأنا أغني في البيت طول اليوم.. وهي تقول، وأنا أصدقها؛ أنها تحب أم كلثوم وصوت أم كلثوم.. وليس عند المرأة الأوروبية ما يجعلها تكذب مجاملة لزوجها أو لأي حد..

● لكن يتبقى السؤال قائماً: هل هي تفهم ماذا تغني؟!..

- لا تفهمه.. لكن صوت أم كلثوم يؤثر في الحجر وفي أي إنسان في الدنيا وليس فقط في أيرلندية أو في الأيرلنديين..

● الذي أريد أن أقوله: كون أنني أسمع كلاماً لا أفهمه، أو كون زوجتك تسمع أغاني لا تفهم ماذا تقول؛ هل ذلك كافٍ لأن يجعلها تحب الصوت في حد ذاته؟!.. الصوت المجرد يعني؟!..

- صوت أم كلثوم ملائكي وفيه خاصية غير عادية تجعل كل إنسان يسمعه يتأثر به حتى لو لو يكن يعرف اللغة نفسها.. وحين غنت أم كلثوم في باريس كتبت صحف ومجلات أوروبا - التي أحتفظ بها عندي حتى الآن - أن صوت أم كلثوم هو أجمل صوت في العالم.. فهل كل النقاد الذين كتبوا عنها ذلك يعرفون اللغة العربية أو يفهمونها؟!.. إنهم (أحسوا) و (شعروا) بصوت أم كلثوم وبمدى عظمته حتى ولو لم يفهموا ما تقول.. فأم كلثوم لم تكن صوتاً ملائكياً ونادراً فقط؛ إنما كانت هي نفسها شخصية نادرة أيضاً سواء على مستوى الشخصيات الفنية أم الشخصيات العامة الأخرى.. كانت أم كلثوم، ككل، امرأة غير عادية قل أن يوجد الزمان بمثلها.. فلا عجب إذن أن أكون - وعشرات الملايين غيري - معجباً بها إلى درجة الانبهار وإلى درجة أن أعتبرها أعظم امرأة في العالم.. وعندي صديق مصري عنده صديقة إنجليزية فنانة تشكيلية، رسامة وأستاذة في كلية الفنون الجميلة، لا تعرف كلمة واحدة من اللغة العربية؛ ومع ذلك فهي تعشق صوت الشيخ محمد رفعت، وتبكي وهي تستمع إلى صوت عبد الوهاب يغني أغنية [من غير ليه].. فبم تفسر ذلك؛ إلا إن الصوت وحده قادر أحياناً على اختراق شغاف القلب.. ذلك هو صوت أم كلثوم..

● دكتور حسن المعصراني؛ هل لك أغاني خاصة بك؟!..؟

- أكتب بعض الأشعار والأغاني، وألحنها أيضاً.. لكن الألحان، بصدق؛ ليست في مستوى الغناء.. فأبني أشعر أن موهبتي مركزة في الغناء، وأنا صادق مع نفسي..

● هل تغني لأم كلثوم وحدها فقط، أو لأي أحد آخر غيرها أيضاً؟!..؟

- أم كلثوم وحدها..

● لنا يومان الآن مع بعض في ليفربول، وقد لاحظت أنك شديد الإعجاب بعبد الوهاب أيضاً.. ألا تدندن أحياناً بحاجة لعبد الوهاب؟!..؟

- أدندن آه، أغني لا.. ومع ذلك فأبني حين أدندن لعبد الوهاب فأبني لا أقده أبداً، وإنما أدندن له بطريقتي الخاصة وبشخصيتي الخاصة (!!)..

● ولو سألتك الآن، في نهاية لقائنا، عن تصوراتك لمستقبلك بين الطب والغناء؟!..؟

- سؤال صعب.. لكن الإنسان لا بد وأن يكون لديه طموح وأمل.. إنما أنا أعتقد أن أجمل شيء في الدنيا هو أن يعمل الإنسان الشيء الذي يحبه، وأنا أحب الموسيقى والغناء أكثر من أي شيء آخر في الدنيا..

● قلت لي ذلك ٦٤٣ مرة خلال حديثنا، لكنه ليس هو الإجابة عن سؤال المحدث: هل سيظل هذا الحب للموسيقى والغناء يسير متوازياً مع الطب: طبيب وجراح في الصباح، ومطرب ومغنواتي في المساء وفي حفلات جامعة ليفربول مرة أو مرتين في السنة؛ أو أن في ذهنك مشروعات محددة واضحة؟!..؟

- أملى الآن، وإن كنت لا أعرف كيف سيتحقق ذلك أو متى أو أين؛ هو أن ألتقي وأغني لجمهور عربي في الوطن العربي خارج جامعة ليفربول.. ونتيجة هذا اللقاء هي التي ستقرر الإجابة عن سؤالك..

● قول يارب..

- يارب..

صدق أو لا تصدق

عدد المساجد في بريطانيا ثلث عددها في القاهرة!!..

- ★ حين كان المسلمون في بريطانيا أكثر عدداً من المسيحيين!!..
- ★ والآن: هل عدد المسلمين في بريطانيا ٢ مليون كما يقول المسلمون، أو نصف مليون فقط كما تقول الحكومة البريطانية؟!..
- ★ العلاقة بين المسجد ومحطة الأوتوبيس وريتشارد نيكسون؟!..
- ★ حتى لا يتقاضى المسلمون أمام المحاكم البريطانية ..
- ★ الحكومة البريطانية تبني المساجد دون أن تعرف!!..
- ★ حين يختلف تفسير المذهب الواحد عند إمامين من جنسيتين مختلفتين!!..
- ★ حين يختلف الأئمة يتوه المسلمون..

سنوات طويلة وأنا أتردد على بريطانيا فى زيارات سريعة فى مهام صحفية؛ مرات عديدة جئت فيها إلى بريطانيا قبل أن أستقر فيها تماماً منذ أكثر من ٣٠ سنة الآن.. وفى كل مرة كنت أجيء إلى لندن كنت أزور المسجد القديم فى [ريجنتس بارك].. حتى هدم المسجد القديم وبنى فى نفس موقعه المسجد الجديد الحالى.. مئات المرات ترددت فيها على مسجد لندن القديم ثم الجديد؛ دون أن يخطر على ذهنى مرة واحدة أن هناك أية مساجد غيره فى بريطانيا كلها.. وقد أكد تصورى هذا أننى حضرت صلاة العيد فيه عدة مرات، وفى كل مرة كنت ألتقى خلال الصلاة وبعدها بمسلمين جاءوا من مختلف أنحاء بريطانيا لمجرد صلاة العيد فى مسجد لندن ثم العودة فوراً إلى مدنهم التى جاءوا منها.. حتى إن صلاة العيد كانت تقام عدة مرات فى أول أيام العيد حتى يمكن للعدد الهائل من المصلين أن يشتركوا فيها.. قلما عرفت مؤخراً، وبالصدفة تماماً؛ عدد ما فى بريطانيا من المساجد؛ لم أستطع أن أصدق الرقم: ٣٠٠ مسجد للمسلمين فى بريطانيا!!..

* * *

٣٠٠ مسجد فى بريطانيا؟!.. إنه والله لعدد كبير.. إنه يوازى ثلث ما فى القاهرة، أكبر عاصمة إسلامية فى العالم ومدينة الألف مئذنة؛ من مساجد.. ويوازى نصف ما فى دمشق وبغداد معاً من المساجد، ويوازى عدد ما فى مكة نفسها - مهبط الإسلام - من المساجد.. فهل ذلك معقول فعلاً يا مولانا؟!.. قلت لمحدثى الشيخ «جمال مناع» أحد أئمة المركز الإسلامى الكبير فى العاصمة لندن.. - بل إنه من المحتمل أن يكون ذلك أقل من العدد الحقيقى أيضاً.. لكنها ليست جميعها مساجد متكاملة بالمعنى أو بالشكل المتعارف عليه؛ إنما بعضها

مساجد بمعنى مجرد أماكن لأداء الصلوات اليومية وإقامة صلاة الجمعة وصلاة الجماعة فى المناسبات والأعياد الدينية.. أما إذا تحدثنا عن المساجد كشكل معمارى معين ومبنى مقام أساساً ليكون مسجداً حقيقياً؛ بمعنى أن له قبة ومئذنة ومحراباً ومنبراً؛ فهذه هى المعالم الرئيسية للمسجد؛ فعددها فى بريطانيا لا يتجاوز - على قدر علمى - عشرين مسجداً: مسجداً هنا فى المركز الإسلامى فى أطراف حديقة [ريجينتنس بارك] + مسجد فى ضاحية [ويمبلدون] + مسجد فى منطقة [ووكنج] + مسجد فى حى [هوايت تشابل].. إذن ففى مدينة لندن وحدها ٤ مساجد كبيرة متكاملة.. وهناك مساجد متكاملة أخرى فى مدن [برمنجهام] و [كارديف] و [ليفربول] و [بريستول] + ٣ مساجد أخرى متكاملة فى مدينة [مانشستر]..

وأقدم هذه المساجد جميعها - بما فيها مسجدنا الكبير هذا فى [ريجينتنس بارك] - هو مسجد منطقة [ووكنج]، الذى يزيد عمره الآن عن ١٢٠ عاماً، لأنه أقيم فى نهاية القرن الثامن عشر، وبالتحديد فى عام ١٨٨٣، وهو يستحق الزيارة لأنه مسجد له تاريخ.. ومن أحدث هذه المساجد مسجد مدينة [بريستول]، وهو أيضاً يستحق زيارة منك، لأن وراء إنشائه قصة طريفة تستحق أن يعرفها قراؤك.. سألت الشيخ «جمال مناع»:

● هل كل هذه المساجد العشرين الرئيسية فيها أئمة معينون ومتفرغون وظيفتهم الإمامة وإقامة الصلوات فى مواقيتها والوعظ والإرشاد والدعوة للإسلام؟!

- هذه مشكلة من المشاكل المهمة جداً فى وظيفة المسجد فى بريطانيا.. فإن مشكلة الإمام فى مساجد أوروبا والغرب عموماً، وفى بريطانيا على وجه الخصوص باعتبار أننا نعيش فيها؛ مشكلة جادة وحادة ومهمة جداً.. لأن الجالية الإسلامية فى بريطانيا جاءت وتكونت من خلفيات متعددة وجنسيات متعددة - أكثر من ٣٠ جنسية - وكل مجموعة منها تقيم مسجداً أو زاوية للصلاة تحرص على أن تحضر إماماً من نفس الوسط الثقافى والظروف الثقافية التى نشأوا فيها أو التى جاءت منها المجموعة، من نفس البيئة ونفس الجنسية.. يعنى إذا كانت المجموعة هندية

فتحرص على أن تجيء، بإمام تخرج في مدرسة إسلامية في الهند يتحدث بنفس اللغة ونفس الأسلوب الذى درجوا وتعودوا عليه فى بلادهم.. وإذا كانت المجموعة عربية من جنسية معينة، ولنقل: يمنيون مثلاً؛ فهم يفضلون أن يكون إمامهم عربياً من اليمن، وهكذا..

وبالتالى فإن المستوى الموحد فى فكر الأنفة غير موجود.. المستوى الموحد حتى فى المعلومات الدينية غير موجود.. ومن ثم فالجالية الإسلامية العامة هنا فى بريطانيا فى حيرة فى كثير من الأحكام فيما يتعلق بالأعياد، فيما يتعلق بأوقات الصلاة، فيما يتعلق بالأطعمة، وفيما يتعلق بأشياء أخرى كثيرة..

● هل هذه الخلافات تكون متعلقة بالمذاهب الإسلامية مثلاً؟!..

– متعلقة بالمذاهب أولاً، ثم بالخلفية الثقافية الدينية التى نشأ فيها الإمام نفسه.. فمثلاً إمام تركى، والأتراك أحناف – على مذهب أبى حنيفة – والهنود أيضاً أحناف، يعنى على نفس المذهب، لكن الخلفية الثقافية فى تركيا غير الخلفية الثقافية فى الهند.. وبالتالى فعلى رغم أن كلا منهما حنفى المذهب إلا أنه نشأ على شىء مختلف.. فالمسألة ليست مجرد اختلاف المذهب الإسلامى؛ وإنما أيضاً البيئة الثقافية التى نشأ فيها الإمام: هل هى بيئة محافظة؟!.. هل هى بيئة متحررة؟!.. هل هى بيئة تعرضت للسيطرة أو للنفوذ أو للتأثير الغربى الأوروبى؟!.. هل هى بيئة تعددت فيها المذاهب الفقهاء – كما هو الحال فى مصر مثلاً – فأصبح فيها قدر كبير من التسامح أو التوازن الفكرى؟!.. ذلك هو الاختلاف، وذلك هو الخلاف..

● هل نستطيع أن نتجاوز، ولو مؤقتاً فى فترة البداية، ولصالح نشر الإسلام ونشر الدعوة فى دولة كبريطانيا، أو حتى لمجرد توطيد دعائم الإسلام والحفاظ عليه حتى لا يتناقص تدريجياً وينكمش بحكم قلة الدعوة إليه.. هل نستطيع أن نتجاوز مؤقتاً عن هذه الخلافات، حتى تنتشر المساجد بشكل كافٍ أولاً؛ ويعدها نبحث عن حل؟!..

- حاولنا.. ولنا أكثر من محاولة من هذا المسجد ومن هذا المركز الإسلامى الكبير الذى يعد أكبر مركز إسلامى فى بريطانيا كلها.. ودعونا أكثر من مرة وحاولنا أن نشكل مجلساً يجمع أئمة المساجد ويعمل على تدريب من يحتاجون إلى تدريب منهم، وتنسيق المساعدات المالية التى تأتى من الخارج، وإيجاد نوع من الفكر الموحد، أو أشبه بالمحاكم العرفية الموجودة فى المساجد الرئيسية لحل بعض المشاكل التى تواجه بعض المسلمين ولا داعى لأن نذهب للتقاضى أمام القضاء البريطانى والمحاكم البريطانية.. حاولنا ذلك، ولم ننجح.. وبمنتهى الأمانة والصراحة، لأن بعض العناصر فى الجالية الإسلامية هنا فى المهجر الإنجليزى لا تريد ذلك لأنه يعطل مصلحتها المادية والأدبية.. وبصراحة أكثر: بعض الدول العربية والإسلامية لا تريد هذا التوحيد.. كل بلد عربى يريد أن تكون له ركيزة هنا لها صلة مباشرة به.. هذه حقيقة وليس من المفيد فى شىء أن نخفيها، ونحن نظهرها ونصاح ونجاهر بها لنحاول علاجها..

● يعنى هى مصالح دنيوية وليست مصالح دينية؟!..

- لا أقولها بهذه القوة.. وإنما أقول أن كلاً من الأطراف يتمسك بوجهة نظره ويريد أن تكون هى الوجهة السائدة.. كل طرف يرى أنه الأحق بأن تسود وجهة نظره..

● هل للمركز الثقافى الإسلامى فى لندن الهيمنة أو الإشراف الرسمى على باقى المساجد الموجودة فى بريطانيا؛ على اعتبار أنه المركز الأم أو المركز الرئيسى، أو حتى المركز الأقدم؟!..

- لا، ولا يمكن.. لا، لأن الواقع أنه لا.. ولا يمكن، لأن هذه المؤسسة بحكم تأسيسها وبحكم دستورها الذى أنشئت به وصرح بها على أساسه ليست مؤسسة مركزية يتبعها مؤسسات أخرى أو فروع أخرى.. وإنما هى مؤسسة قائمة بذاتها، وإذا تحولت إلى مؤسسة مركزية تشرف على جهات أخرى؛ فإن ذلك يحتاج إلى تعديل فى وضعها القانونى..

● ولم لا.. لماذا لا يتم هذا التعديل إذا كان ضرورياً لصالح جموع المسلمين في المهجر الإنجليزى؟!..

- أنا لا أقول أن ذلك مستحيل؛ لكننى أجيبك بالواقع لأنك سألتنى..

● هل هناك ما يمنع من إجراء هذا التعديل فى دستور إنشاء المركز الثقافى الإسلامى فى لندن، ليكون هو المركز الأم لكل مساجد بريطانيا؛ بحكم أنه فى الواقع هو كذلك فعلاً؟!..

- ليس هناك شئ مستحيل، إنما هو يحتاج إلى إخلاص النية والصبر والتجرد من الغرض..

● إذن لو سألتك نفس السؤال بصورة أخرى: ما هو شكل علاقة المركز الإسلامى فى لندن، العاصمة، بباقي المساجد الـ ٣٠٠ الأخرى المنتشرة فى بقية مدن وقرى بريطانيا، سواء كانت مساجد كبيرة أو مساجد صغيرة أو زوايا أو جمعيات دينية؟!..

- علاقتنا بالكثير منها علاقة تقوم على الثقة المتبادلة وعلى تبادل الرأى والنصح، لكن ليست هناك علاقة إدارية، وإنما هناك نوع من علاقة التعاون فى الحقل الواحد.. وبحكم أن مركزنا هنا فى لندن له ما يشبه الصفة الرسمية سواء لدى الحكومات العربية أو الإسلامية أو لدى الحكومة البريطانية؛ فأحياناً تطلب إلينا بعض الجهات التى تكتب إليها باقى المساجد أو الزوايا بطلب المعونة، فتحيل إلينا تلك الجهات الطلبات المقدمة إليها للتحرى عن مدى جدية هذه الطلبات.. ونتيجة لذلك فإن بعض المساجد أو الجمعيات الدينية الأخرى ترى أنه من الخير أن يكون هناك نوع من علاقة التعاون وتبادل الرأى والمشورة بينها وبيننا: يسألونا بعض النصح، يكون عندهم بعض الاحتفالات الدينية فيدعوننا للتحديث فيها، يكون عندنا مثلاً لجنة لمناقشة ثبوت رؤية الهلال فندعوهم إليها، يكون عندنا حفل بمناسبة المولد النبوى فنرسل إليهم، تكون لدينا بعض النشرات فنرسلها إليهم، وهكذا.. بمعنى أن تكون صلتنا بباقي المساجد والجمعيات الدينية

ليست صلة إدارية؛ وإنما هي أشبه بصلة التعاون بين محام كبير أصبحت له خبرة وتجربة والمحامون الناشئون يستشيرونه فيما يغمض عليهم، فقط ليس إلا.. وأحياناً يحدث أن بعض هذه المساجد تكتب إلينا إذا كانت لها مشاكل مع السلطات المحلية البريطانية.. وقد حدث أن تدخل المركز الإسلامى هنا فى لندن لدى السلطات البريطانية فى مدينة [كارديف] لتيسير بعض الأمور بالنسبة لمسجد [كارديف]، وأيضاً تدخل المركز الإسلامى فى لندن لدى (الهيئة الخيرية) أو (هيئة الأعمال الخيرية البريطانية) لمسائل تعلقت بمسجد مدينة [ساوث شيلد]، وهكذا..

● هل هناك علاقة مادية، من ناحية الفلوس، بينكم وبين باقى المساجد فى بريطانيا؟!..

- لأ.. مركزنا أو مسجدنا لا يعين المساجد الأخرى مادياً.. وإنما معونتنا تكون على شكل إيفاد بعض المدرسين، أو دفع مرتبات بعض المدرسين الذين يعلمون فى بعض المساجد أو الجمعيات الدينية، على نطاق محدود..

● ماذا يعلمون؟!..

- يعلمون مبادئ اللغة العربية والدين الإسلامى للصغار.. فإن سياسة مركزنا قائمة على أن الجمعيات أو المؤسسات التى تطلب وتتبدى لنا جدية حاجتها؛ فالمركز عندنا يعينها بدفع مرتبات المدرس لثلاثة أشهر ممكن أن تمتد لستة أشهر، وعلى أهل المنطقة بعد ذلك أن يهتموا بجمعيتهم أو بمؤسستهم الدينية وأن يدفعوا هم مرتب المدرس بعد هذه الشهور الستة..

● وإذا أرادوا هم بعد هذه ستة الشهور أن يحتفظوا بالمدرس ويدفعوا هم أجره؛ هل تتركونه لهم؟!..

- نعم..

● أفهم من ذلك أن لديكم عدداً كافياً من المدرسين الذين يمكنهم تعليم اللغة العربية والدين الإسلامى، لتغطية ٣٠٠ مسجد موزعة فى أنحاء بريطانيا؟!..

- ليس بالضرورة.. ليس لدينا قائمة موجودة لأعرف منها أسماء الذين يمكن أن أجندهم لتدريس اللغة العربية والدين الإسلامى فى لندن أو [مانشستر] أو غيرها مثلاً.. لكن ذلك يحكمه الواقع.. يعنى إذا طلبت جمعية ما مدرساً، ورأينا أن هذا الطلب جاداً؛ بحثنا لهم عمن يستطيع أن يقوم بالمهمة المطلوبة ونرسله إليهم.. ليست لدينا قوائم وليست لدينا إحصائيات، وذلك قصور نحن نعترف به ونرجو أن نتخلص منه فى مؤسستنا هذه، لكن القصور موجود نتيجة قلة الأيدى العاملة..

● ذكرت لى أن هذه المساجد المنتشرة فى أنحاء بريطانيا تطلب منكم مدرسين للغة العربية والدين الإسلامى للصغار؛ ويغض النظر عن أن هذه المساجد تصر على أن يكون (الإمام) بالذات من عندها أو من نفس بيئتها الثقافية أو خلفيتها الثقافية؛ هل بعض هذه المساجد تطلب منكم إماماً؟!..

- فى بعض المناسبات الدينية فقط، كالأعياد مثلاً؛ يطلبون إذا كان من الممكن أن ندبر لهم أحداً يذهب ليؤدى بهم صلاة العيد أو يخطب فيهم خطبة العيد.. بعض الجمعيات الطلابية مثلاً تطلب أن يذهب إليهم أحد يؤمهم لصلاة الجمعة.. لكن ذلك ليس قاعدة دائمة..

● إمام، أو قارئ للقرآن؟!..

- إمام.. يلقي خطبة الجمعة ويؤم الصلاة.. أما القراء فهم طبعاً يطلبونهم فى شهر رمضان عندما يأتى القراء من مصر أو من البلاد العربية الأخرى.. فهم يطلبون قارئاً للقرآن يذهب إليهم ليوم أو يومين، لأسبوع أو أسبوعين، حسب الظروف وحسب تعداد الجالية الإسلامية فى المنطقة التى تطلب القارئ..

● كم قارئاً للقرآن يجرى إلى بريطانيا خلال شهر رمضان كل عام؟!..

- ذلك يتوقف على ظروف مصر نفسها.. فى شهر رمضان الماضى مثلاً كان عندنا ٤ قراء من مصر؛ تنقلوا بين لندن و [شييفيلد] و [برمنجهام] و [مانشستر] و [جلاسجو] و [كارديف]، وغيرها من مدن بريطانيا..

● وهل ٤ قراء فقط يكفون لـ ٢٠ مسجداً كبيراً كما قلت لى؟!..

- لا طبعاً.. لكن لأن القارئ الواحد يذهب إلى عدة مساجد ليقرا فى كل واحد

منها عدة أيام، وعدة أيام خير من لا شىء طبعاً.. فإذا حسبناها هكذا: ٤ قراء $\times$ ٣٠ ليلة في شهر رمضان = ١٢٠ ليلة قراءة $\div$ ٢٠ مسجداً = يكون من نصيب كل مسجد من وقت القارئ ٦ ليالٍ رمضانية.. ونحن نعد لهم برنامجاً: القارئ الغلاني يكون في [مانشستر] لست ليالٍ، ثم ينتقل إلى [ليفربول] ليقراً فيها ٦ ليالٍ أخرى، فإلى مدينة ثالثة، وهكذا.. فى نفس الوقت الذى يكون فيه القارئ الثانى فى [كارديف] ثم ينتقل إلى [بريستول] فإلى مدينة ثالثة، وهكذا.. والقارئ الثالث يقرأ فى [لندن] ثم ينتقل إلى [برمنجهام] ثم إلى [ليدز]، وهكذا.. ف يكون القارئ الواحد قد تنقل بين خمسة مساجد وخمس مدن خلال شهر رمضان، والقراء الأربعة قد تنقلوا بين ٢٠ مسجداً ومدينة..

● من الذى يتحمل أجور القراء الذين يجيئون إلى بريطانيا فى شهر رمضان؟!..

- القراء الذين يجيئون من مصر تدفع لهم أجورهم وزارة الأوقاف فى مصر.. وأتصور أن القراء الذين يجيئون من بلاد أخرى يحدث معهم نفس الشىء.. لكننا نحن هنا لا ندفع لهم شيئاً..

● هل هناك بلاد إسلامية أخرى، غير مصر، ترسل قراءً؟!..

- نعم.. المملكة العربية السعودية فى الفترة الأخيرة بدأت ترسل بعض القراء إلى بريطانيا، وقد حدث ذلك فى أكثر من عام.. لكن لم يجرى إلى مسجداً هنا بالذات قراء من غير مصر..

* * *

● ذكرت لى أن عدد المساجد فى بريطانيا أكثر من ٣٠٠ مسجد؛ لنقل أنهم ٣٢٠، ونستبعد الـ ٢٠ مسجداً التى قلنا عنها إنها مساجد متكاملة بنيت خصيصاً لغرض أن تكون مساجداً.. ما هو إذن شكل الـ ٣٠٠ مسجد الأخرى الباقية؟!..

- أولاً أحب أن أوضح أنني لست مصرّاً على أن عددهم هو ٣٠٠ مسجد فقط.. فقد يكونون أكثر من ذلك بكثير.. لكن هذا هو الرقم الذى يتردد على الألسن هنا.. تماماً كما يقال: إن عدد المسلمين فى بريطانيا هو ٢ مليون.. من الذى عددهم ومن

الذى أحصاهم!؟.. من الذى تحت يده إحصاء رسمى يقول: إنهم ٢ مليون!؟..
الحكومة البريطانية تقول: إن عدد المسلمين نصف مليون فقط، لكنّ المسلمون هم
الذين يقولون ٢ مليون..

● إذن: هذه الـ ٣٠٠ مسجد الأخرى؛ ما شكلها!؟..

– أغلبها بيوت عادية أعيد تهيئتها وتجهيزها وتأثيثها لتكون مساجد أو زوايا
صغيرة، بغير (قبة) وبغير مئذنة طبعاً.. قد يكون فى البعض منها منبر، وقد يكون
قد بنى فى داخل البعض منها محراب ما، لكنها بشكل عام لم تبين أصلاً لتكون
مسجداً بمواصفات المسجد المعروفة..

● إذا افترضنا أن عدداً من هذه الـ ٣٠٠ مسجد وزاوية الأخرى أقامتها جاليات
إسلامية غير عربية؛ هندية مثلاً أو باكستانية أو أفغانية أو سنغالية.. فهل ذلك معناه
أن الصلوات تقام فيها بلغات هذه الجاليات!؟.. اللغة الأوردية مثلاً أو السواحيلية
أو الأفغانية!؟..

– لا طبعاً.. فالصلاة لا تقام بغير اللغة العربية، اللغة التى نزل بها القرآن،
حتى وإن كانوا لا يفهمونها.. وذلك حادث فعلاً فى عدد من المساجد التابعة
للجاليات الإسلامية غير العربية: الصلوات تقام باللغة العربية سواء فهمها المصلون
أم لم يفهموها.. ولا تجوز الصلاة بغير اللغة العربية.. وعلى المصلين من أى جنسية
– حتى ولو كانوا من الروس، مثلاً – أن يتعلموا كيف يؤدون الصلاة باللغة العربية
وأن يتعلموا، على الأقل، سورة الفاتحة..

● حين يستقر رأى هنا فى المركز الإسلامى فى لندن على أن العيد غداً مثلاً، وقد
ثبتت له الرؤية؛ هذه المساجد والزوايا الـ ٣٢٠؛ كيف تبلغونها بذلك، أو كيف
تعرف هى ذلك!؟..

– يتم ذلك بالاتصال التليفونى، هم الذين يتصلون.. وفى الليل حين لا يكون
فى المركز عندنا أحد ليرد على التليفون تكون هناك رسالة مسجلة على جهاز [الرد
على التليفون Answering Machine] تقول: إن العيد غداً أو بعد غدٍ..

وعادة حين يتوقع المسلمون هنا فى بريطانيا أن يكون بداية شهر رمضان غداً أو العيد غداً؛ فإنهم يستمعون إلى الإذاعة السعودية أو إلى الإذاعات الإسلامية من بلادهم؛ ليعرفوا منها مباشرة هل رمضان أو العيد غداً أو لا.. يعنى أن المسلمين فى بريطانيا يعرفون موعد بداية رمضان أو حلول العيد بوسائل مختلفة، المركز الإسلامى هنا واحد منها.. وأنا لا أستطيع أن أدعى أنني كمركز إسلامى أقوم بإبلاغ كل المسلمين فى بريطانيا بذلك، لكننى أبذل جهدى.. وفى السنوات الأخيرة استطعنا أن نذيع ذلك فى محطة الإذاعة المحلية فى راديو الـ BBC.. أذيع كخبير..

● ذكرتنى بالمناسبة: هناك برنامج دينى يذاع فى تليفزيون لندن يوم الأحد صباحاً للجالية الهندية والباكستانية..

— هو ليس برنامجاً دينياً بالمعنى المفهوم؛ إنما هو برنامج موجه إلى الآسيويين ويتضمن بعض فقرات دينية أو أخبار دينية.. وينبغى أن يكون معروفاً أن الحكومة البريطانية أو الدولة فى بريطانيا لا تشجع أى شىء يبنى على أساس دينى صريح، وإنما هى تشجع أى شىء يبنى على أساس ثقافى أو لغوى أو عنصرى.. لا أقصد التفرقة العنصرية طبعاً؛ لكننى أقصد الجنسية: آسيوى أو عربى أو أفريقى، وهكذا.. ومع ذلك فإن تليفزيون الـ BBC القناة الأولى — وهى القناة الرسمية التابعة للدولة هنا — بدأت منذ سنوات تقدم خلال شهر رمضان من كل عام برنامجاً أسبوعياً يتكلم فيه علماء الإسلام الذين يعيشون فى المهجر هنا عن الإسلام وعن شهر رمضان فى بريطانيا وفى العالم الإسلامى.. والبرنامج يلقى ترحيباً كبيراً من مسلمى المهجر هنا..

● قرأت فى نشرة صدرت عن المركز الإسلامى بلندن، أن عدد المسلمين فى بريطانيا فى بداية هذا القرن كان أكبر من عدد المسيحيين فيها!!.. فهل ذلك صحيح فعلاً.. هل كان المسلمون فى بريطانيا فى أى وقت أكثر من عدد الإنجليز أنفسهم مثلاً!؟.. على قدر معلوماتى التاريخية أن المسلمين لم يغزوا بريطانيا فى أى وقت من الأوقات ولا فى أى عصر من عصور التاريخ الإسلامى!!..

— اصبر قليلاً يا أخى، وعد إلى النص المنشور فى هذا الكتيب تجده يقول بالضبط: [رعايا بريطانيا من المسلمين].. والمقصود بذلك رعاياها فى الوقت الذى كانت بريطانيا فيه تحكم مصر وتحكم العراق وتحكم الهند والسودان ودول الخليج والأردن واليمن الجنوبية وغيرها وغيرها.. ونحن ذكرنا ذلك فى تلك النشرة رجوعاً إلى الوسيلة التى لجأ إليها السفير المصرى فى بريطانيا فى الأربعينات المرحوم «حسن باشا نشأت» لإقناع الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت، كحجة أو كذريعة لكى يحصل على موافقتها على إنشاء هذا المسجد الذى نجلس فيه الآن فى قلب العاصمة البريطانية: «كيف ورعاياكم من المسلمين أكثر من المسيحيين؛ لا يوجد فى عاصمتكم مسجد واحد؟».. وقد كان؛ وأعطت الحكومة البريطانية لمصر، أكرر: لمصر، هذه الأرض لإنشاء مسجد عليها.. وكان مقاماً عليها فى ذلك الوقت قصر صغير تحول إلى مسجد مؤقت، وظل كذلك لأكثر من ثلاثين عاماً حتى توفرت الإمكانيات فتم هدمه وأنشئ فى نفس مكانه هذا المركز الإسلامى الذى نجلس فيه أنا وأنت الآن.. إن نشأة هذا المركز نشأة مصرية ومبادرة مصرية.. وليس فى ذلك إنكار لجهود غير المصريين، وإنما هى من باب (ولا تبخسوا الناس أشياءهم)، وذلك معروف وغير منكور..

● أنت تقودنى إلى نقطة كنت سأسألك فيها وأستوضحك إياها: الحكومة البريطانية أو الدولة البريطانية؛ هل تعارض أو تعترض حين تشرعون، أو حين يشرع المسلمون فى بريطانيا، فى بناء مسجد جديد؟!..

— كلا على الإطلاق، طالما أن ذلك يحدث فى نطاق القانون البريطانى.. بمعنى أننى لا أذهب إلى منطقة خاضعة للتطوير العمرانى وأصر على أن أنشئ فيها مسجداً..

● والله يا شيخ «جمال مناع» بما أننا ضيوف على هذا البلد؛ حتى لو كنا مهاجرين إليه وسنقضى باقى عمرنا فيه؛ فليس من حقنا أن نصر على شئ؛ خصوصاً إذا كان هذا الشئ يخالف قوانينهم وهم أحرار فيها.. فنحن لا نهاجر إلى بلد ما لكى نحكمه (و نمشيه على مزاجنا)..

– لكن البعض يصر، وذلك يحدث.. واحد يشتري بيتاً، أى بيت فى أى مكان، ويبدأ فى تحويله إلى مسجد دون الرجوع إلى السلطات المختصة ودون أن يحصل على تصريح بذلك من الحكومة البريطانية.. وحين تكتشف الأجهزة البريطانية أن ذلك مخالف لبند أو لآخر فى نظمها وقوانينها فهى تحاول أن تغلقه كمكان غير مصرح به، سواء كان مسجداً أم (سوبرماركت)، حتى لو كان أصحابه إنجليزاً.. وهنا يبدأ الصراخ والعيول: إلحقونا، الحكومة البريطانية تضطهد المسلمين.. ولا يكون ذلك صحيحاً طبعاً..

● هل حدث ذلك على هذه الصورة فعلاً؟!..

– كثيراً.. أكثر من مرة خلال الأعوام الماضية، وفى أكثر من مكان: فى برمنجهام، وفى لندن نفسها حدث ذلك..

● هل كان اعتراض السلطات البريطانية فقط على (جغرافية الموقع)؟!..

– الحكومة البريطانية لا تعترض إطلاقاً على إقامة مسجد؛ دليل الـ ٣٢٠ مسجداً الموجودة فعلاً.. إنما لكى تقيم مسجداً أو أى دار للعبادة؛ فذلك سوف يستتبعه كثافة معينة للزائرين المترددين على هذا المسجد؛ وبالتالي على المنطقة نفسها.. لو أنه كان بيتاً عادياً تسكنه أسرة عادية فكم سيكون عدد زوار هذه الأسرة كل أسبوع؟! عشرة؟! عشرين؟! ثلاثين؟! وعلى امتداد أيام الأسبوع السبعة، وفى أوقات مختلفة من اليوم.. لكن لأنه مسجد فسيكون عدد رواده عدة مئات يومياً، وعدة آلاف أحياناً فى المناسبات الدينية.. ونحن هنا نعيش فى بلد مستواه الاقتصادى مرتفع وأغلب الناس – حتى الفقراء منهم – يمتلكون سيارات.. فينبغى أن يكون حول المكان الذى سيقام فيه المسجد مكان كافٍ لانتظار سيارات كثيرة وليس سيارة واحدة أو عدة سيارات.. أيضاً موافقة سكان المنطقة مسألة هامة جداً عند السلطات البريطانية.. هنا لا يضعون محطات الأوتوبيس كيفما اتفق كما يحدث فى بلادنا.. إنهم إذا أرادوا وضع محطة أوتوبيس جديدة، فقط محطة أوتوبيس: مجرد عمود مكتوب عليه [محطة أوتوبيس] يقف عنده الأوتوبيس ليركبه

الناس أو ينزلوا منه.. هنا لا يضعون هذا العمود فى أى مكان على كيف شركة الأوتوبيس ولا على مزاج رئيس الحى؛ إنما هم يسألون أهل المنطقة: أين تفضلون أن توضع هذه المحطة الجديدة؟.. وبناءً على رأى أغلبية سكان المنطقة يتحدد موضع المحطة الجديدة.. يا أخى فى الولايات المتحدة الأمريكية رفض سكان عمارة فى نيويورك أن يشتري رئيس الجمهورية السابق «ريتشارد نيكسون» شقة فى هذه العمارة ليسكن فيها هو وزوجته، على اعتبار أن ذلك سوف يقلق راحة سكان العمارة ويحد من حريتهم نتيجة دواعى الحراسة الأمنية التى ستكون على الرئيس السابق!..

موافقة سكان المنطقة إذن توضع فى اعتبار النظام الإنجليزى والقانون الإنجليزى.. سيولة المواصلات فى المنطقة توضع فى الاعتبار: هل سيؤدى إقامة هذا المسجد إلى تعطيل المرور فى هذه المنطقة بصورة ما فى بعض الأوقات.. أيضاً مسألة التطور أو التوسع العمرانى فى المنطقة التى سيقام فيها المسجد.. هل تتركنا الحكومة البريطانية نقيم مسجداً فى منطقة ما ثم تطالبنا بهدمه وإزالته بعد سنة أو سنتين أو ثلاثة أو خمسة لأن تخطيط التوسع العمرانى لهذه المنطقة يتطلب ذلك.. لكن بعضنا - مدفوعاً بالحماس ومدفوعاً بالحاجة إلى مكان للعبادة يؤدى فيه المسلمون الصلوات والمناسبات الدينية ويتعلم فيه أطفالهم اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامى - بعضنا يأخذ المبادرة ويبدأ يستخدم المكان كمسجد دون أن يستأذن فى ذلك من الأجهزة البريطانية المختصة؛ أملاً أن يضع السلطات البريطانية أمام الأمر الواقع فتتجاوز أو تغض الطرف.. والذى يحدث فعلاً هو أن السلطات البريطانية أحياناً تتجاوز وتغض الطرف، وأحياناً لا تستطيع أن تفعل.. فإذا تجاوزت فإن علينا أن نشكرها، أما إذا لم تتجاوز فليس لنا عليها من لوم أو عتاب..

● هل تقدم الدولة البريطانية مساعدات لإنشاء المساجد بشكل أو بآخر؟..

- لا.. لا تقدم الدولة ولا الأجهزة فى بريطانيا مساعدات مباشرة لإنشاء المساجد.. ومرة أخرى أؤكد على أن مسلك الحكومة البريطانية هى أنها لا تقدم شيئاً لمساعدة

الأديان الأخرى غير المسيحية، كأديان؛ وإنما تقدم مساعداتها للجاليات كجاليات فقط. لنفترض أن جالية باكستانية، مثلاً، لها حاجة لإنشاء مسجد في منطقة ما من لندن؛ لا تقدم لها الحكومة البريطانية شيئاً لإنشاء هذا المسجد؛ وإنما تقدم لها معونات كجالية لمواجهة احتياجاتها الاجتماعية أو الروحية، وهكذا. وتتحاشى دائماً الخوض في المسائل الدينية.. ليس لأن بريطانيا ضد الأديان؛ لكن لأنها تحب دائماً ألا تتدخل في مسألة الأديان باعتبار أن كل واحد حر في دينه، ولأنها تحب أن يكون كل المجتمع البريطاني متوائماً ومتناسقاً بقدر الإمكان.. هذا هو أسلوب الدولة البريطانية التي نعيش فيها الآن كمهاجرين، سواء وافقناها عليه أم لا..

● ما هو إذن نوع المساعدات التي تقدمها الدولة البريطانية للجاليات؟!..

- مساعدات مالية.. كأن تعطي للجالية أرضاً بئناً رمزي، لإنشاء ما يسمى (مركز الجالية الفلانية).. وكون أن الجالية تنشئ ضمن هذا (المركز) مسجداً أو كنيسة أو معبداً أو أى مكان آخر للعبادة؛ فذلك لا يهم الدولة البريطانية وليس لها أى دخل به وليس موضوعاً في اعتبارها.. حدث ذلك كثيراً في لندن وفي غير لندن..

● المعونات التي تقدمها الحكومة البريطانية؛ هل هي معونات رمزية، أم كافية لتنفيذ الغرض الذي تطلبها الجالية من أجله؟!..

- ذلك أولاً يتوقف على كثافة الجالية في المنطقة، فجالية ما في منطقة ما لا تتكون من فردين أو ثلاثة ويقولون «إحنا جالية»؛ لكنها تحتاج إلى عدة مئات.. وثانياً على مقدار الإعتمادات المالية المتاحة لدى الأجهزة البريطانية وقت طلب المعونة.. وغير ذلك من أمور تختلف من منطقة إلى أخرى في بريطانيا..

● فضيلة الشيخ «جمال مناع» شيخ (المركز الثقافي الإسلامى فى لندن)، شكراً جزيلاً، أفادكم الله..

- وإياكم..

أقدم مسجد في بريطانيا.. ووكنج..

★ مسجد مغلق للتحسينات.

★ قاضيانى يدعى أنه نبي المسلمين ..

مسجد صغير الحجم جداً؛ تراه عن بعد من أول الطريق فتظنه (ماكيت) أو نموذجاً مصغراً لمسجد .. لكنه فعلاً مسجد حقيقى بـ (قبة) صغيرة وأربعة مآذن دقيقة الحجم حتى وكأنها مآذن رمزية .. فإذا رأيت ساحته من الداخل فهي أقرب إلى غرفة متوسطة الحجم، إذا نودى للصلاة فهي تتسع - بالكاد - لخمسين مصلياً متلاحمى الأكتاف متلاصقين .. والمنبر مجرد كرسي عاى بمساند عليه مفرش ليدارى أنه كرسي .. ومع ذلك فإن مسجد [ووكنج] هذا هو أقدم مسجد بنى فى بريطانيا، لأن عمره تجاوز مائة العام الآن .. وإن كان فى الحقيقة لم يستخدم كمسجد إلا، فقط، فى أعوامه الـ ١٣ الأولى، وأعوامه الـ ٣٥ الماضية ١١ .. قصة طريفة للغاية لمسجد [ووكنج] الصغير هذا .. تعالوا نعرفها معاً ..

* * *

على بعد أقل من نصف ساعة بالقطار السريع من لندن تقع مدينة [ووكنج] .. أظلمها إذا قلت إنها مدينة؛ فهي شىء وسط بين (قرية كبيرة) و (بلدة صغيرة) .. شارعها الرئيسى اسمه [أوريينتال رود Oriental Road] أو [الشارع الشرقى] .. ولست أدري إن كان لوجود المسجد فيه علاقة بتسميته أم لا .. حين سألت فى مكتب الاستعلامات فى محطة القطار فى [ووكنج] عن مكان المسجد قالت لى فتاة الاستعلامات إنه فى هذا الشارع نفسه [أوريينتال رود] .. سألتها: «ما رقمه!؟» .. قالت: «لا تشغل بالك بالرقم .. فقط سر فى الشارع حتى تجد المسجد» .. سرت أخوض فى الثلوج نحو ١٠ دقائق حتى رأيت لافتة تقول: إن المسجد فى هذا المكان، لكننى لم أجد المسجد ولا أى شىء يدل على أن هناك مسجداً .. تلفتت حولي يميناً ويساراً فلم أجد غير بيوت إنجليزية عادية جداً .. انتظرت نحو ١٠ دقائق

أخرى - فى يوم شتاءٍ مثلج قارس البرودة - حتى مر بى شاب استوقفته وسألته عن مكان المسجد فوصف لى أن أدخل فى ممر ضيق بين بيتين، سرت فيه عدة دقائق أخرى حتى ظهر المسجد فجأة أمامى صغيراً دقيقاً محندقاً كأنه (عينة مسجد) أو (صورة كارت بوستال لمسجد).. أخضر اللون على الطراز المعمارى الهندى، لا يزيد ارتفاعه عن بيت عادى من طابقيين، وسط مساحة كبيرة جداً خالية يكسوها الثلج ناصع البياض وتحيط به أشجار باسقة تساهم فى زيادة إخفاء المسجد الصغير عن الشارع الخارجى..

اليوم يوم جمعة، والساعة تقترب من الحادية عشرة والنصف ظهراً، يعنى أن موعد صلاة الجمعة قد أزف؛ ومع ذلك فباب المسجد مقفول ولا أحد على الإطلاق حول المسجد ولا قريب منه.. درت حول المسجد الصغير لعل له باباً آخر فلم أجد.. زعقت بأعلى صوتى أنادى فلم يرد أحد.. قلت لنفسى لعل المسجد مغلق هذه الأيام لسبب ما.. وقلت على الأقل أصور المسجد نفسه، دليلاً على أننى جئت فلم أجد أحداً، ثم أعود إلى بيتى الدافئ فى لندن فى أول قطار يغادر هذه المدينة الصغيرة المثلجة.. درت حول المسجد لكى أصوره من كل جوانبه.. اكتشفت أن هناك بيتاً على مقربة من المسجد فيه غسيل منشور.. مادام هناك غسيل منشور إذن فالبيت مأهول وفيه ناس وفيه حياة.. دققت الباب ففتح لى طفل صغير فى نحو الثامنة ملامحه شرق أوسطية.. سألته باللغة العربية: «هل تعرف أين أجد إمام المسجد؟».. نظر إلى فى دهشة ولم يرد.. عاودت سؤاله بالإنجليزية فأجاب على الفور: «هل تريد أبى؟».. قلت: «لأ.. أريد إمام المسجد».. قال: «إنه أبى.. وهو يتوضأ الآن استعداداً للصلاة.. هل تحب أن تنتظره؟».. قلت: «أحب».. أخيراً؛ وجدت أحداً يحكى لى قصة مسجد [ووكنج] الصغير..

- يحكى لى الإمام الباكستانى الشيخ «بشير أحمد» وهو يكمل ارتداء ملابسه، قصة مسجد [ووكنج] من بدايتها:

- أولاً فإن اسمه الرسمي ليس [مسجد ووكنج]؛ وإنما هو مسجد [ساها جيهان] منسوباً لاسم صاحبة القفل في إنشائه: البيجوم «ساها جيهان» ملكة [بوبال] إحدى مقاطعات الهند القديمة؛ التي تدرعت في أواخر القرن التاسع عشر بعشرة آلاف جنيه لبناء مسجد للمسلمين في بريطانيا.. عشرة آلاف من جنيهات ذلك الزمن القديم.. وعهدت البيجوم «جيهان» بإنشاء المسجد إلى الدكتور «دبليو. إن. لايتنر» الذي كان أستاذاً بجامعة البنجاب قبل تلك الفترة، فلما تقاعد جاء إلى بريطانيا وهو يحمل تكليف البيجوم «جيهان»؛ وبنى هذا المسجد الذى نجلس فيه الآن وافتتحه للمسلمين فى عام ١٨٨٩.. لا أحد يعرف الآن لماذا أختير هذا المكان بالذات، قرية [ووكنج]؛ لإنشاء المسجد؛ لكن من المحتمل أن يكون ذلك لأن الدكتور «لايتنر» نفسه كان يعيش فيها.. ويبدو أن عدد المسلمين فى هذه المنطقة فى ذلك الوقت كان قليلاً جداً ولم يكن دكتور «لايتنر» يتوقع أن يزدوا كثيراً فى المستقبل القريب أو البعيد من ذلك الوقت عام ١٨٨٩؛ فبنى المسجد صغيراً جداً جداً كما تراه الآن؛ لا يكاد يتسع لخمسين مصلياً فى وقت واحد.. وفى الوقت نفسه ترك باقى مساحة الأرض حول المسجد شاسعة جداً تتسع لإقامة عشرة مساجد أخرى بنفس الحجم.. وواضح أن عشرة آلاف جنيه فى ذلك الزمن القديم كانت كافية لشراء كل هذه المساحة الهائلة من الأرض بالإضافة إلى تكاليف بناء المسجد نفسه..

وإذا تصورنا أن دكتور «لايتنر» قد بنى المسجد فى ذلك الوقت وفى ذهنه أنه يستوعب عدد المسلمين فى المنطقة؛ لاستنتجنا على الفور أن عدد المسلمين فى المنطقة لم يكن يزد كثيراً فى ذلك الوقت عن عشرين أو على الأكثر ثلاثين مسلماً.. ولم يكن فى تقدير دكتور «لايتنر» أن عدد المسلمين فى منطقة [ووكنج] وضواحيها سوف يصل فى يوم من الأيام - كما وصل اليوم - إلى ثلاثة آلاف مسلم من مختلف الجنسيات الإسلامية؛ ابتداءً من الهند والباكستانيين والآسيويين إلى المسلمين العرب بمختلف جنسياتهم.. حتى إننا فى شهور الصيف حين يتحسن الطقس فى

بريطانيا ويصبح عدد المترددين على المسجد هنا كبيراً، خصوصاً فى صلوات الجمعة وفى المناسبات والأعياد الدينية؛ فإننا نضطر إلى فرش الحصى خارج المسجد على نجيل الأرض الخضراء أمامه لكى يشترك المصلون جميعاً فى الصلاة!!..

* * *

يستطرد محدثى الشيخ «بشير أحمد» إمام مسجد [وكنج]:
- وكان الدكتور «لايتنر» بطبيعة الحال هو أول إمام لمسجد [ساها جيهان].. وظل يؤدى مهمته لمدة ١٣ عاماً حتى توفاه الله فى عام ١٩٠٢.. وبعد وفاته حلت بالمسجد كارثة استمرت ٦٥ عاماً، حتى عام ١٩٦٧!!..

فقد احتل المسجد رجل اسمه «غلام أحمد قاضيانى» وأتباعه، وادعى أنه نبي المسلمين الجديد وأن على المسلمين أن يؤمنوا به هو وليس بالنبي «محمد» عليه الصلاة والسلام، على اعتبار أنه النبي المرسل بعد «محمد»!!.. وذلك كله إفك باطل طبعاً لأن الرجل كان دجالاً وهو وأتباعه ليسوا بمسلمين فى الحقيقة، لأن الإسلام يقول: إنه لا نبي بعد «محمد» خاتم الأنبياء والمرسلين..

ولما كان عدد المسلمين الحقيقيين فى ذلك الوقت قليلاً جداً كما ذكرت؛ فمن المحتمل أن يكونوا قد حاولوا مقاومة ذلك الدجال وإبعاده عن المسجد فلم ينجحوا؛ فابتعدوا عن المسجد وتركوه له وآثروا السلامة.. المهم أن ذلك الدجال «غلام أحمد قاضيانى» وأتباعه قد أفلحوا فى الاستيلاء على المسجد، وحولوه إلى إدارة مجلة كانوا يصدرونها باسم [إسلاميك ريفيو Islamic Review] لينشروا فيها أكاذيبهم وإفكهم وضلالهم وآراءهم الخاطئة البعيدة عن الإسلام كما يتصورها نبيهم المزعوم..

واستمر المسجد على ذلك الحال لمدة ٦٥ عاماً لا يدخله أصحابه الأصليون المسلمون الحقيقيون؛ حتى عام ١٩٦٧ حين جاء إلى بريطانيا مجموعة من العلماء وأوضحوا للمسلمين كذب وادعاء ذلك الرجل «غلام أحمد قاضيانى» وأنه يدعى النبوة وهو ليس بنبي، فليس هناك أنبياء بعد «محمد» عليه الصلاة والسلام وذلك ما تؤمن به الأمة الإسلامية كلها من أقصاها إلى أدها.. وفى الوقت نفسه كان عدد

المسلمين في المنطقة هنا قد ازداد كثيراً حتى أصبحوا قوة مؤثرة، وكان الإسلام في بريطانيا يزداد انتشاراً واتساعاً؛ فاستطاع المسلمون أن يطرّدوا أتباع ذلك الرجل «قاضياني»، ويعود المسجد إلى أصحابه الأصليين بعد ٦٥ عاماً..

سألت محدثي الشيخ «بشير أحمد» إمام مسجد [ووكنج]:
● وكيف وصلت إليكم أنتم، الجيل الحالي من مسلمي المنطقة، هذه القصة كلها؟!..

- طبعاً نقلاً عن الأجداد الذين عاصروا ما حدث، ثم الآباء، ثم إلينا.. وقد عاصر الجيل الحالي من مسلمي المنطقة في [ووكنج] وضواحيها؛ عاصروا طرد أولئك المسلمين المزيقيين من مبنى المسجد في عام ١٩٦٧.. وللأسف فإن هؤلاء الذين احتلوا المسجد ٦٥ عاماً كاملة قد أعدموا وبددوا كل وثائقه وسجلاته التاريخية القديمة عند بدء إنشائه، وليست لدينا الآن ولا حتى مجرد صورة للملكة «جيهان» ولا للدكتور «لايتنر».. وإن كنت أتصور أن تكون صحف ذلك العهد في عام ١٨٨٩، البريطانية والهندية، من المحتمل أن تكون قد نشرت عن افتتاح هذا المسجد في بريطانيا.. لكن للأسف ليست لدينا سجلات عن ذلك..

● من المؤكد أنك لم تتول مهام الإمامة في مسجد [ووكنج] في عام ١٩٦٧ عند عودته للمسلمين؛ فإنك قطعاً كنت صغيراً جداً في ذلك الوقت..

- هذا صحيح.. فقد تولى إمامة المسجد قبلي اثنان من الأئمة، أولهما الشيخ «خوجة قمر الدين»، ثم جاء بعده الشيخ «حافظ قاسم صديقي»، ثم جئت أنا من باكستان منذ عدة سنوات، وكانت تلك هي أول مرة أجيء فيها إلى بريطانيا.. والحقيقة أنني حين جئت إلى بريطانيا كنت معيّناً لمسجد آخر، لكن إدارة مسجد [ساها جيهان] اختارتني لأبأشر شئون المسلمين وأمورهم هنا في هذا المسجد وهذه المنطقة..

● ومن الذي يتولى الإنفاق على مسجد [ووكنج]، أو مسجد [ساها جيهان] الآن؟!..

- الباكستان، وتبرعات الجالية الإسلامية فى هذه المنطقة التى تنمو وتتزايد باستمرار.. والجالية الإسلامية هنا تضم مسلمين هنود ومسلمين باكستانيين ومسلمين عرب.. صحيح أن المسلمين العرب قليلون جداً فى المنطقة؛ لكنهم يأتون إلى المسجد بشكل منتظم ودائم..

وقد تكلف بناء هذا المسجد عند إنشائه منذ أكثر من ١٠٠ سنة، بما فى ذلك ثمن الأرض؛ تكلف عشرة آلاف جنيه من جنيهاً ذلك الزمن القديم.. ولو أنه قد بنى الآن لتكلف أكثر من مليون جنيه.. ونحن نفكر فى استغلال تلك المساحة الشاسعة الهائلة من الأرض القضاء التى تحيط بالمسجد؛ فى بناء ملحق كبير له يتسع لمركز إسلامى ثقافى كبير يستوعب العدد المتزايد من المسلمين فى المنطقة، كما يتيح لنا مكاناً أوسع وأرحب لفتح فصول أكثر لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامى لأطفال المسلمين فى المنطقة.. وبإذن الله حين نتاح لنا سيولة مادية كافية فإننا سوف نشرع فى ذلك فوراً بإذن الله..

● أعرف أن لديكم الآن فصلاً لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامى..

- هذا صحيح.. فإن لدينا الآن ما يقرب من ١٥٠ تلميذاً وتلميذة يتعلمون اللغة العربية والدين الإسلامى، معظمهم دون سن السادسة عشرة، إلا عدداً قليلاً من الفتيات فوق سن السادسة عشرة.. وحين بدأنا تعليم اللغة العربية والدين فى عام ١٩٧٨ كان عدد التلاميذ ١٨٠ تلميذاً وتلميذة، لكن الذين يكبرون منهم ويتجاوزون مرحلة الدراسة فيتركونها يزيد عددهم كثيراً عن عدد الأطفال الجدد الذين ينضمون إلى الفصول.. ويقوم بالتدريس للأولاد مستر «صابر حسين» أمين مكتبة المسجد، وتقوم زوجتى «مسز بشير» بالتدريس للبنات..

كما أننى أقوم بتدريس اللغة العربية والدين والقرآن ومبادئ الإسلام فى مدرستين أخريين فى بلديتين قريبتين من [ووكنج]، مرتين فى الأسبوع فى كل مدرسة منهما.. فأنا أجد اللغة العربية التى تعلمتها فى الباكستان، وإن كنت لا أتحديثها بطلاقة كما لعلك قد لاحظت.. وذلك بالإضافة إلى دروس شرح وتفسير القرآن الكريم التى أقوم بها فى المسجد هنا ساعتين يومياً خمسة أيام فى الأسبوع..

● إذا كانت الغالبية العظمى من الجالية الإسلامية هنا فى المنطقة - كما ذكرت لى - من المسلمين الهنود والباكستانيين؛ فلماذا يريدون أن يعلموا أطفالهم اللغة العربية؟!.. هل هى مفيدة لهم بشكل أو بآخر فى المستقبل عندما يكبرون ويعملون؟!..

- لست أظن أن ذلك الغرض وارد فى أذهانهم وهم يقبلون على تعلم اللغة العربية؛ وإنما هم يتعلمونها لأنها لغة الإسلام ولغة للقرآن، اللغة التى نزل بها كتاب الله.. فمن واجب المسلمين أن يتعلموها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.. فتعلم اللغة العربية ومعرفتها وفهمها يتيح لهم فهماً أفضل لعانى القرآن العظيمة.. كما أن المسلم حين يذهب إلى الحج وهو يعرف اللغة العربية فإن ذلك يسهل عليه الأمور كثيراً..

وبهذه المناسبة؛ فإننا ننظم فى كل عام رحلة إلى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج.. وقد ذهبت إلى الحج فى العام الماضى ومعى عشرة من المسلمين المترددين على مسجدنا هذا..

هـ هل هناك علاقة بين مسجد [ساها جيهان] فى [ووكنج] وبين المركز الثقافى الإسلامى الكبير فى لندن؟!..

- طبعاً.. العلاقة بيننا قوية جداً ومتينة جداً.. ومدير المركز الثقافى الإسلامى الكبير فى لندن يعتبر - بحكم وظيفته - عضواً فى مجلس إدارة مسجدنا فى [ووكنج].. والاتصالات بيننا وبين المركز الإسلامى فى لندن دائمة ومتصلة ومباشرة؛ خصوصاً عندما نحتاج إلى مشورتهم وطلب رأيهم فيما يغمض علينا من أمور الإسلام.. فإن معظم الأئمة فيه تعلموا فى الأزهر الشريف، جامعة الإسلام الكبرى عند كل مسلمى العالم..

حضرت صلاة الجمعة فى مسجد [ووكنج] الصغير - أقدم مسجد فى بريطانيا - قبل عودتى إلى لندن.. ترك إمام المسجد الشيخ «بشير أحمد» مكانه لأستاذ

جليل كبير السن والمقام، ليؤم المصلين فى الصلاة ويلقى فيهم خطبة الجمعة باللغة الأوردية، لغة باكستان والهند: الشيخ «عبد الحكيم ولى محمد» مدير (جامعة الفرقانية) المدنية فى [إسلام أباد] فى باكستان.. وهى جامعة إسلامية تعتبر قديمة إلى حد ما، فقد أنشئت منذ نحو خمسين عاماً لتقوم بتعليم اللغة العربية والعلوم الإسلامية بنفس مستوى الدراسات فى الأزهر الشريف فى مصر وفى الجامعات الإسلامية الأخرى فى باقى عواصم العالم الإسلامى.. ويقوم بالتدريس فيها مبعوثون من الأزهر ومن جامعة الدعوة الإسلامية بطرابلس.. عدد الطلاب فيها ٩٥٠ طالباً تتولى الجامعة النفقات الكاملة لـ ٧٠٠ طالب منهم، من مسكن ومأكل ومشرب وملبس وكتب ودواء ومصروف شخصى.. والشيخ «عبد الحكيم ولى محمد» هو ثانى مدير لهذه الجامعة منذ إنشائها.. وهو فى زيارة لبريطانيا لمدة ٤ شهور بدعوة من مسجد [ساها جيهان] فى [ووكنج] للدعوة إلى الإسلام وتعليمه باللغات الثلاث التى يجيدها: الأوردية والفارسية والباشتو، ويقوم بإلقاء خطبة الجمعة كل أسبوع فى المسجد طوال فترة زيارته..

حين بنى مسجد [ووكنج] أو مسجد [ساها جيهان] فى أواخر القرن التاسع عشر كان عدد المسلمين فى هذه المنطقة بضع عشرات تعد على أصابع اليد الواحدة، وفى بريطانيا كلها عدة مئات قليلة.. الآن بلغ عدد المسلمين فى المنطقة ثلاثة آلاف، وعددهم فى بريطانيا يتجاوز المليونين.. اللهم زد وبارك..

أحدث مسجد فى بريطانيا.. كنيسة !!

- ★ لماذا تغلق الكنائس أبوابها وتتجول إلى مرافق و (ديسكو) و (سوبرماركت)؟! ..
- ★ الأفراح والليال الملاح.. فى المساجد!!..
- ★ رئيس الجمعية الإسلامية: مهندس!!..
- ★ سجادة خاصة لكل مصلى داخل المسجد!!..
- ★ المنبر.. وصل فى طرد (من الباب للباب)!!..
- ★ ماذا فعلت مصلحة الجمارك الإنجليزية مع المنبر المستورد؟! ..
- ★ حكاية البر تقالة الموضوعة فوق سطح المسجد؟! ..
- ★ لماذا حاولوا إحراق مئذنة مسجد بريستول؟! ..

فى الشارع الرئيسى فى مدينة [برىستول] الإنجليزىة ، مدينة النسيج الشهيرة فى بريطانيا ، التى تماثل مدينة (المحلة الكبرى) عندنا فى مصر؛ توقفت فجأة عن السير ، وقلت لمحدثى مشدوهاً : «لم أسمعك جيداً.. هل تسمح بأن تعيد ما قلته مرة أخرى ؟! » .. وأعاد محدثى الجملة التى قالها قبلاً.. كانت هى تماماً كما سمعتها فى المرة السابقة.. لا خطأ إذن فى أجهزة الاستقبال عندى.. قلت لمحدثى : «عد بنا إذن حيث كنا.. فإننى أريد أن أرى المكان مرة أخرى برؤية جديدة .

قلت : «تقصد أنه كان فى مكانه كنيسة هدمت وبنى المسجد مكانها ؟! ».. قال ببساطة : «لم أقصد ذلك.. لكنه كان كنيسة ، اشتريناها وهى كنيسة ، وحولناها إلى مسجد ياجراء بعض التعديلات فيها» ! ! .. قلت ودهشتى تزداد : «ذلك المسجد العظيم الفاخر الذى زرته أنا منذ لحظات ؛ كان كنيسة ؟! .. لقد تصورت فى لحظة من اللحظات وأنا بداخله أن كل أحجاره وطوبه وأسمنته وأبوابه ونوافذه قد جاءت من الحجاز أو من مصر» ! ! .. قال مرة أخرى ببساطة : «الحمد لله .. كلامك هذا وسام على صدرى» ..

ومن المهندس المعمارى المصرى الشاب «أحمد سعيد عليوة» سمعت قصة مسجد مدينة [برىستول] من بدايتها..



لأن مدينة [برىستول] ، وهى واحدة من أكبر المدن الإنجليزىة ؛ تعتبر مدينة صناعية تماماً ، فإن إقبال الإنجليز فيها على الكنائس ظل يتناقص وينخفض باستمرار ، شأن كل المدن الصناعية التى تمتص كل قوى العمال فيها فى العمل ؛

بحيث تصبح أيام الأجازات الأسبوعية والعطلات هي فترة الراحة الوحيدة التي تعوض تعب وعناء الأسبوع كله.. فإما هي ساعات نوم أكثر، وإما ترويح وتسلية وترفيه وكرة قدم.. والذهاب إلى الكنيسة لا يندرج تحت أى بند من هذه البنود!!..

وكان نتيجة انخفاض تردد الناس على الكنائس في [بريستول] أن أغلق عدد كبير من هذه الكنائس أبوابه، وتحول بعض منها إلى نوادٍ ومكتبات ثقافية ومشروعات أخرى، وعرض البعض الآخر للبيع العام.. البيع لأى مشتر ولأى غرض.. فكان ما سمعناه من تحول بعض الكنائس في كثير من المدن الأوروبية والأمريكية إلى صالات (ديسكو) أو مراقص أو حتى (سوبرماركت)!!..

وكان في [بريستول] جمعية إسلامية، لكن لم يكن في المدينة مسجد يضم المسلمين وجميعهم وقيمون فيه شعائر الصلاة والاحتفالات الدينية.. فتقدمت الجمعية الإسلامية في عام ١٩٦٦ لشراء كنيسة كانت معروضة للبيع في شارع [جرين ستريت Green Street] في حي [تتر داون] الشعبي في المدينة.. وجمع أعضاء الجمعية من أنفسهم المبلغ المطلوب لثمن الكنيسة.. وكان الثمن بسيطاً وضئيلاً إلى حد لا يتصوره العقل الآن، فهو لا يكاد يشتري غرفة واحدة في بيت متواضع: ألفين فقط من الجنيهات كان ثمن كنيسة [جرين ستريت] التي اشترتها الجالية الإسلامية!!..



ولم تكن الإمكانات المادية للجالية الإسلامية في [بريستول] في ذلك الوقت تسمح بأكثر من رفع اللافتة التي تحمل اسم الكنيسة ووضع لافتة أخرى في مكانها مكتوب عليها اسم المسجد باللغة الإنجليزية [The Bristol Mosque].. وبدأت تستخدم الكنيسة بنفس حالتها تماماً كما هي؛ كمسجد!!.. وكان على المسلم الذي يأتي للصلاة في المسجد - الكنيسة سابقاً - أن يتوضأ في بيته.. فلم يكن بالكنيسة، طبعاً، أماكن مخصصة للوضوء..

وبعد فترة تيسرت إمكانيات مادية قليلة سمحت بإضافة دورات مياه كافية ومكان خصص للوضوء.. لكن الكنيسة من الخارج ومن الداخل ظلت على ما كانت عليه: كنيسة كنيسة.. والذي يمر من أمامها في الشارع لا يراها إلا كنيسة، بالرغم من اللوحة الموضوعة فوق بابها التي تقول أن هذه الكنيسة هي الآن في الحقيقة، مسجد!.. واستمرت الأمور على هذا الحال ١٦ عاماً كاملة، زاد خلالها عدد المسلمين والجالية الإسلامية في مدينة [بريستول] والمناطق المحيطة بها في جنوب غرب بريطانيا، حتى وصل عددهم إلى نحو ستة آلاف أسرة مسلمة.. وبالتالي أيضاً زادت إمكانياتهم المادية وزادت تبرعاتهم لجمعيتهم الإسلامية.. وحين تيسرت، إلى حد ما، الإمكانات المادية المتاحة؛ بدأ التفكير في ضرورة تحويل الكنيسة إلى مسجد حقيقي على الطراز المعماري الإسلامي من الخارج ومن الداخل، بما يؤكد الشعور الديني عند المسلم في أنه (ذاهب إلى المسجد) وأنه (يصلى في مسجد حقيقي) وليس في مسجد يرتدى ثوب كنيسة.. وبدأت حملة لجمع تبرعات لتحويل الكنيسة إلى مسجد حقيقي..

* * *

وكان المطلوب هو إضفاء طابع العمارة الإسلامية على شكل الكنيسة من الخارج، بحيث إنها حين ترى من الشارع يبدو واضحاً أنها مسجد.. مع إجراء التعديلات المعمارية اللازمة للمبنى نفسه من الداخل لتهيئة أكبر مساحة ممكنة لتكون رحبة المسجد تتسع لأكثر عدد من المصلين، وفي الوقت نفسه تخصيص مكان للنساء المسلمات القادمات للصلاة في المسجد، مع عمل مدخل خاص بهن وركن خاص مستقل لوضوئهن بعيداً عن مكان وضوء الرجال طبعاً..

ولما كان اتساع الكنيسة من الداخل كبيراً؛ فقد تضمن المشروع المطروح للتنفيذ تخصيص مكان مناسب للقاءات والاجتماعات والمحاضرات الثقافية والاحتفالات الدينية الخاصة، بما في ذلك احتفالات أو حفلات الزواج.. فإن للمسلمين الباكستانيين والبنجلاديشيين الذين تتكون منهم غالبية الجالية الإسلامية في

[بريستول]؛ لهم تقاليدهم وعاداتهم الخاصة فى احتفالات الزواج.. فبعد أن تتم مراسم الزواج تنصب الموائد ليأكلوا ويشربوا ويمرحوا ويرقصوا وينشدوا أغانيهم وأهازيجهم.. لذا كان من الضرورى أن يتسع المسجد الجديد لاحتفالاتهم أيضاً..



وطرح المشروع للتنفيذ، وتقدمت شركات المقاولات الإنجليزية بعطاءاتها، وكانت أقل ميزانية طلبتها شركة من الشركات هى مبلغ ٣٥٠ ألف جنيه - (كان ذلك فى عام ١٩٨١) - من بينها ٢٥ ألف جنيه فى مقابل التصميمات المعمارية والرسومات الهندسية وحدها.. وكان ذلك المبلغ بعيداً تماماً عن إمكانيات الجمعية الإسلامية والجالية الإسلامية فى المدينة..

وعرضت الجمعية الإسلامية عطاءات شركات المقاولات الإنجليزية على المستشار الهندسى للجمعية، المهندس المعمارى المسلم المصرى «أحمد سعيد عليوة» المدرس بكلية الهندسة بجامعة أسيوط، والذي كان يعد - وقتها - لدرجة الدكتوراة فى العمارة من جامعة [بريستول]، فى موضوع (المحافظة على المباني الأثرية والتاريخية)..

ودرس المهندس «عليوة» التصميمات التى قدمتها شركات المقاولات الإنجليزية لكي يبدى رأيه فيها كمستشار هندسى للجمعية الإسلامية.. فوجد أنه من الممكن جداً ضغط الميزانية التنفيذية التى تطلبها الشركات الإنجليزية، باستخدام مواد أرخص كثيراً من التى اقترحتها الشركة، وتؤدى نفس الغرض تماماً.. فعكف على وضع التعديلات التى يرى إدخالها على المشروع الإنجليزى.. ولما كانت هذه التعديلات كثيرة؛ فقد وجد أنه من الأسهل أن يقوم هو بنفسه، وهو متخصص فى العمارة الإسلامية والتاريخية؛ بوضع مشروع جديد متكامل بكل التصورات للمسجد الجديد، وفى الوقت نفسه لتخفيض التكاليف المطلوبة إلى أقصى حد ممكن.. فإن كل توفير فى النفقات يساوى فى الوقت نفسه إسراع فى إنشاء المسجد الجديد أولاً، وتعجيلاً بتقديم خدماته للمسلمين فى مدينة [بريستول] وفى منطقة جنوب

غرب إنجلترا ثانياً، ثم - ثالثاً؛ وهو الأهم - توفيراً لأموال المسلمين لاستخدامها فى أغراض أخرى، قد يكون من بينها إنشاء مساجد أخرى جديدة فى مدينة [بريستول] وضواحيها.. وفى الوقت نفسه وضع فى تقديره وهو يضع تصميمات المشروع الجديد إمكانية أن يتم تحويل الكنيسة إلى مسجد على مراحل.. بحيث أنه كلما تيسر للجمعية الإسلامية مبلغ جديد من التبرعات أمكن إضافة مرحلة جديدة فى إنشاء المسجد، حتى يستكمل تماماً..

وبالرغم من أن المشروع الجديد للمهندس المصرى كان أكبر من ناحية الإتساع والإمكانات من المشروع الإنجليزى؛ فهو أيضاً كان يتكلف أقل من نصف التكاليف أو الميزانية التى طلبتها الشركات الإنجليزية.. ولم تصدق الجمعية الإسلامية ذلك فى البداية، لكنها رحبت بالمشروع الجديد، بل وطلبت من مستشارها الهندسى أن يقوم هو نفسه بتنفيذ المشروع!!..

ولم يكن ذلك موضوعاً فى اعتباره، فقد صمم المشروع على أساس أن يخفف التكاليف فقط أمام شركة المقاولات الإنجليزية؛ لكن الجمعية الإسلامية ألحت فى أن يقوم المهندس المصرى المسلم بتنفيذ مشروعه بنفسه.. فوافق فى النهاية على ذلك، على شرط واحد، شرط بسيط جداً: هو أن يعتبر تنفيذه للمشروع تطوعاً ومساهمة منه ولا يتقاضى أى أجر عنه، لا عن وضع تصميمات ورسومات المشروع، ولا عن مباشرته لتنفيذه حتى يتم البناء!!..

وقبل أعضاء الجمعية شرط المهندس المصرى، أو بمعنى أصح تطوعه.. لكنهم فيما يبدو كانوا يضمنون أمراً.. فعندما أجريت أول انتخابات بعد ذلك لمجلس الإدارة الجديد للجمعية؛ أصر أعضاء الجمعية - وكلهم من باكستان وبنجلاديش، وليس من بينهم ولا واحد من نفس جنسية المهندس - أصروا على أن يكون هو رئيس مجلس إدارة الجمعية، ولم يرشحوا اسماً غير اسمه؛ فكان انتخابه بالاجماع!!.. وهكذا أصبح رئيس الجمعية الإسلامية فى [بريستول] مهندساً وليس رجل دين، ومصرياً بالرغم من أن الجالية معظمها من باكستان والهند وبنجلاديش!!..

وكانت التغييرات والتعديلات التى أجريت على مبنى الكنيسة القديم لتحويلها إلى مسجد هى :

● هدم السقف المخروطى القديم وتحويله إلى سقف مسجد على طراز العمارة الإسلامى ، وفوقه (قبة) وإلى جوارها مئذنة..

● تغيير شكل أبواب ونوافذ المبنى القديم لتأخذ شكل الأبواب والنوافذ فى العمارة الإسلامية بطابعها المميز..

● تغيير تصميم المبنى من الداخل ، بهدم حوائط وإقامة حوائط جديدة ، حتى يصبح هناك رحبتان للصلاة: الرحبة الأولى تعتبر الرحبة الرئيسية للمسجد على الرغم من أنها الأصغر مساحة ؛ تتسع لـ ٣٠٠ مصلّى فى وقتٍ واحد؛ وهى لإقامة شعائر الصلوات اليومية الخمس لأهالى حى [تتر داون] الذى يقع فيه المسجد ، وأيضاً لصلاة الجمعة حين يأتى المسلمون من مختلف أنحاء مدينة [بريستول] للصلاة فى المسجد.. وتتسع الرحبة الثانية للمسجد ، وهى الأكبر ، لحوالى ٥٠٠ مصلّى آخرين فى حالة صلاة العيدين والمناسبات والأعياد الدينية ، حين يأتى المسلمون من جميع أنحاء المنطقة المحيطة بمدينة [بريستول] من جنوب غرب بريطانيا..

● وفى الوقت نفسه أيضاً تخصيص مكان خاص لصلاة السيدات المسلمات يتسع لـ ٨٠ مصلية فى وقتٍ واحد ، مع تهيئة مكان خاص لوضوئهن ومدخل خاص بهن من الشارع الجانبى بعيداً عن مدخل الرجال..

● إنشاء قاعة كبيرة تستخدم كنادٍ للشباب المسلم.. وتستخدم أيضاً فى المناسبات والاحتفالات الدينية واحتفالات الزواج والأفراح ، والمآتم والعزاء أيضاً ، تستوعب بين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ فرد فى وقتٍ واحد.. وتستخدم أيضاً كساحة إضافية للصلاة وقت اللزوم حين يزيد عدد المصلين عن ساحات المسجد الرئيسية.. أى إن أماكن الصلاة فى المسجد يمكن أن تتسع لأكثر من ١٠٠٠ مصلٍ ومصلية فى وقتٍ واحد..

● تغيير جميع الأرضيات القديمة ، وإعادة دهان المسجد كله من الخارج ومن الداخل..

● فرش ساحات الصلاة بالسجاد ذو الطابع الإسلامى..

● إضافة شقتين كاملتين مؤثنتين فى داخل المسجد، بمدخلين منفصلين عن المداخل الرئيسية للمسجد التى يدخل منها المصلون والمصليات.. واحدة من هاتين الشقتين تخصص لإمام المسجد وأسرتة، والثانية لاستقبال الضيوف الذين يحلون على المسجد أو على الجمعية الإسلامية فى مناسبات مختلفة، كأن يستضيف المسجد قارئاً للقرآن الكريم خلال شهر رمضان، أو محاضراً يحاضر المسلمين فى أمور الإسلام لفترة تطول أو تقصر، فيقيم فى هذه الشقة المعدة الجاهزة دائماً، دون حاجة إلى أن يتحمل المسجد أو الجمعية الإسلامية نفقات إقامته فى فندق تكلف كثيراً، كما يوفر ذلك للضيف الراحة والخصوصية والجو الإسلامى الذى لن يتوفر له قطعاً فى فندق إنجليزى لن يراعى ولن يفكر فى متطلبات الشيخ المسلم الضيف..

وكما قدر المهندس المصرى «أحمد سعيد عليوة»؛ فقد بلغت تكاليف التعديلات التى أجريت لكى تصبح الكنيسة مسجداً حقيقياً؛ بلغت أقل من نصف التكاليف التى طلبتها شركة المقاولات الإنجليزية.. تكلفت ١٧٠ ألفاً من الجنيهات فقط، وكانت الشركة تطلب ٣٥٠ ألفاً.. أى إن المشروع العربى قد وفر للجمعية الإسلامية ١٨٠ ألف جنيه كاملة!!..

وجمع المبلغ كله من التبرعات التى جمعتها الجالية الإسلامية فى المنطقة، بالإضافة إلى التبرعات التى جاءت من مصر ومن السعودية ومن دول إسلامية أخرى، حتى تم تدبير المبلغ المطلوب..

وافتح المسجد، مسجد مدينة [بريستول] بشكله الجديد، بقبته ومئذنته، فى احتفال كبير جاء ليشهده ١٠٠٠ مسلم من مختلف الجنسيات الإسلامية ومن مختلف أنحاء بريطانيا.. جاءوا جميعاً ليشهدوا افتتاح مسجد جديد للمسلمين

يعد الآن واحداً من أكبر المساجد فى بريطانيا كلها.. وجاء أيضاً حاكم المدينة الإنجليزى وأعضاء مجلسى العموم واللوردات الإنجليز عن منطقة [بريستول]، وكبار رجال الدين والمال والأعمال فى المدينة.. ولم يصدق معظمهم أن هذا المسجد كان كنيسة.. فقد اختلفت معالم الكنيسة تماماً وكأنه لم تكن هنا فى نفس هذا المكان كنيسة يوماً ما!!!..

* * *

لفت نظرى فى المسجد الجديد، بعد أن عرفت قصته، أربعة أشياء تثير الانتباه ولابد وأن تثير التساؤل أيضاً: السجاد، المنبر، القبة، المئذنة..
ه الذى يدخل رحبة مسجد [بريستول] الجديد يخلل إليه للوهلة الأولى أن أرضه مفروشة بمئات من سجاجيد الصلاة الصغيرة التى نستخدمها فى بيوتنا لكى يصلح عليها فرد واحد..

- ذلك صحيح، وأيضاً غير صحيح.. فهى فعلاً عدة مئات من السجاجيد الصغيرة.. لكنها فعلاً، أيضاً، سجادة واحدة كبيرة وحدة النقش أو الرسم فيها هى نموذج السجادة الصغيرة!.. ومسجد [بريستول] هو أول مسجد فى العالم يصنع سجادة بهذا التصميم لحسابه وبتكليف منه.. فقد أخذنا سجادة صلاة صغيرة عادية من تلك التى نشترىها من المحلات فى مصر أو السعودية أو سوريا أو أى وطن عربى إسلامى؛ وطلبنا من إحدى شركات السجاد فى بريطانيا أن تصنع لنا سجادة كبيرة بمساحة رحبة المسجد كلها، تكون هذه السجادة الصغيرة هى وحدة النقوش فى السجادة الكبيرة.. فكان السجادة الصغيرة منقوشة أو مطبوعة مئات المرات على مساحة السجادة الكبيرة التى تغطى رحبة المسجد كلها، وكأنها سجاجيد صغيرة مرسومة إلى جوار بعضها، وبحيث تتسع الوحدة الواحدة لمصلى واحد كأنه يقف على سجاده الصغيرة الخاصة.. ليس ذلك فقط؛ بل أن السجادة الكبيرة نفسها مثبتة على أرضية رحبة المسجد بشكل خاص أو بزوايا خاصة تجعل المصلى واقفاً فى اتجاه القبلة بشكل تلقائى بمجرد وقوفه على السجادة..

ولأن أصحاب مصنع السجاد هذا - الذى يعتبر واحداً من أكبر ٣ مصانع للسجاد فى بريطانيا كلها - لأن أصحابه مسلمون سعوديون؛ فحين عرفوا أن هذه السجادة مطلوبة لمسجد جديد؛ فإنهم لم يتقاضوا غير ثمن الخامات فقط، دون مصاريف تشغيل ولا أجور عمال ولا أرباح.. ولو كانت نفس السجادة بنفس المواصفات والمقاسات قد صنعت فى مصنع سجاد آخر إنجليزى لبلغ ثمنها أربعة أضعاف الثمن الذى دفع فيها فعلاً.. وليس ذلك فقط؛ بل إن مدير مصنع السجاد، وهو عربى مسلم؛ قام بنفسه بجمع تبرعات لإنشاء المسجد الجديد بلغت ٩٠ ألف جنيه إسترلينى!!..

منبر مسجد [بريستول] أيضاً لغت نظرى وأثار انتباهى.. لم أستطع أن أصدق أنه يوجد فى [بريستول]، ولا فى بريطانيا كلها، هذا المستوى من النجارين (الأويمجية) المهرة (الدقيين) و (النمكيين) - بتعبيرات أهل المهنة - الذين يستطيعون إخراج مثل هذا المنبر رائع التصميم والتنفيذ.. فلا يمكن أن يكون هذا المنبر إلا من صنع أيدي عربية ومسلمة، لم تصنع شيئاً طول عمرها إلا منابر فقط!!..

- ذلك صحيح أيضاً.. فإن هذا المنبر لم يصنع فى إنجلترا كلها.. وكان وراءه قصة طريفة تستحق أن تروى.. فقد زار المسجد أثناء عملية تحويله صديق مسلم اسمه «عزت عارف»، رجل أعمال مصرى صاحب مصنع أقفال وكوالين وما إلى ذلك.. يعنى ليس له أى علاقة لا بالمنابر ولا حتى بمجرد الأخشاب ذاتها.. لكننا سألناه من باب أنه يعيش فى مصر، ونجارو مصر مشهورون فى صناعة المنابر؛ سألناه إن كان يعرف نجاراً متخصصاً يصنع لنا منبراً للمسجد الجديد، وندفع له تكاليفه وأتعبه.. فوجد بانه سوف يبحث هذا الموضوع حين يعود إلى مصر ثم يخطرنا بالنتيجة.. وسافر عائداً إلى مصر فعلاً وانقطعت أخباره ولم يصلنا منه أى شئ، فتصورنا أنه فى زحمة أعماله ومشغوليته قد نسى الموضوع كله.. حتى

فوجدنا بعودته هو بنفسه ليقول لنا إن المنبر قد تم صنعه فعلاً، وأنه قد شحن من مصر ووصل إلى إنجلترا فعلاً!!.. فلما سألناه عن تكاليف ذلك كله قال أنه هدية منه إلى مسجد [بريستول]!!.. ليس ذلك فقط؛ بل إنه أصر على أن تكون تكاليف نقل المنبر من الميناء الإنجليزي الذى وصل إليه حتى داخل مسجد [بريستول] على نفقته أيضاً.. أى إن تبرعه بالمنبر جاء كاملاً وشاملاً و (من الباب للباب) دون أن يتحمل المسجد أية تكاليف على الإطلاق، حتى إنه دفع قيمة الرسوم الجمركية عنه أيضاً..

وكلمة حق يجب أن يقال هنا.. وهى أن إدارة الجمارك الإنجليزية حين عرفت أن هذا المنبر لمسجد إسلامي وإقامة شعائر الصلاة للمسلمين؛ فإنها لم تتقاض عنه جمركاً، إلا فقط الرسوم الإدارية التى بلغت نحو ١٧٠ جنيهاً.. ورفض المتبرع المسلم «عزت عارف» أن يذكر لنا - حتى من باب العلم بالشيء - تكاليف صنع المنبر حتى لا يعتبر ذلك نوعاً من الـ «مَن».. لكن الخبراء الذين شاهدوا المنبر وفحصوه قالوا إن تكاليفه تصل ما بين ٥ آلاف و٦ آلاف جنيه إسترليني، أى ما بين ٥٥ إلى ٦٥ ألف جنيه مصري!!.. وكان ذكاء التصميم الهندسي للمنبر أنه صمم بحيث يمكن تركيبه وإقامته فى مدى نصف ساعة فقط.. فقد جاء المنبر مفكوكاً ومعه خريطة تشرح خطوات تركيبه.. وفعلاً قمنا بتركيبه فى أقل من نصف ساعة..

* * *

قبة مسجد [بريستول]؛ أيضاً فيها شيء يستوقف النظر.. فبالرغم من أن فيها كل سمات ومواصفات أى قبة مسجد عادية؛ إلا إننى قد خيل إلى أنها تشبه برتقالة ضخمة، أو بمعنى أدق: فصوص برتقالة ضخمة!!.. - ذلك أيضاً صحيح.. فالقبة هى أيضاً لها قصة.. فحين فكرنا فى إضافة قبة ومئذنة إلى الشكل الجديد للمسجد؛ اعترض البعض، على اعتبار أن ذلك سوف يكلف كثيراً و (العين بصيرة والإيد قصيرة).. يعنى أن الإمكانيات المتاحة قليلة ولن تحتل إقامة قبة ولا مئذنة.. وفى الوقت نفسه فإن البعض الآخر كانت وجهة نظرهم أن المسجد لا يكون مسجداً إلا إذا كان له قبة ومئذنة..

ولما طرحنا عطاء تنفيذ القبة والمئذنة على شركات المقاولات الإنجليزية كان أقل مبلغ طلبته هذه الشركات هو ٨٥ ألف جنيه.. وكان ذلك كافياً لأن نعدل عن الفكرة من أساسها.. لكننا بدأنا نجتمع بممثلي شركات المقاولات الإنجليزية لنحاول تخفيض ذلك المبلغ بقدر الإمكان.. وأثناء المناقشات قفز اقتراح بالأنصنع القبة من الصلب ثم نكسوها بالأسمنت كما كنا نفكر؛ لكن أن نصنعها من مادة جديدة اسمها [G.R.P]، وهى عبارة عن طبقات من الألياف الزجاجية معجونة مع أصماغ، فتعطى مادة فى نفس قوة الصلب، وأخف من الخرسانة كثيراً..

وبدأنا نجرى تجارب ومحاولات مع هذه المادة الجديدة، ونخفض التكاليف، ثم نجرى تجارب ومحاولات أخرى، ونخفض التكاليف مرة أخرى، وهكذا.. فهبطت التكاليف من ٨٥ ألف جنيه إلى ٦٥ ألفاً، ثم إلى ٤٠ ألفاً، ثم ٣٥ ألف جنيه.. وقالوا لنا إن ذلك هو أقصى تخفيض ممكن لتكاليف تنفيذ القبة بشكلها الحالى.. فمن هذه النقطة، نقطة (شكلها الحالى)؛ بدأنا نناقشهم من جديد: فإذا غيرنا فى (شكلها الحالى) بصورة أو بأخرى، على أن تظل محتفظة فى النهاية بكونها قبة طبعاً؛ هل هناك إمكانية الوصول إلى تخفيضات أخرى؟!.. فكان الاقتراح الذى لفت نظرك نتيجته: ألا تكون القبة جزءاً واحداً أو (صبة واحدة)؛ وإنما عبارة عن مجموعة وحدات هندسية تشبه فعلاً فصوص البرتقالة، تجميعها إلى جوار بعضها يعطينا شكل القبة كاملاً.. لكن لأن (القالب) نفسه سيكون صغيراً مما يسهل عملية الصب، وبالتالي تنخفض التكاليف بنسبة كبيرة..

ونفذنا هذه الفكرة فعلاً؛ فانخفضت التكاليف من ٨٥ ألف جنيه للقبة وحدها؛ إلى ١٥ ألف جنيه للقبة والمئذنة معاً، بما فى ذلك التركيب والدهانات وكل شئ!!..!!

● السلطات البريطانية فى [بريستول]؛ ألم تعترض على إقامة قبة ومئذنة للمسجد؟!.. بل ألم تعترض أصلاً على إقامة المسجد ذاته؟!..

– على الإطلاق لم يكن هناك أى اعتراض.. بل إن حاكم المدينة الإنجليزي قد جاء ليشترك فى الاحتفال بافتتاح المسجد الجديد كما ذكرت قبلاً.. إنما التحفظ الوحيد كان هو ألا تكون هناك مكبرات صوت يذاع من خلالها الآذان للصلاة.. لأنه غير مسموح فى بريطانيا – ولعله فى أوروبا كلها – بأى شئ يزعج الناس، ولا حتى التراتيل المسيحية مسموح بإذاعتها من الكنائس بمكبرات صوت.. يعنى أن الاعتراض لم يكن على المئذنة فى حد ذاتها؛ وإنما الآذان فقط هو الذى أعترض عليه حتى لا يوقظ النائمى الآخرين غير المسلمين من نومهم فى الفجر.. وقبلنا طبعاً ذلك الاعتراض لأنه من الأصل فى بلد كبريطانيا عسير وصعب جداً أن تقام صلاة الفجر فيه.. بل وحتى باقى الصلوات الأخرى إذا تعارضت مع مواعيد العمل الرسمية هنا..

وقد حدث شئ غريب جداً عندما كنا نقوم بتركيب مئذنة المسجد فى مكانها فوق المسجد.. فعندما تم تجهيز المئذنة ووصلت من المكان الذى صنعت فيه؛ أسندناها على جدار المسجد حتى يتم تركيبها بعد يومين.. وفى أثناء الليل جاء بعض الشبان المتشردين المتصليكين الإنجليز من الذين يسمونهم هنا الـ [بانكس] أو الـ [إسكينز] الذين يكرهون كل شئ وكل الناس ويرفضون أى شئ وكل شئ، وهم الذين خربوا وحرقوا المدن الإنجليزية فى العام السابق.. جاءوا ليلاً وحاولوا إحراق المئذنة المتروكة خارج المسجد بأن سكبوا عليها بنزيناً ووضعوا تحتها خرقاً مشتعلة.. واشتعلت الخرق فعلاً وسببت ناراً كبيرة.. لكن بعد إطفاء النيران اتضح أنها لم تستطع أن تحرق المئذنة ولم تؤثر فيها على الإطلاق ولا بخدش بسيط!.. فإما أن المادة المصنوعة منها المئذنة غير قابلة للحريق؛ وإما أنها قدرة الله تعالى التى أرادت أن تحمى مئذنة بيت الله!..

● فى مسجد [بريستول] خمسة أئمة معينون متفرغون لهذه المهمة، تدفع لهم مرتباتهم من حصيللة التبرعات التى تصل إلى الجمعية الإسلامية من مسلمى المنطقة..

● مسجد [بريستول] يتبعه وملحق به ٣ مدارس لتعليم اللغة العربية وأمور الدين وتحفيظ القرآن.. يتلقى فيها ٦٠٠ تلميذ وتلميذة الدروس الدينية والقرآن الكريم وتعاليم الدين الإسلامي.. واحدة من المدارس الثلاث في مبنى المسجد نفسه، والأخريان تابعتان للمسجد أيضاً لكنهما في أماكن أخرى في أحياء المدينة تيسيراً على التلاميذ الذين يسكنون في هذه الأحياء.. والمدارس الثلاث مفتوحة طوال أيام الأسبوع، يأتي إليها التلاميذ والتلميذات في الساعة الرابعة عصراً بعد انتهاء اليوم الدراسي العادي في مدارسهم الإنجليزية، ليدرسوا فيها لمدة ساعتين حتى السادسة مساءً..

● في مدينة [ميدنهيد] القريبة من مدينة لندن؛ أراد المسلمون أن يبنوا مسجداً؛ فطلب مهندس التصميمات الإنجليزي ٣١ ألف جنيه إسترليني لكي يضع الرسومات والتصميمات فقط.. فلجأوا إلى الجمعية الإسلامية في [بريستول] يطلبون معونتها.. فتطوع، مرة أخرى، المهندس المصري المسلم «أحمد سعيد عليوة» لوضع تصميمات مشروع مسجد مدينة [ميدنهيد] وقدمها هدية بلا مقابل.. وكان تعليقه على ذلك: «إنني كمسلم لم أقدم شيئاً ليس له مقابل.. لكنني أشتري الآخرة»!!..

وهل هناك أشهر من شكسبير؟!

★ أشهر مدينة في بريطانيا بعد لندن هي ستراتفورد.

★ تذكرة واحدة تتيح لك زيارة كل بيوت شكسبير.

ليست العواصم وحدها هى التى تنتج النجوم والعباقرة والأدباء والفنانين الكبار..
القرى أيضاً تصدر للعواصم مواهبها التى ربما لو ظلت فى هذه القرى لعاشت وماتت
دون أن يشعر بها أحد.. القرى تصنع المواهب وتصدرها للعواصم تصقلها وتلمعها
وتعطيها الفرصة لتتألق وتزدهر وتصبح نجوماً..

- جمال عبد الناصر من قرية (بنى من) فى أسيوط..
- أم كلثوم من قرية (طماى الزهايرة) بالسنبلاوين بالدقهلية..
- الزعيم أحمد عرابى من قرية (هرية رزنة) فى محافظة الشرقية..
- عميد الأدب العربى دكتور طه حسين من قرية (عزبة الكيلو) بالمنيا..
- عباس محمود العقاد عملاق الأدب العربى من أسوان..
- مصطفى لطفى المنفلوطى من منفوط..
- رفاعة رافع الطهطاوى من طهطا..
- عبد الحليم حافظ من قرية (الحلوات) فى الشرقية..
- الشيخ محمد متولى الشعراوى من قرية (دقادوس) مركز ميت غمر..
- أنور السادات من قرية (ميت أبو الكوم) فى المنوفية..
- حسنى مبارك من قرية (كفر المصلحة) فى المنوفية أيضاً..

لا غرابة إذن فى أن يكون أشهر شعراء إنجلترا «ويليام شكسبير» أيضاً قد جاء من
قرية إنجليزية صغيرة اسمها [ستراتفورد - أبون - إيفون STRATFORD - UPON
AVON -] فى مقاطعة [ووريكشاير WARWICKSHIRE] فى وسط إنجلترا..
ومعناها [ستراتفورد التى تقع على نهر إيفون]. قرية صغيرة لعلها لازالت كذلك

بالمقاييس الإنجليزية.. لكن مولد «ويليام شكسبير» فيها جعلها أشهر قرية في العالم، وربما يمكن أن تسمى الآن [قرية شكسبير] أو [مدينة شكسبير].. فالقرية الآن أصبحت ليست فقط مدينة صغيرة؛ بل إن كل شىء فيها أصبح شكسبيرياً: مؤسسة شكسبير للمسرح، مسرح - بل مسارح - شكسبير، مكتبة شكسبير، معرض شكسبير، فندق شكسبير، شارع شكسبير، المدرسة التى تعلم فيها الصبى ويليام شكسبير، البيت الذى ولد فيه شكسبير (بيت أمه)، بيت شكسبير نفسه الذى اشتراه بفلوسه بعد أن أصبح شكسبير وعاش فيه سنواته الأخيرة، ومات فيه، بيت ابنة شكسبير الوحيدة، بيت حفيدة شكسبير الوحيدة أيضاً، حتى بيت حماة شكسبير أم زوجته.. كلها أصبحت مزارات سياحية هامة.. ولا يجىء أديب أو مثقف من أى أنحاء العالم إلا وكانت [ستراتفورد - أبون - إيفون] فى أولويات زيارته لإنجلترا..

* * *

لكن تعالوا أولاً نطل إطلالة سريعة على الإقليم نفسه الذى تقع فيه ستراتفورد، إقليم أومقاطة [ووريكشاير].. ينقسم هذا الإقليم إلى قسمين: غابة [آردن ARDEN] فى الشمال، ومنطقة العصور الوسطى فى الشرق وفى الجنوب.. واستقر الشكل العام الآن بأن منطقة الغابات قد تحولت إلى مجموعة من القرى الصغيرة تزرع أهم وأفضل المحاصيل الزراعية فى إنجلترا، وأصبحت مكاناً هادئاً مريحاً لسكانه من أهل الريف الإنجليزي.. ويمر بالمنطقة كلها نهر [إيفون AVON] الذى يبدأ من الشمال الشرقى حتى يصل إلى وادى [إيفشام THE VALLY OF EVESHAM]..

وقرية [ستراتفورد - أبون - إيفون] الصغيرة أصبحت مدينة الآن بعد أن كانت مجرد قرية صغيرة.. فى شوارعها الممتدة الطويلة تتجاور المباني مختلفة الطرازات من العصور الإنجليزية الوسطى - وعندما نقول العصور الوسطى فإن المقصود بها ما بين القرن الخامس الميلادى والقرن السادس عشر - إلى جوار المباني التى على طراز ال[جورجيان] وال[ستيوارات].. وليس من رأى كمن سمع، فإذا كنت لم

تر المدن الإنجليزية القديمة فلن تستطيع أن تتخيل هذه الطرازات كلها.. أنا لم أكن أعرفها ولم أكن أعرف الفرق بين الـ [جورجيان] والـ [ستيوارت] إلا بعد أن رأيتهما بعيني وشرحو لى الفرق بين هذا وذاك.. البيوت المبنية بالحجر وليس بالخراسانة وحديد التسليح.. ذلك لا يمنع أن بعض مدن الإقليم مبنية على الطرز المعمارية الحديثة لأنها أصلاً بنيت كلها فى العصور الحديثة..

* * *

وقد شهدت هذه المنطقة جانباً من الحرب الأهلية الإنجليزية التى قادها عضو البرلمان الإنجليزي الثائر «أوليفر كرومويل» ضد الملك «تشارلز الأول»، التى انتهت بانتصار «كرومويل» وقطع رأس الملك وإقامة جمهورية فى إنجلترا لسنوات قليلة، نحو ١١ سنة، من ١٦٤٩ إلى ١٦٦٠، يعنى بعد وفاة شكسبير بأكثر من ٣٠ سنة، حتى مات كرومويل فعادت الملكية إلى إنجلترا وتولى الملك «تشارلز الثانى» ابن «تشارلز الأول» الذى أعدمه «كرومويل»، العرش الإنجليزي مرة أخرى..

* * *

أشهر مدينة فى بريطانيا بعد لندن العاصمة، هى ستراتفورد.. لكن ذلك بسبب شكسبير فقط.. فهى ليست مدينة عظيمة ولا حتى مدينة كبيرة، لكن تظل قيمة ستراتفورد الكبيرة أنها مسقط رأس أشهر شعراء إنجلترا التى ولد فيها وعاش فيها طفولته كلها وصباه ومطلع شبابه، فإنه لم يغادرها إلى لندن العاصمة إلا بعد أن تجاوز العشرين من عمره.. ولم يكن فى ذهنه وقتها ولا خطر على باله أن يكون شاعراً ولا كاتباً مسرحياً؛ لكن كل الذى كان يشغله ويفكر فيه هو أن يصبح ممثلاً مسرحياً - فلم تكن السينما قد ظهرت بعد فى العالم - ففعلاً فى البداية ولعدة سنوات كان ممثلاً، وممثلاً لأدوار صغيرة ولم يكن له أبداً اسم كبير فى عالم التمثيل المسرحى.. ولم يبدأ اسمه فى الظهور واللمعان والتألق إلا بعد أن بدأ يكتب الشعر، ثم بعده يكتب للمسرح.. وحتى فى البداية لم يكن يكتب وحده بل بالاشتراك أو بالتعاون مع كتاب مسرح آخرين، لكنه حين كتب وحده لمع وتألق وأصبح أهم شاعر إنجليزى فى عصره، وفى كل العصور بعد ذلك، حتى الآن..

وقد يكون (كلام شعراء)؛ لكن واحداً من الشعراء المهمين فى تاريخ الأدب الإنجليزي: [توماس فولار THOMAS FULLER] وصف ستراتفورد والمنطقة المحيطة بها بأنها (صورة مصغرة للجنة)!! .. أنا شخصياً - يمكن لأننى لست شاعراً - لا أرى أنها صورة مصغرة للجنة ولا حاجة.. أولاً لأن أحداً لم ير الجنة نفسها حتى يحكم بأن هذا المكان أو ذاك يشبه الجنة.. وثانياً أننى عندما زرت ستراتفورد وجدتها مجرد قرية إنجليزية كبيرة عادية جميلة ككل القرى الإنجليزية.. لكن يبدو أنه عندما كتب الشاعر الإنجليزي هذا الوصف فى ستراتفورد لم يكن قد رأى قرى إنجليزية غيرها، أو أنه كان مدلهياً فى حب شكسبير إلى حد القمقعة فى الوصف..



ستراتفورد لازالت تحتفظ بطابعها القديم حين بدأت تظهر على خريطة إنجلترا فى القرن السابع الميلادى، وكانت معظم مبانيها تبنى من خشب البلوط والأحجار وجذوع الأشجار مما يجعلها ذات طابع مميز جداً ومتفرد جداً.. ربما لأن الغابات ذات الأشجار القوية الضخمة كانت منتشرة جداً فى المنطقة المحيطة بها.. وكان بدء ظهور اسم ستراتفورد كقرية فى التاريخ الإنجليزي فى أواخر القرن السابع، عام ٦٩١، حين أقيم دير للرهبان فى أرض خلاء، فهكذا الأديرة دائماً تقام فى الصحراء أو فى الأماكن المتطرفة بعيداً عن الناس وعن العمران.. لكن سرعان ما نشأ وتكون حول وبالقرب من هذا الدير مجتمع زراعى صغير ظل يكبر وينمو مع الوقت حتى أصبح قرية صغيرة هى ستراتفورد، ثم قرية كبيرة، ثم مدينة صغيرة، وبين كل مرحلة وأخرى عدة مئات من السنين.. وفى القرن الثانى عشر سمح الملك الإنجليزي بإقامة سوق فى قرية ستراتفورد.. فقد كانت الأسواق فى ذلك الوقت لا تقام إلا بإذن خاص من الملك شخصياً!! .. كان الملوك زمان فاضيين وماوراهمش حاجة ينشغلوا بيها فكانوا هم المسيطرين على كل الأمور وأصغر الأمور، بما فيها التصريح بإقامة الأسواق فى القرى.. ولازالت ستراتفورد تحتفل بهذا التاريخ فى

١٢ أكتوبر من كل عام وكأنه عيدها القومي.. «ناس رايقة..» وكان الراعى الرسمى - كما يقال الآن - لسوق ستراتفورد وكل أنشطتها «سير هيو كلوبتون HUGH CLOPTON» أحد كبار أعيان المنطقة، الذى أصبح فيما بعد عمدة مدينة لندن، العاصمة، نفسها..

وبدأت ستراتفورد تصبح منطقة سياحية يجيئها الزوار من كل مكان فى العالم لكى يشاهدوا مسقط رأس الشاعر ويليام شكسبير من عام ١٦٢٣، بعد وفاته عام ١٦١٦ بسبع سنوات.. وأصبحت بيوت شكسبير الخمسة: بيوت أمه وحماته وابنته ثم حفيدته، وبيته هو شخصياً، ثم المدرسة التى تعلم فيها، مزارات سياحية هامة.. وحتى التاريخ الإنجليزى يقول عن هذه المدرسة: [المدرسة التى لا بد وأن يكون شكسبير قد تعلم فيها].. بمعنى أنه ليس من المؤكد أن يكون شكسبير قد تعلم فى هذه المدرسة، وبالتالي ولا فى أى مدرسة غيرها، لأنه لم يكن فى ذلك الوقت فى ستراتفورد غير مدرسة واحدة هى هذه المدرسة، وكانت مدرسة دينية تبشيرية لأن مدرسيها الأربعة (١١) جميعاً كانوا من الكاثوليك تخرجوا فى جامعة أوكسفورد، التى كانت فى بدايتها جامعة دينية لتدريس علوم الدين، المسيحى طبعاً، مثل جامعة الأزهر عندنا فى مصر زمان قبل تحولها إلى جامعة عاذية تدرس طب وهندسة وزراعة.. وشكسبير، بالمناسبة، لم يدخل الجامعة ولا كان له أى علاقة بها، مع أن أشعاره ومسرحياته تدرس فى جامعات العالم كله الآن.. الموهوب لا يحتاج إلى شهادة جامعية مختومة بختم النسر، وملايين تخرجوا فى الجامعات وعاشوا وماتوا دون أن يشعر بهم أحد..

وأخذتنى «جيليان هال»، دليلى فى ستراتفورد، وهى أستاذة جامعية، إلى هذه المدرسة، مدرسة [الملك إدوارد KING EDWARD]، فى الشارع الرئيسى فى ستراتفورد، وأدخلتنى فضلاً قالت لى إنه الفصل الذى كان فيه التلميذ الصغير «ويليام جون شكسبير»، وأجلستنى إلى (تخته) معينة - كنا نسميها هكذا أيام

دراستنا الابتدائية والثانوية في مصر ولا أعرف ماذا يسمونها الآن، (قمطن) يمكن - وقالت لي إن هذه التختة بالذات هي التي كان يجلس عليها التلميذ ويليام شكسبير.. ولابد أنها (تختة) متينة الصنع جداً، ربما من الصلب، حتى تعيش نحو ٤٠٠ سنة حتى الآن وتظل تنتظرني لأجلس إليها أنا الذي ولدت بعد وفاة شكسبير بـ ٣١٨ سنة!!..

الشيء الطريف الذي حدث في ستراتفورد وكان ممكناً أن يحدث في أي مكان في مصر؛ فعلى رغم أنني كنت مدعواً لزيارة ستراتفورد من هيئة السياحة البريطانية ومرافقتي أستاذة جامعية هي الدكتورة «جيليان هال»؛ إلا إن الست ناظرة المدرسة رفضت أن أصور في المدرسة بحجة أن أحداً لم يخطر بزيارتي!!.. لكن بمجرد أن أعطتنا الست الناظرة ظهرها سمح لي معاون المدرسة بأن أصور كل ما أريده وحتى لو أردت أن آخذ معي وأنا خارج التختة التي كان يجلس عليها شكسبير فاتفصل، ماتغلاش عليك..

لكن الشارع الذي فيه مدرسة شكسبير أصبح الآن الشارع الرئيسي التجاري HIGH STREET في المدينة الصغيرة.. وهو شارع تتجاور فيه المباني القديمة جداً التي ربما عاصرت ويليام شكسبير، إلى جانب المباني الحديثة جداً وكل فروع المحلات الكبيرة في لندن العاصمة..

والآن؛ قبل أن نغرق في تاريخ شكسبير وحكايات شكسبير وبيوت آل شكسبير؛ تعالوا أولاً نتجول قليلاً ونستطلع ستراتفورد نفسها وما يمكن أن نراه فيها بالإضافة إلى شكسبير..

● أهم معالم ستراتفورد الآن هو الـ[RSC] أو [الشركة الملكية لشكسبير THE ROYAL SHAKESPEARE COMPANY] التي أنشأها في عام ١٩٦٠ الممثل والمخرج المسرحي الإنجليزي الكبير «بيتر هول» PETER HALL تضم ٣ مسارح كلها

فى ستراتفورد، وكلها تعمل وتقدم عروضها على مدار السنة.. أكبرها وأوسعها وأهمها الذى يطلق عليه [مسرح شكسبير الملكى THE ROYAL SHAKESPEARE THEATRE]، ويطلق عليه اختصاراً [الملكى THE ROYAL]، الذى بنى عام ١٩٣٢ وبه أكبر خشبة مسرح فى العالم، وهو أكبر مسرح لتقديم الكلاسيكيات فى العالم، ليس فقط مسرحيات شكسبير لكن أيضاً كبار كتاب المسرح فى عصره أوالذين عاصروه، وحتى الجيل الحالى من الكتاب المسرحيين.. وهو يضم أيضاً معرضاً أو متحفاً للأزياء والملابس التى استخدمت على مر العصور فى مسرحيات شكسبير الشهيرة + معرض للرسومات التى رسمها رسامون من كل أنحاء العالم لشكسبير فى مختلف العصور.. ثم [مسرح البجعة THE SWAN THEATRE] وهو مسرح شبه مكشوف بنى على الطراز الإليزابيثى الذى كان موجوداً أيام كان ويليام شكسبير نفسه موجوداً.. المسرح الثالث يسمى [الكان الآخر THE OTHER PLACE] وهو مسرح صغير يقدم العروض المسرحية الصغيرة الحديثة..

● مكتبة شكسبير أو مركز شكسبير فى [هينلى ستريت HENLEY STREET] فى وسط مدينة ستراتفورد وتطل على نهر AVON مباشرة.. وهى ليست المكتبة التى كانت فى بيت شكسبير ولا حتى المكتبة العامة فى القرية التى كان يقرأ فيها هو؛ لكنها مكتبة حديثة تبيع كل مسرحيات شكسبير التى طبعت بمعظم لغات العالم، ومن بينها اللغة العربية، وأشعاره، وكل الكتب التى تتحدث عن شكسبير وتاريخ شكسبير، مدحاً أو نقداً، وتعرض كل الوثائق والمخطوطات والأوراق المتعلقة بشكسبير + أيضاً تسجيلات بالصوت وبالصورة لكل مسرحيات شكسبير.. اشتريت مجموعتين من الأعمال الكاملة التى تضم كل مسرحيات شكسبير الـ ٣٨: مجموعة لمكتبتى فى بيتى اللندنى والثانية لمكتبتى فى بيتى القاهرى، فقد أحاطها يوماً ما، هنا أو هناك..

● تستطيع أن تستمتع برحلة نهريّة فى نهر AVON فى مراكب وبواخر نهريّة نزلت إلى هذا النهر لأول مرة فى عام ١٨٩٨، يعنى من نحو ١١٠ سنوات، ولا زالت

تعمل حتى الآن.. اطمئن فلن تغرق أى واحدة منها بعد، لأنك فى إنجلترا ولست فى مصر وليس اسمها عبارات السلام..

● أو تستطيع أن تركب الأوتوبيس السياحى الذى لا سقف له، المفتوح من أعلاه إلى السماء.. تذكرته صالحة لمدة ٢٤ ساعة، وتستطيع أن تنزل منه وتعود إليه فى ١٤ محطة يقف فيها - من بينها كل البيوت الخمسة التى تنتمى إلى شكسبير - لكى تتمكن من مشاهدة كل معالم ستراتفورد على راحتك، وتستطيع أن تتركه فى أى محطة لكى تستريح قليلاً أو تتفرج على المكان بغير استعجال أو لكى تدخل أى بيت من بيوت شكسبير، أو حتى لكى تتناول غداءك فى أى مطعم من عشرات المطاعم المتناثرة فى كل مكان وأيضاً تلبى كل الأذواق: هندى صينى مصرى لبنانى عربى تركى أمريكى يابانى، وكل مطعم منها يعلق على واجهته الزجاجية من الخارج أسعار الوجبات فيه لكى تحسبها وتراجع ميزانيتك قبل أن تدخله.. أما إذا رأيت ألا تغادر الأوتوبيس فى أى من هذه المحطات الـ ١٤ فإن الرحلة كلها سوف تستغرق ساعة واحدة..

● وإذا كنت حضرتك قلبك جامد وتحب المغامرة وأعصابك تتحمل أن تركب (منطاد) - ويسمونه هنا (بالون) - لمدة ٣ أو ٤ ساعات، وكانت ميزانيتك تتحمل أن تدفع ١٤٩ جنيهًا - إسترلينياً - زيادة، وكانت زيارتك لستراتفورد فى الفترة بين أول أبريل وآخر أكتوبر، ودفعت آخر قسط فى بوليصة التأمين على حياتك التى سوف تقبضها زوجتك إذا حدث لا قدر الله حاجة كده والا كده من الفصول البايخة التى تحدث أحياناً؛ فإنك تستطيع أن تركب هذا المنطاد، أو البالون، لكى تتفرج من ارتفاع شاهق على كل معالم المنطقة والمناطق المحيطة بها.. وسوف يقدمون لسعادتك شمبانىا على المنطاد احتفالاً بتشريفك - أو ربما لافاقتك - وسوف تنزل من المنطاد بعد هذه الجولة وفى يدك شهادة مطبوعة بأنك قد (ارتكبت) هذه الجولة، التى فعلتها أنا وظللت طوال وقتها وأنا أشعر أننى قد ألقيت بنفسى إلى التهلكة وأن رحلة هذا المنطاد أو البالون لن تنتهى على خير.. ولم أكن لأفعلها

أو أقوم بها أصلاً لو كنت سأدفع من جيبي الشخصى ١٤٩ جنيهًا إسترلينياً = نحو ١٦٠٠ جنيه مصرى ؛ لولا أنني كنت مدعوًا من هيئة السياحة البريطانية ومش غرمان حاجة ..

● حان الآن موعد الغداء .. أهم المطاعم والكافيتيريات والبارات فى ستراتفورد فى شارع اسمه [SHEEP STREET] أو شارع - لا مؤاخذه - الغنم !! .. أخذتني «جيليان هال» إلى كافيه اسمه [THE DIRTY DUCK] أو [البطة القذرة] !! .. الناس هنا يسموا أسماء غريبة ليه ؟! .. الغنم ، والبطة القذرة .. طيب بطة ومعلش ؛ لكن قذرة ليه ؟! .. إيه الجمال أو الظرف فى أنها تكون قذرة ؟! .. لكن الغداء كان رائعاً .. وعرفت أن هذا الكافيه بالذات ، لقربه من مسرح شكسبير الملكى ؛ فإن معظم الممثلين الذين يشتركون فى تقديم عروض مسرحيات شكسبير على المسرح الملكى ؛ يهرعون بملابس التمثيل خلال فترات الاستراحات بين الفصول لكى يستريحوا قليلاً فى [البطة القذرة] ويأخذوا لهم ساندوتشين - أو ربما كأسين - قبل أن يعودوا إلى خشبة المسرح .. لذا فقد تكون سعادتك محظوظاً إذا فوجئت بأن الجالس على المائدة المجاورة لك هو الملك لير أو هاملت أو عطيل ، ويا سلام لو كانت أوفيليا أو ديدمونة أو جوليبيت ..

● انتهى الغداء دون أن أرى أوفيليا أو ديدمونة أو جوليبيت ، يبدو أنهم لا يجئن ظهراً .. نكمل جولتنا فى ستراتفورد .. أيضاً فى شارع اسمه [شارع شكسبير] معرض للدراجات والموتوسيكلات من مختلف العصور منذ ظهورها فى الشارع الإنجليزى حتى الآن .. لم أستطع أن أعرف لماذا اختاروا ستراتفورد بالذات مقراً لهذا المعرض بالذات .. ربما لأن أول من اخترع الدراجة ثم الموتوسيكل كان من نفس المنطقة .. ربما ..

● وأيضاً [متحف الأسلحة والدروع] فى شارع SHEEP STREET .. الذى يضم أشكالاً وألواناً من الأسلحة والدروع التى استخدمت فى الحروب الإنجليزية منذ

٦٠٠ سنة.. وكانوا فى أوقات الحروب يلبسون دروعاً معدنية تغطى الجسم كله من الرأس إلى القدم والوجه أيضاً.. كيف كانوا يتحركون بهذه الأثقال الحديدية بل ويحاربون بها؟!.. لكنهم كانوا يفعلون على أى حال..

● وأيضاً متحف للسيارات منذ بدايتها حتى الآن.. لكن السيارة اختراع إنجليزى غالباً بدأه الخواجة «فورد» الكبير، الذى لازالت السيارة الـ (فورد) تحمل اسمه حتى الآن.. الطريف أن كلمة (FORD) فى اللغة الإنجليزية تعنى شيئاً ظريفاً جداً: المنطقة الضحلة من النهر، أى نهر، التى يستطيع الإنسان أن يعبر من خلالها النهر من ضفة إلى الأخرى سائراً على قدميه أو راكباً (ركوبة): حصان حمار أى حاجة ممكن تمشى على أربع، أو حتى راكباً سيارة لن تغرق منه فى هذه المنطقة الضحلة من النهر!..

● من الآثار الهامة أيضاً فى ستراتفورد [بيت هارفارد HARVARD HOUSE] الذى بناه فى عام ١٥٩٦ - فى حياة شكسبير، وكان شكسبير نفسه عمره ٣٢ سنة وقتها - الجد الأكبر لـ «جون هارفارد».. هذا البيت كان ملكاً للسيدة «كاترين روجرز» والدة «جون هارفارد» الذى كانت المنحة المالية التى تبرع بها كافية لإنشاء الجامعة التى تحمل اسمه فى بوسطن فى أمريكا، [جامعة هارفارد]، التى أصبحت بعد ذلك أهم وأشهر جامعة فى أمريكا كلها وواحدة من أشهر جامعات العالم، مع جامعتى أوكسفورد وكمبريدج الإنجليزيتين.. ورداً على هذا الكرم الإنجليزى من «جون هارفارد» قام المليونير الأمريكى، من شيكاغو، «إدوارد موريس» بشراء بيت [هارفارد هاوس] فى ستراتفورد حين عرض للبيع بعد وفاة صاحبه «كاترين روجرز» وأهداه إلى جامعة هارفارد.. ولما كانت الجامعة لا تستطيع نقل البيت المتبرع به من ستراتفورد فى إنجلترا إلى بوسطن فى أمريكا؛ فقد أبقت البيت فى مكانه فى ستراتفورد لكى ينضم إلى قائمة مزارات مدينة ستراتفورد الهامة، وتديره المؤسسة التى ترعى وتدير كل متعلقات شكسبير فى ستراتفورد..

● ومادمنّا قد وصلنا إلى سيرة أمريكا، فإنا أمريكا لها أيضاً شيئان آخران فى ستراتفورد.. الأول: الفسقية الأمريكية فى شارع [روبرت ستريت]، و[برج الساعة

THE CLOCK TOWER] الذى كان هدية من الشعب الأمريكى لإنجلترا فى عام ١٨٦٦ بمناسبة اليوبيل الفضى لتسولى الملكة «فيكتوريا» عرش إنجلترا.. الملكة «فيكتوريا» هى صاحبة أطول مدة حكم الملك أو ملكة فى تاريخ إنجلترا.. فقد تولت العرش لمدة ٦٠ سنة حتى ماتت سنة ١٩٠١.. وحفيدتها الملكة الحالية «إليزابيث الثانية» موشكة الآن أن تلحق بجدها فى أطول مدة حكم، فهى قد تولت عرش بريطانيا بعد وفاة أبيها الملك «جورج السادس» فى عام ١٩٥٢ يعنى منذ ٥٦ عاماً حتى الآن، ولسه..

● وفى حديقة [بانكروفت BANCROFT] سوف ترى تماثيل ليس فقط لـ «ويليام شكسبير» وحده؛ لكن أيضاً تماثيل أخرى لأبطال مسرحياته الشعرية: ليدى ماكبث، هاملت أمير الدانمرك، الأمير هال، الملك لير، فولستاف، روميو وجولييت، عطيل وديدمونة، وغيرهم..

● كنيسة [هولى ترينيتى HOLY TRINITY CHURCH] فى [ترينيتى ستريت] التى عمرها ٧٠٠ سنة الآن.. وهى الكنيسة التى تم فيها تعميد الطفل «ويليام جون شكسبير» عند مولده فى ٢٣ أبريل عام ١٥٦٤، ومن قبله، ومن بعده، أسرته كلها: آل شكسبير كلهم.. يعنى كانت الكنيسة التى تذهب إليها الأسرة كلها كل يوم أحد وفى الأعياد الدينية المسيحية وفى المناسبات الأخرى المختلفة: زواج، وفاة، ميلاد.. ففيها أيضاً تزوج الشاب الذى لم يكن مستقبلاً قد تبين بعد «ويليام جون شكسبير» من عروسه «آن هاثاواى».. وأقول إن مستقبلاً لم يكن قد تبين بعد لأنه كان عمره عندما تزوج ١٨ سنة ولم يكن قد بدأ أى شىء فى حياته بعد، لا كان قد مثل للمسرح، وهو فعلاً مثل للمسرح بعد ذلك، ولا كان قد كتب شعراً ولا مسرحيات بعد، كل هذه أشياء جاءت متأخرة كثيراً فى حياته.. وفى هذه الكنيسة أيضاً دفن الشاعر المسرحى الأشهر فى ٢٣ أبريل، أيضاً، عام ١٦١٦، بعد زواجه بـ ٣٣ سنة، وبعد أن أصبح نجم النجوم فى المسرح الشعرى الإنجليزى، ودفنت فيها أيضاً زوجته «آن هاثاواى»، ثم ابنته «سوزانا» وزوجها الطبيب

«جون هول»، ثم حفيدته «إليزابيث» وزوجها «توماس ناش».. وهى واحدة من أجمل الكنائس فى إنجلترا.. وسوف تزور الكنيسة مجاناً دون أن تدفع رسم دخول.. أما إذا أردت أن ترى بعينيك مدفن شكسبير نفسه فسوف تدفع جنيتها واحداً..

وبما أننى كنت ضيفاً على هيئة السياحة البريطانية فإننى رأيت قبر شكسبير دون أن أدفع شيئاً، بل وجعلتنى مرافقتى «جيليان هال» أرى أيضاً الصفحة، المفتوحة دائماً، فى سجلات الكنيسة التى فيها اسم الطفل «ويليام جون شكسبير» يوم تسميته!.. وبالمناسبة: فإن اليوم القومى أو العيد القومى لمدينة ستراتفورد هو يوم ذكرى ميلاد، ووفاة، مجدها وفخرها وعزها الشاعر ويليام شكسبير فى ٢٣ إبريل من كل عام.. المثير للدهشة، مثل أوى، هو أن شكسبير ولد ومات فى نفس التاريخ: ٢٣ أبريل!.. ولد فى ٢٣ إبريل عام ١٥٦٤ ومات فى ٢٣ أبريل عام ١٦١٦..

بالمناسبة أيضاً والشئ، بالشئ، يذكر.. فقد كنت أظن أن مرافقتى أستاذة الجامعة تفعل ذلك وتكون دليلتى فى جولتى فى ستراتفورد التى استمرت ثلاثة أيام؛ متطوعة حباً فى أدب وعظمة ابن بلدها ومجد بلدها شكسبير؛ لكن اتضح لى فى نهاية الزيارة أنها تعمل فى أوقات فراغها مرشدة سياحية ثقافية بالأجر، وتتقاضى أجراً بالساعة عن مرافقتى، أنا أو غيرى من الضيوف المهمين عند هيئة السياحة البريطانية!..

وبالمناسبة كذلك: يستقبل السياح المهمين المهتمين بالآداب والثقافة والفنون «بول رينجار»، وهو نفسه كاتب وأديب ومخرج مسرحى مهم، ليس ذلك فقط؛ بل كان رئيساً لقسم الدراما فى كلية [كنج ألفريد كوليدج KING ALFRED'S COLLEGE]..

● الحديقة التى كان يجلس فيها الشاب «ويليام شكسبير» بالساعات يستجدى الوحي والإلهام قبل أن يرحل إلى لندن العاصمة.. اسمها [تشارلكوت بارك CHARLECOTE PARK] وتعرض فيها الغزلان حرة طليقة تجرى هنا وهناك..

● تستطيع أيضاً أن تزور [قلعة ووريك WARWICK CASTLE] التى حين عرضت للبيع اشتراها متحف ما ودفع فيها مليونى جنيه، ثم أنفق على تجديدها مليونى جنيه أخرى.. عظمة ورائعة وقطعة من التاريخ الحقيقى فعلاً وكأنك ركبت (آلة الزمن) وعدت بها عدة مئات من السنين فى التاريخ الإنجليزى إلى الوراء..

● أقمت الأيام الثلاثة التى قضيتها فى ستراتفورد فى الغرفة رقم ١٠٣ فى فندق [شكسبير هوتيل SHAKSPEARE HOTEL].. وهو فندق قديم وعتيق، لكن ذلك لا يبرر أبداً أن يكون اسم شكسبير الضخم المكتوب على باب الفندق به خطأ إملائى: ينقص حرف [E] فى منتصف الاسم!!.. لكن كل شىء هنا مرتبط ومتصل بشكسبير.. وعندهم حق طبعاً..

وإذا كنت سعادتك تنوى أن تقضى ليلة أو عدة أيام فى ستراتفورد وميزانيتك تسمح بذلك؛ فإن ٢٤٧ فندقاً وموتلاً وبنسيوناً من مختلف المستويات التى تناسب جيبك ستكون فى إنتظارك، ابتداءً من فنادق ال ٥ نجوم نزولاً لغاية نجمة واحدة، وبعضها أيضاً بدون نجوم وبدون رتب على الإطلاق..

لماذا أكرر دائماً، عندما تجىء سيرة شكسبير، أسماء إنجلترا ولا أقول بريطانيا، وأقول إنجليزى وإنجليزية ولا أقول بريطانى وبريطانية؟!.. لأنه لم تكن هناك بريطانيا أيام شكسبير.. كانت هناك إنجلترا وأسكتلندا وويلز، ٣ ممالك مستقلة فى جزيرة واحدة، كل واحدة منها لها ملك أو ملكة، اتحدت كلها تحت إسم [المملكة المتحدة UNITED KINGDOM] فى يناير عام ١٧٠٧، يعنى بعد وفاة شكسبير بأكثر من ٩٠ سنة، ثم انضمت إليها أيرلندا الشمالية بعد ذلك لتصبح بريطانيا. وبالمنااسبة أيضاً؛ فإن اسم [GREAT BRITAIN] لا يعنى [بريطانيا العظمى] كما نترجمها نحن؛ وإنما يعنى [بريطانيا الكبرى] كما يقال الآن عن مدينة لندن [GREATER LONDON] بمعنى [لندن الكبرى] لأن أجزاء من الأقاليم المتاخمة للندن العاصمة قد ضمت إليها فأصبحت كبيرة أو كبرى، وكما نقول فى مصر عن

القاهرة [القاهرة الكبرى] لأنها الآن بعد توسعها وامتدادها أصبحت تضم مدينة الجيزة والدقى وإمبابة والمهندسين وبوراق الدكرور من محافظة الجيزة، وشبرا الخيمة من محافظة القليوبية..

* * *

الآن، موعدنا لزيارة بيوت شكسبير الخمسة فى ستراتفورد.. وهذه البيوت الخمسة هى: بيت أسرته الذى ولد فيه شكسبير - بيت أسرة زوجته الذى ولدت فيه «آن هاثاواى» - بيت شكسبير نفسه الذى عاش فيه سنواته الأخيرة ومات فيه - بيت ابنته الوحيدة «سوزانا» - بيت حفيدته «إليزابيث».. وهذه البيوت الخمسة الآن تمتلكها وتديرها كمزارات سياحية هيئة اسمها [شكسبير بيرثبليس ترست SHAKESPEARE BIRTHPLACE TRUST]، بعد أن آلت إليها من ورثة شكسبير أنفسهم أو اشترتها من الذين تملكوها بعد وفاة أصحابها الشكسبيريين.. ومهمة هذه الجمعية أن ترعى تراث الشاعر الإنجليزي العظيم.. وتعمل هذه الجمعية من الأموال المتحصلة نتيجة رسوم الدخول لمشاهدة هذه البيوت من الداخل، وهى ليست رسوماً قليلة قياساً على أن معظم المتاحف والمزارات الإنجليزية - والعالية عموماً - زيارتها بالمجان؛ لكنها - الجمعية - على أى حال فتحت باب الاشتراك فيها والانضمام إلى عضويتها فى مقابل ٢٥ جنيه إسترلينياً تسمح للعضو بالتردد وزيارة هذه البيوت الخمسة فى أى وقت ولأى عدد من المرات على امتداد عام كامل.. والبيوت الخمسة تقع كلها إما فى داخل ستراتفورد نفسها وإما حولها قريباً منها.. الجمعية أيضاً تقدم منحاً دراسية للدارسين من أنحاء العالم المهتمين بشكسبير وأدب شكسبير وأشعار شكسبير ومسرح شكسبير..

* * *

تعالوا الآن نزور بيوت آل شكسبير الخمسة..

أولها: بيت [مارى آردن MARY ARDEN'S HOUSE].. بيت والدته.. ولست متأكداً بالضبط من الذى سمى بيت أسرته باسم والدته وليس باسم أبيه، وأيضاً

من الذى سمى بيت أسرة زوجته باسم أمها وليس باسم أبيها؟!.. هل هو شكسبير نفسه الذى سمى هذين البيتين هكذا أو الذين أرخوا لحياة شكسبير هم الذين سموها هكذا؟!.. فى الوقت الذى سمى فيه بيت ابنته باسم زوجها وبيت حفيدته باسم زوجها؟!.. لم أجد فى مئات الصفحات التى قرأتها عن سيرة حياة شكسبير تبريراً واحداً لذلك.. لكن ربما لأن للإنجليز تقاليدهم التى لا نستطيع نحن أن نستوعبها بسهولة..

المهم: بيت والدة شكسبير اسمه [بيت مارى آردن] أو [تيمودور فارم هاوس TUDOR FARM HOUSE] فى شارع [هينلى HENLEY STREET] فى قرية [ويلمكوت WILMCOTE] على بعد ٣ أميال أو أكثر قليلاً من ٥ كيلومترات فى شمال غرب ستراتفورد.. والإنجليز يقولون [FARM HOUSE] كما نقول نحن فى مصر [العزبة] أو كما يقول الشوام [الضيعة].. وهو بيت عظيم وفاخر جداً بمقاييس تلك الأيام، مبنى من الطوب وخشب البلوط وجذوع الأشجار كعادة البيوت الكبيرة فى ذلك العهد.. الأب مستر [روبرت آردن ROBERT ARDEN]، جد [ويليام شكسبير] لأمه؛ بالإضافة إلى أنه كان من كبار الأعيان المزارعين؛ فهو أيضاً كان رجلاً نشيطاً جداً ومثابراً جداً وصحته مساعداه؛ حتى إن «مارى آردن» والدة شكسبير كانت الابنة رقم ٨ له!!..

تدخل هذا البيت فتشعر أنك قد ركبت (آلة الزمن) مرة أخرى وعادت بك ٤٠٠ سنة إلى الوراء ودخلت بيتاً بقى على ما كان عليه عندما ولد ونشأ وتربى الطفل الصغير ثم الصبى ثم الفتى [ويليام جون شكسبير].. فترى الغرفة التى كان ينام فيها وكأنه يادوب لسه خارج منها منذ لحظات ليذهب إلى مدرسته، وترى غرفة المائدة التى كان، والأسرة، يتناولون طعامهم فيها وكأنهم لسه مخلصين الغداء أو العشاء فيها الآن حالاً.. كل الأثاث الذى ستراه فى البيت إما هو فعلاً الأثاث الأصلى نفسه الذى كان موجوداً أيام طفولة وصبا شكسبير وإما هو صورة طبق الأصل أعيد صنعها لتكون مطابقة للأثاث الذى كان يناسب حياة أسرة من الطبقة المتوسطة

من ٤٠٠ سنة.. الملابس المعلقة فى الدواليب وعلى الجدران قد لبسها الولد الصغير ثم الصبى اليفع «ويليام» فى أيامه.. الورشة الصغيرة التى كان والده الخواجة شكسبير الكبير «جون شكسبير» يصنع فيها القفازات (الجوانتيات)، الملحقة بحديقة البيت الجميلة التى طالما وصفها شكسبير وتغزل فيها فى مسرحياته الشعرية.. وسوف تجد فى البيت أيضاً على مائدة صغيرة نسخة من الطبعة الأولى لأعماله المسرحية الكاملة، التى نشرت فى عام ١٦٢٣، أى بعد وفاة شكسبير نفسه بسبع سنوات كاملة.. والبيت وحديقته والمنطقة الخضراء من حوله تجعلك تستطيع، أنت وأسرتك وأطفالك، أن تقضى يوماً كاملاً فى نزهة خلوية وكأنك فى القناطر الخيرية مثلاً.. وهذه العزبة أو الضيعة التى يتوسطها هذا البيت، تضم أيضاً حظائر للخيول، وأخرى للأبقار، وطاحونة كبيرة لطحن القمح اللازم لعمل الخبز، فقد كان الخبز يعمل فى البيوت، حتى فى مصر، حتى عهد قريب، وكان فى كل بيت فرن كبير أو صغير حسب احتياجات وحجم البيت، ومعمرة كبرى للزيوت وغيرها، صوامع لحفظ الغلال و (خزين البيت).. وخارج نطاق الضيعة ورشة حدادة كانت تخدم احتياجات الضيعة، ومعسكر – إذا استطعنا تسميته هكذا – للغجر أو الGYPSEY.. وقد آلت هذه الضيعة كلها وهذا البيت الفخم الضخم الذى ولدت فيه «مارى آردن» والدة شكسبير ثم ولد فيه شكسبير نفسه وأخوته السبعة، إلى المؤسسة أو الهيئة التى تضم وترعى كل بيوت آل شكسبير فى عام ١٩٣٠، لكى يصبح أهم المزارات السياحية فى إنجلترا كلها.. وإن كان هذا البيت الشكسبيرى لم يعتبر رسمياً من الآثار إلا فى عام ١٨٤٧.. يعنى بعد نحو ٢٥٠ سنة على وفاة شكسبير! ..

وبالمناسبة: البيت الذى ولد فيه شكسبير غير البيت الذى مات فيه.. البيت الذى ولد فيه، كما رأينا، كان ملكاً لأسرة والدته ثم ملكاً لأبيه بعد ذلك، وظلت أسرة شكسبير تتوارثه أكثر من قرنين من الزمان حتى أوائل القرن التاسع عشر، ثم آل بعد ذلك فى عام ١٨٤٧ إلى مؤسسة شكسبير، التى اشترته بحصيلة تبرعات من

المواطنين الإنجليز، وأعيد ترميمه وصيانته حتى عاد إلى حالته الأصلية التي كان عليها أيام أن ولد وعاش فيه الطفل والصبي والفتى الذى أصبح فخر إنجلترا كلها «ويليام شكسبير».. لكن البيت الذى مات فيه اشتراه الشاعر شخصياً من حر ماله ومكاسبه من كتابة مسرحياته الشهيرة فى الأدب الإنجليزى والمسرح الإنجليزى، ودفع فيه مبلغاً لا يستهان به فى عملة تلك الأيام: ٦٠ جنيهًا كاملة!.. وكان ثانى أكبر وأهم بيت فى القرية الصغيرة كلها!!

وسوف تجد، كالاعتاد فى كل الأماكن والمزارات السياحية، عدداً من المطاعم الصغيرة ومحلات بيع الهدايا التذكارية منتشرة حول البيت الذى شهد مولد وطفولة وصبا أشهر كاتب مسرحى فى العالم؛ فلا تعود من زيارتك لبيت مولد شكسبير و(إيدك فاضية)، فلا بد من عدد من التذكارات تضعها فى بيتك أنت شخصياً فى القاهرة أو فى أى مكان؛ تذكراً ودليلاً على أنك قد زرت بيت شكسبير ودخلت غرفة نومه وغرفة الجلوس والحديقة والمطبخ، ويمكن الحمام أيضاً..

ملحوظة سريعة: من اللائق وأنت ذاهب لتزور بيت ناس لأول مرة أن تدخل عليهم وأنت تحمل لهم شيئاً فى يدك.. فـ، وأنت داخل لزيارة بيت آل آردن [MARY ARDEN'S HOUSE] اخرج محفظتك من جيبتك لتشتري تذكرة دخول بخمسة جنيهات و ٧٠ بنساً إذا كنت ذاهباً وحدك، ولو معك زوجتك ستدفع ١١ جنيهًا و ٤٠ بنساً، ولو معكما أطفال، أياً كان عددهم ستدفع ١٣ جنيهًا ونصف ثمن تذكرة عائلية، أما إذا ذهب أطفالك وحدهم فسوف يدفع كل منهم جنيهين ونصف فقط..

«مارى آردن» والدة شكسبير، اسم أسرتها [آردن] على اسم نهر [ARDEN] كما نسمى عندنا فى مصر أحداً أو أسرة على اسم نهر قريب من موطن الأسرة، كاسم زميلنا الصحفى الكبير «زكريا نيل» أو اسم «فريدة الزمر» على اسم (ترعة الزمر).. لماذا سمى بيت أسرة شكسبير بإسم والدته [بيت مارى آردن]؟!.. لأنه بيت

أسرتها أصلاً الذى ولدت فيه «مارى» نفسها وعاشت ونشأت وترعرعت وكبرت فيه حتى تزوجت فيه «جون شكسبير» الأب وأنجبت فيه أبناءهما الثمانية.. وواضح من نسب الأسرتين: آردن وشكسبير، أنهما كانتا من الطبقة المتوسطة أوروبياً دون المتوسطة، حتى تتزوج «مارى» من (صانع قفازات)، يعنى يعتبر إلى حد ما عامل يشتغل بيده.. على رغم أنه قد أصبح يعد ذلك (باشمخص) قد الدنيا فى بلدية ستراتفورد» ثم من كبار تجار ستراتفورد وعضواً بالمجلس المحلى بها وما يماثل (العمدة) لقريته، لكنه أفلس تماماً قبل أن يموت فى عام ١٦٠١، قبل وفاة ابنه الشاعر الكبير «ويليام شكسبير» بـ ١٥ سنة.. والمكتوب فى تاريخ أو سيرة شكسبير أن الأب «جون شكسبير» جاء من ضاحية قريبة من ستراتفورد اسمها [سنيترفيلد SNITFIELD] ليتزوج «مارى آردن» فى عام ١٥٢٩ واستقرا فى هذا البيت فى عام ١٥٥٢ حيث أنجبا أولادهما الـ ٨.. الطفل «ويليام جون شكسبير» كان الثالث فى الترتيب، بعد بنتين: «جوان» و «مارجريت» ماتتا قبل أن يولد فى عام ١٥٦٤ (!!).. التواريخ واسعة شوية أو ربما واسعة كثير: شكسبير الأب ومارى آردن الأم تزوجا فى عام ١٥٢٩ وظلا بلا إنجاب حتى تذكرنا، فبدأ فى الإنجاب بعد زواجهما بنحو ٣٥ سنة.. ده إيه الصبر ده كله.. كانوا مستنيين إيه؟! ثم إذا عرفنا أن السيدة والددة شكسبير قد تزوجت من السيد والده وهى فى السابعة والعشرين من عمرها؛ إذن هل كان عمرها ٦٢ سنة حين أنجبت ثالث أطفالها الثمانية «ويليام شكسبير»، ثم أنجبت بعده ٥ أطفال آخرين: جيلبرت - جوان أخرى (بدل فاقد) - آن - ريتشارد - إدموند؟!.. فإذا عرفنا أنه كان بين الابن الأكبر «ويليام» والابن الأصغر «إدموند» ١٦ سنة كاملة؛ إذن فالسيدة «مارى آردن» ظلت تنتج أطفالاً حتى كان عمرها ٧٨ سنة؟!.. أشياء كثيرة ليست واضحة ولا مفهومة، ولا حتى منطقية، فى سيرة وتاريخ أعظم شعراء إنجلترا!!..

ومن بين هذه التواريخ الغريبة أيضاً أن تكون «مارى آردن» قد تزوجت «جون شكسبير» الأب وعمرها ٢٧ سنة وهو عمره ١٩ سنة، يعنى أصغر منها بـ ٨

سنوات.. ثم تتزوج «آن هاثاوى» من «ويليام شكسبير» الابن وعمرها ٢٦ سنة وهو عمره ١٨ سنة، يعنى أن الزوج فى الحاليتين أصغر من الزوجة بـ ٨ سنوات!!.. ولست أعرف - الآن - ما إذا كان سن الـ ٢٦ أو الـ ٢٧ للنبث فى ذلك العصر يعتبر كبيراً «وفاتها سن الزواج، يعنى بالعربى المصرى أو بالمقاييس المصرية أصبحت عانساً فيزوجونها لمن هو أصغر منها بهذا القدر الكبير من السنين؟!، وأيضاً أقل منها كثيراً فى المستوى الاجتماعى.. فشكسبير الأب كان مجرد (صانع قفازات) فى التاسعة عشرة من عمره؛ بينما كانت أسرة «آردن» ليست فقط أغنى كثيراً بل أيضاً أعرق كثيراً يرجع تاريخها إلى عصر الـ [أنجلو ساكسون]..

أيضاً مسألة مثيرة للاستغراب، قليلاً، أن تكون «مارى آردن» أصغر ٨ أخوات، وأن يكون «ويليام شكسبير»، ابنها، واحداً من ٨ إخوة؟!.. هل كان ٨ أبناء فى ذلك العهد البعيد رقماً عادياً؟!.. ثم هل كان الصبيان فى عصر شكسبير يتزوجون وهم فى مرحلة المراهقة هكذا بينما تتزوج البنات فى سن متأخرة، نسبياً، هكذا؟!..

سطر سريع قبل أن أنتقل من هذه الفقرة: كل إخوة شكسبير، صبيان وبنات، ماتوا فى حياته هو، ماعدا أخته «جوان / ٢» كانت هى الوحيدة التى عاشت بعده..

* * *

عودة إلى «ويليام شكسبير» نفسه قبل أن نترك بيت الأسرة الذى ولد فيه: تاريخه المنشور والمعروف حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره ليس فيه أى شىء يذكر.. قال عنه صديقه وزميله الكاتب المسرحى أيضاً «بن جونسون BEN JONSON»: إن ويليام شكسبير قد تعلم فى مدرسة ستراتفورد الحكومية، وإنه كان بليداً فى اللغة اللاتينية، وأبلد فى اللغة اليونانية!!.. على الأقل فقد عرفنا الآن أن التلميذ فى المدرسة الابتدائية الإنجليزية فى ذلك العصر، من ١٥٠ سنة، كان يدرس ٣ لغات على الأقل: الإنجليزية، لغة وطنه، واللاتينية واليونانية.. لكن: ألم يكن جيلنا

نحن أيضاً يفعل نفس الشيء بين المدرسة الابتدائية والمدرسة الثانوية - فلم يكن على أيا منّا توجد المدرسة الإعدادية التي لم تظهر على ساحة التعليم في مصر إلا بعد أن تخرج جيلنا في الجامعات - فكنا ندرس في المدرسة الابتدائية اللغة العربية، طبعاً، واللغة الإنجليزية بقدر كافٍ جداً يجعلنا نقرأ ونكتب بها ونمتحن فيها امتحاناً عسيراً، ثم حين نبدأ مرحلة الثانوى تضاف إلينا اللغة الفرنسية كلغة أجنبية ثانية.. كنا أيضاً في مصر ندرس ٣ لغات.. وذلك للعلم وشكراً..

لكن يبدو أن القليل الذى تعلمه شكسبير في المدرسة كان كافياً لأن يشتغل (كاتب محامى) في ستراتفورد بعد أن ترك الدراسة، وفي أعمال أخرى ربما أقل من ذلك..

عودة إلى شكسبير.. قال عنه «بن جونسون» أيضاً: إنه عندما كان الصبى ويليام شكسبير في الحادية عشرة من عمره فى عام ١٥٧٥ حدث نوع من الوباء فى مدينة لندن العاصمة، جعل الملكة «إليزابيث الأولى» تهرب من العاصمة إلى الريف الإنجليزي إلى قلعة [كينيلورث KENILWORTH CASTLE] بالقرب من ستراتفورد لتقضى بضعة أيام فى ضيافة صاحب القلعة [لورد ليستر LORD LEICESTER]، بحجة أن تحضر الاحتفالات التى أقيمت فى المنطقة بمناسبة زيارتها لها.. وأن هذه الزيارة الملكية هى التى حركت خيال الصبى «ويليام شكسبير» ليبدأ مشوار الشعر والمسرح الشعري.. فما أن بلغ سن ٢٣ سنة - بعد خمس سنوات من زواجه وإنجابه ٣ أطفال - حتى ترك قريته ستراتفورد ليذهب إلى لندن العاصمة ويبدأ مشواره الطويل فيها: حارساً للخيول التى يتركها أصحابها على باب المسرح قبل أن يدخلوا لمشاهدة المسرحيات المعروضة، ثم فى وظيفة تشبه الساعى الذى يعمل فى خدمة الممثلين، ثم ممثلاً فى البداية لسنوات عديدة لأدوار صغيرة فى عدة مسرحيات تحت اسم مستعار هو [شيكشافت SHAKESHAFT].. يعنى لم يكن ممثلاً كبيراً ولا حتى مهماً ولم يرق ببطولة ولا حتى أدوار ثانية فى تلك المسرحيات، فى العصر الذى كان ممثلو المسرح يصنفون مع المجرمين والصعاليك

والعواطفية، مثلما كان ممثلو المسرح فى بداية عهده فى مصر يسمون (المشخصاتية) وكانوا محتقرين ومنبوذين لا تزوجهم العائلات المحترمة بناتها ولا تقبل شهادتهم فى المحاكم!..! وبدأ ظهور شكسبير كشاعر فى عام ١٥٩٣ وعمره ٢٩ سنة، يعنى بعد ٦ سنوات من وجوده فى لندن، بقصيدته الشهيرة [فينوس وأدونيس THE RAPE OF LUCRECE] ثم فى السنة التالية [اغتناب لوكريس VENUS AND ADONIS]..

وحين أنشأ [جيمس بوربيج JAMES BURBAGE] مسرح الـ [جلوب THE GLOBE] فى لندن لكى يمثل عليه ابنه «ريتشارد» الذى كان أكبر وأهم ممثل مسرحى فى عصره، وكان «ريتشارد» صديقاً لشكسبير فضمه إلى المسرح الجديد ثم ما لبث أن أصبح شريكاً فيه.. وبدأ يكتب مسرحياته الـ ٣٨ وعمره ٣٦ سنة، ثم حين اشترى مسرح الـ [جلوب] فى عام ١٦٠٨ مسرح [بلاك فرايرز BLACKFRIARS THEATER] المسمى على اسم الحى القريب من وسط مدينة لندن الذى يوجد به المسرح، كما نسمى عندنا فى مصر (مسرح الأزبكية) على اسم المنطقة التى بها المسرح، أو (مسرح محمد فريد) على اسم الشارع الموجود به المسرح.. وكان مسرح [بلاك فرايرز] هو مسرح الطبقة الراقية الأرستقراطية وأولاد الذوات والنبلاء فى لندن العاصمة فأصبح للشعب كله مثل مسرح الـ [جلوب].. وكتب شكسبير مسرحياته الـ ٣٨ كلها فى خلال ١٦ سنة فقط، ليصبح بعدها أول وأكبر وأهم ٣ شخصيات فى الأدب الإنجليزى مع تشارلز ديكنز (بورنموث ١٨١٢) وأوسكار وايلد (لندن ١٨٥٤).. وقد نشرت ١٨ من هذه المسرحيات فى كتب فى حياة شكسبير، ثم نشرت كلها فى مجلد واحد فى عام ١٦٢٣ بعد وفاته بـ ٧ سنوات، ثم نشرت بعد ذلك مئات المرات فى معظم لغات العالم وحتى وقتنا هذا..

لكن بعد وفاة الملكة «إليزابيث الأولى» فى عام ١٦٠٣ وتولى العرش بعدها الملك «جيمس الأول»، الذى يبدو أنه كان من عشاق المسرح ومن المعجبين بشكسبير؛ تغير وضع ممثلى المسرح فى إنجلترا، فقد وضع الملك مسرح الـ [جلوب] تحت الرعاية

الملكية، ليس ذلك فقط؛ بل عين كل فنانى المسرح فى بلاط جلالة الملك !! ..
وبدأت مسرحيات شكسبير تعرض فى القصور الملكية وقصور الأمراء والنبلاء.. يعنى
بدلاً من أن يذهب الملك والأمراء والنبلاء إلى المسرح، يذهب المسرح إليهم !! ..

* * *

«شبعتم من سيرة آل شكسبير وأسرة شكسبير!؟».. تعالوا ننتقل إلى الضفة
الأخرى فى الموضوع: بيت أسرة زوجة شكسبير..

بيت [آن هاثاواى ANNE HATHAWAY'S COTTAGE] يوجد على بعد
أقل من ميلين غرب ستراتفورد فى قرية أخرى اسمها [شوتري SHOTTERY]..
وعلى رغم أنه يسمى [COTTAGE] بما قد يعنى أنه مجرد (شاليه) أو بيت ريفى
صغير جداً من طابق واحد وربما غرفة واحدة؛ إلا أن بيت «آن هاثاواى» فى الحقيقة
لم يكن «شاليه» على الإطلاق؛ إنما كان بيتاً كبيراً مكوناً من ١٢ غرفة وملحق به
حديقة كبيرة أو مزرعة مساحتها ٩٠ هكتاراً (الهكتار أكبر من الفدان).. وفى ذلك
الزمان لم تكن الحداثى الملحقة بالبيوت تزدان فقط بالورود والرياحين والأشجار
الظليلة؛ إنما كانوا أيضاً يزرعون فيها الفواكه والخضراوات والتوابل والبقول التى
يحتاجها البيت.. وقد بنى هذا البيت قبل القرن الخامس عشر، وكان اسمه عندما
تزوج شكسبير من «آن» [مزرعة نيو لاند NEWLAND FARM].. ولم تدخل عليه
بعض التعديلات البسيطة غير بعد وفاة شكسبير ثم زوجته «آن هاثاواى» نفسها..
غرف النوم فى الطابق العلوى، والسرير مصنوعة من خشب البلوط وذات ٤ أعمدة
فى كل الجوانب - سرير جدتى كان كده - واحد من هذه السرير ولدت عليه «آن
هاثاواى» نفسها، فلم تكن مستشفيات الولادة قد ظهرت بعد.. كل النساء فى ذلك
العصر، وبعده بعبور كثيرة، كن يلدن فى بيوتهن، وكان ممكناً أن يشهد السرير
الواحد أجيالاً متعاقبة من الولادات..

هذا هو البيت الذى ولدت فيه «آن هاثاواى» ونشأت وترعرعت وكبرت وتزوجت
من «ويليام شكسبير» وعمره ١٨ سنة فقط بينما كانت هى عمرها ٢٦ سنة.. قصة

زواج أبيه وأمه تتكرر مرة أخرى بنفس التفاصيل، فقد تزوج أبو شكسبير من أم شكسبير وعمره ١٩ سنة وعمرها هي ٢٧ سنة!!

ويليام شكسبير وآن هاثاواى تزوجا فى نوفمبر عام ١٥٨٢.. واسمع ما يقوله المؤرخون النمامون الخبثاء الذين بحثوا ونقبوا ونكشوا فى أسرار شكسبير العائلية جداً: ليس هناك أى دليل أو وثيقة رسمية، ولا حتى فى كنيسة ستراتفورد، بأن زواج شكسبير وآن هاثاواى قد تم فعلاً!!.. لم يجد المؤرخون الذين بحثوا فى سجلات كنيسة وورستر [WORCESTER] غير سجل زواج باسم WILLIAM SHAXPERE و ANN WHATELEY (!!). والمؤرخون غير مقتنعين على الإطلاق بأن هذا الزواج المسجل فى سجلات الكنيسة باسمين مختلفين عن SHAKESPEARE و HATHAWAY وإن كان الاسمان يشبهان لهما.. يعنى نعود فنقول: إن زواج شكسبير وآن هاثاواى ليس مسجلاً فى الكنيسة، إن كانا قد تزوجا فعلاً أصلاً.. «أمال أنجبا هؤلاء الأبناء الثلاث إزاي» منذ نحو ٤٠٠ سنة فى عصر لم تكن فيه التقاليد مطاطة وكاوتش كما هو الحال الآن فى إنجلترا وفى كل أوروبا وربما فى العالم كله.. الآن ممكن أن يعيش رجل وامرأة شاب وشابة معا لمدة ١٠٠٠ سنة دون زواج ودون كنيسة ودون مكتب تسجيل، وينجبا ٦٠٠٠ طفل يستخرجان لهم جميعاً شهادات ميلاد حكومية مختومة وموثقة فيها اسم الأب واسم الأم، دون أن يهتزمش البابا فى روما ودون أن يقلق منام شيخ الأزهر أو يتصدى لهما الشيخ القرضاوى ويرفع عليهما قضية حسبة ويفرق بينهما.. يفرق بينهما إزاي إذا كانا غير متزوجين أصلاً.. العمارة التى أسكن فيها فى لندن فيها ٨٠ شقة يعيش فى كل شقة رجل وامرأة وممكن أطفال.. شقتان فقط تزوجا فى الكنيسة، ٤ شقتان تزوجا فى مكتب التسجيل فقط، الـ ٧٤ شقة الباقية لا راحوا كنيسة ولا شافوا مكتب تسجيل، يعنى جدعنة كده!!..

وعلى رغم ذلك؛ فإن المؤرخين الرذلين لم يسكتوا.. فأيضاً فشلوا فى العثور على، أو تتبع، زواج هذين المدعويين SHAXPERE و WHATELEY وأين راحا بعد

أن تزوجا في الكنيسة، فلم يعثروا لهما على أثر في المنطقة كلها التي لم يكن فيها أصلاً عائلات بهذين الاسمين.. مما زاد الأمر غموضاً والعودة إلى نقطة البداية: إذا كان اللذين تزوجا في الكنيسة بأسماء SHAXPERE و WHATELEY هما بالفعل WILLIAM SHAKESPEARE و ANNE HATHAWAY فلماذا تزوجا بأسماء مستعارة؛ ولم يكن ويليام شكسبير قد أصبح مشهوراً بعد حتى يحتاج إلى أن يخفى زواجه؛ بل كان يادوب ولد عمره ١٨ سنة يتزوج بنت عمرها ٢٦ سنة، وكلاهما من أسرة معروفة ومشهورة في المنطقة، حتى لو قيل - برضه من بعض المؤرخين الفضوليين النكاشين - أن «آن» وقت زواجهما كانت حاملاً في شهرها الثالث؛ فكيف قبلت الكنيسة الإنجليزية في زمن التقاليد المتشددة في إنجلترا؛ أن تسجل زواجاً كهذا والعروس بطنها قدامها قاد كده.. ثم ماذا عن الأبناء الثلاثة الذين حملوا اسم الأب «ويليام شكسبير» بعد ذلك دون أن يكون أبوهم وأمههم متزوجين فعلاً؟!.. حاجة تبغى اللخبطان، ولسه بتبغىه حتى بعد نحو ٤٠٠ سنة من وفاة شكسبير وهاثاواى وبعد نحو ٣٠٠ سنة من انقراض الأسرة كلها واختفاء اسم عائلة شكسبير من كل السجلات..

وقد ظل هذا البيت تتوارثه أسرة «هاثاواى» أكثر من ٣٠٠ سنة، حتى عام ١٨٩٢ حين انقضوا تماماً بعد نحو ٣٠٠ سنة من وفاة شكسبير، فاشترته كاملاً، البيت والأثاث، مؤسسة شكسبير لتضمه إلى سلسلة بيوت شكسبير الخمسة، وتعيده إلى ما كان عليه أيام «آن هاثاواى» وزوجها «ويليام شكسبير»، وأخرجت منه كل ما كان ورثة «هاثاواى» قد أضافوه إلى البيت عندما آل إليهم.. لكن في عام ١٩٥٩، يعنى من نحو ٥٠ سنة فقط؛ شب في البيت حريق مدمر كاد أن يقضى عليه.. لكن بعد ذلك أعادت مؤسسة شكسبير البيت إلى ما كان عليه تماماً وفتحته مرة أخرى للزوار.. وأنت تتجول في بيت [آن هاثاواى] سوف تستمع إلى تسجيلات لأشعار شكسبير بأصوات كبار الفنانين المعاصرين الآن..

أيضاً لا يليق أن تزور بيت السيدة «هاثاواى» دون أن تأخذ لها شيئاً في يدك: تذكرة دخول ثمنها أكثر قليلاً من خمسة جنيهات، إلا إذا كنت لا مؤاخذه

عيل فسوف تدفع جنيهين فقط، ولو كنت من أصحاب المعاشات أو كبار السن فسوف تدفع ٤ جنيهات.. أما إذا كنت واخذ الأسرة كلها مع سعادتك فسوف تدفع ١٥ جنيهاً عن الجميع، أنت والسيدة حرمكم وكل الأولاد، والشغالة كمان إن كانت مثقفة وغاوية شكسبير وراحت معاكم..

* * *

بيت [هولز كروفت HALL'S CROFT] يقع فى منطقة [أولد تاون OLD TOWN] فى ستراتفورد على بعد خطوات من كنيسة [هولى ترينيتى HOLY TRINITY CHURCH] التى دفن فيها شكسبير وأسرته كلها: أبوه وأمه وزوجته وكل أولاده الثلاثة وزوج ابنته وزوج حفيدته.. هذا البيت يخص، أو كان يخص، ابنة شكسبير الوحيدة التى بقيت على قيد الحياة حتى كبرت وتزوجت وأنجبت: سوزانا (٢٦ مايو ١٥٨٣).. كان ثانى إنتاج لشكسبير بعد سوزانا توأم (٢ فبراير ١٥٨٥) ولد وبنت، الولد أسماه [هامنت HAMNET] مات وعمره ١١ سنة فى عام ١٥٩٦، ثم مالبثت البنت [جوديث JUDITH] أن لحقت به طفلة هى أيضاً.. لكن ابنته «سوزانا» عاشت وتزوجت من الطبيب المرموق المهيم فى ستراتفورد الدكتور [جون هول JOHN HALL] وأنجبت ابنة واحدة هى [إليزابيث ELIZABETH] الحفيدة الوحيدة لشكسبير.. «سوزانا» تزوجت دكتور «جون هول» فى عام ١٦٠٧ وكان عمرها ٢٤ سنة، فى حياة أبيها وقبل وفاته بـ ٩ سنوات، وعاشت فى البيت المسمى باسم زوجها.. وكان البيت فى بدايته بيتاً صغيراً، عندما كانت البيوت الصغيرة فى ذلك العهد تبنى لها (دورة مياه) صغيرة أيضاً فى حديقة البيت.. يعنى عندما تحتاج أن تذهب إلى دورة المياه فعليك أن تخرج من البيت وتجرى مسافة فى الحديقة حتى تصل إلى دورة المياه. «وبالحقت ياملحقتش!...» لكن ثراء الدكتور «جون هول» مكنه من أن يوسع البيت ويبنى له ملحقات كبيرة مجهزة تماماً وكأنه بيت آخر.. حاشد بالأثاثات والمقتنيات واللوحات الفنية من القرنين السادس عشر والسابع عشر.. وكان الدكتور «هول» يزرع فى حديقة البيت

بعض النباتات والأعشاب الطبية التى يصفها لمرضاه ويكتبها فى (روشتاته) لهم، فقد كان من أشهر أطباء المنطقة كلها وليس فى ستراتفورد فقط. وقد نشر هذه الوصفات الطبية من الأعشاب والنباتات فى كتاب أصدره فى عام ١٦٥٧ بعد وفاة حماته شكسبير بـ ٤١ عاماً.. ويضم البيت أيضاً فى الطابق العلوى معرضاً للأدوات والأجهزة الطبية التى كانت مستخدمة فى عيادة الدكتور «هول» فى حياته، التى لا شك تعتبر تحفاً أثرية الآن وقطعاً لم يعد أى منها يستخدم الآن فى أى شىء، لكنها تحف قديمة تمثل عصرها: القرن السادس عشر.. ومع ذلك فإن البيت يمثل بيوت الطبقة الإنجليزية المتوسطة فى ذلك الحين.. فلم يكن ويليام شكسبير على رغم شهرته، ولا زوج ابنته دكتور «هول» على رغم ثرائه وثرأ أسرته؛ يعتبران من الطبقة الأرستقراطية

وكانت البيوت فى القرى الإنجليزية فى ذلك الزمان تبنى من شرائح من الخشب التى نسميها فى مصر (الخشب البغدادلى) الذى تبنى منه (التكعيبات)، ثم تغطى هذه الشرائح الخشبية الرفيعة بطبقة من الأسمنت المخلوط بشعر الخيل أو شعر الأبقار لكى تزيده تماسكاً وقوة.. وكانت البيوت الأقوى للطبقة الأكثر ثراء تضاف إليها أعمدة خشبية متينة لكى تزيدها صلابة وقوة وتطيل فى عمرها أكثر..

أيضاً «برضه» قبل أن تدخل بيت سوزانا ودكتور جون هول [HALL'S CROFT] عليك أن تدفع ثمن تذكرة الدخول..

وبعد وفاة شكسبير، ومن بعده زوجته «آن هاثاواى»، تركت ابنته «سوزانا» وزوجها دكتور «جون هول» بيتهما ليعيشا فى البيت الذى مات فيه أبوها شكسبير، المسمى الآن [نيو بليس NEW PLACE].. فلم يكن هناك وريث لشكسبير غير زوجته وابنته الوحيدة سوزانا..

* * *

«سوزانا» ابنة شكسبير الوحيدة كان لها هى أيضاً ابنة وحيدة: «إليزابيث» الحفيدة الوحيدة لـ «ويليام شكسبير».. التى تقول سيرة شكسبير: إن زوجها

(الأول)، ابن الجيران فى البيت المجاور لبيت أسرتها، كان «توماس ناش» THOMAS NASH دون أن تذكر شيئاً عن زوجها الثانى إن كانت قد تزوجت مرة أخرى، أو ماذا حدث لزوجها (الأول)، هل مات أم طلقا.. لكن المهم هنا هو أنها عاشت هى وزوجها (الأول) فى البيت الذى سمي باسم زوجها [ناش هاوس NASH'S HOUSE] ويقع فى [تشابل ستريت CHAPLE STREET] على مقربة من [نيو بليس NEW PLACE] آخر بيت سكن فيه شكسبير ومات فيه.. لكن شكسبير لم يعيش ليحضر زواج حفيده من زوجها (الأول) لأن ابنته نفسها «سوزانا» قد تزوجت قبل وفاة أبيها بـ ٩ سنوات فقط، وبذا فإن حفيدته «إليزابيث» كانت طفلة جداً حين مات شكسبير.. [ناش هاوس] أيضاً أحد البيوت الخمسة المنسوبة لشكسبير والتي تعتبر الآن متاحف وآثاراً إنجليزية مشاهدتها لا بد وأن تكون بتذكر ورسم دخول.. ديكورات البيت من الداخل وأثاثاته قديمة جداً وفاخرة جداً تعكس مدى ثراء الزوج «ناش».. وتستطيع أن تدخل إلى حديقة البيت الكبيرة الجميلة، مجاناً، لتشاهدها بل وممكن أن تقضى فيها يوماً كاملاً أنت وأسررتك وأطفالك دون أن تدفع شيئاً.. لكن لكي تدخل البيت نفسه فعليك أن تدفع ثلاثة جنيهات ونصف إذا كنت وحدك، أو تسعة جنيهات للأسرة كلها أياً كان عددها، أو ١٧٠ بنساً فقط إذا كنت - لا مؤاخذه - طفلاً..

* * *

آخر بيوت شكسبير الخمسة كان هو البيت الوحيد الذى اشتراه شكسبير نفسه ودفع ثمنه من جيبه الخاص.. فالبيوت الأربعة الأخرى كانت إما بيت أمه وإما بيت أسرة زوجته أو بيت ابنته وإما بيت حفيدته، بل إن واحداً من هذه البيوت الخمسة لم يره فى حياته لأن حفيدته «إليزابيث» لم تتزوج إلا بعد وفاة جددها شكسبير بسنوات عديدة..

بعد أن لمع اسم شكسبير جداً فى لندن وكتب مسرحياته الرائعة الـ ٣٨ فى ١٦ سنة فقط؛ أصبح ثرياً جداً بالفعل نتيجة، أيضاً، مشاركته فى مسرح

الـ[جلوب]؛ ففي عام ١٥٩٧ اشترى لنفسه بيتاً فاخراً جداً فى منطقة [بلاك فرايزز] فى لندن بالقرب من المسرح، كما اشترى أيضاً بيتاً فى قريته ستراتفورد.. كان ثانى أكبر وأعلى بيت فى ستراتفورد كلها، ودفع فيه ٦٠ جنيهًا كاملة!!.. لكن ربما كان هذا البيت غاليًا جداً هكذا، بأسعار تلك الأيام، لأنه كان البيت الوحيد فى القرية كلها المبنى من الطوب والحجر وليس من الأخشاب كالاعتاد فى بيوت ذلك العصر.. ولأن شكسبير كان وقتها لازال يعيش فى لندن العاصمة يكتب مسرحياته الرائعة ويباشر تمثيلها وعرضها على مسارح لندن؛ فقد كان يتردد على هذا البيت بين حين وآخر.. البيت اسمه [نيو بليس NEW PLACE] فى شارع [تشيرش ستريت CHURCH STREET]، كان قد بناه رجل الأعمال الثرى وهيو كلوبتون» - عمدة لندن فيما بعد - فى عام ١٥٤٠، يعنى قبل مولد شكسبير نفسه بربع قرن، وكان عمر البيت حين اشتراه شكسبير ٥٧ سنة، لذا فقطعاً لم يكن شكسبير أول من سكن فيه..

فى عام ١٦٠٧ أصيب شكسبير بوعكة صحية شديدة، ربما بسبب وفاة أخيه الأصغر [إدموند EDMUND] الذى كان ممثلاً مسرحياً أيضاً ومات فجأة وعمره ٢٧ سنة.. وحزن شكسبير عليه حزناً شديداً حتى إنه بدأ يفكر فى الاعتزال، وربما يفكر فى الموت.. وحتى قرر فى النهاية أن يتقاعد عن الكتابة فى عام ١٦١٠ وعمره ٤٦ سنة فقط، فترك لندن وعاد إلى قريته وبيته فى ستراتفورد الذى اشتراه قبل ١٣ سنة.. لكن تقاعده كان عن الكتابة فقط، فخلال السنوات الست بين تقاعده ووفاته راجع وأعد عدداً من مسرحياته القديمة للنشر فى مجلدات، لكنها لم تنشر بالفعل إلا بعد وفاته بسبع سنوات، فى عام ١٦٢٣..

* * *

فى ٢٣ أبريل عام ١٦١٦ احتفل ويليام شكسبير بعيد ميلاده الـ ٥٢ فى سهرة مع صديقيه المقربين [بن جونسون BEN JONSON] و[مايكل درايتون MICHAEL DRAYTON] وكلامهما كاتب مسرحى أيضاً.. وقيل: إنه قد (تَقَلَّ فى الشرب)

ليلتها فمات فى نفس يوم عيد ميلاده.. ولد فى ٢٣ أبريل ١٥٦٤ ومات فى ٢٣ أبريل ١٦١٦..

ودفن شاعر إنجلترا العظيم فى نفس الكنيسة التى تم تعميده طفلاً فيها.. وحفر على شاهد قبره ٤ أبيات من الشعر كتبها بنفسه - قبل وفاته طبعاً - كانت هذه الأبيات تقول:

GOOD FRENDR FOR JESUS SAKE FOREBEARS
TO DIGG THE DUST ENCLOSED HEARE
BLESTE BE YE MAN SPARES THES STONES
AND CRUST BE HE YT MOVES MY BONES

ويبدو لى هنا شيئان: الأول أن اللغة الإنجليزية قد تغيرت كثيراً الآن عما كانت أيام شكسبير.. وأنا أتصور ذلك فعلاً.. فإن هناك عدداً من الكلمات فى هذه الأبيات الشعرية الأربعة لم أفهمها، ولم أجد لها أى معنى فى القاموس الإنجليزي/إنجليزي الحديث جداً الذى أتعامل معه.. ثانياً: هل كان شكسبير لسبب أو لآخر يعلم بدنو أجله وأنه قد يموت عاجلاً فى لحظة ما قد تأتى فجأة؛ حتى إنه أعد هذه الأبيات فى حياته وجعلها وأوصى بأن تحفر على شاهد قبره!..؟

ولم أستسلم لفكرة أن أقرأ شيئاً بالإنجليزية لا أفهمه، حتى لو كان الذى كتبه هو شكسبير نفسه، فلجأت إلى صديقى أستاذ الأدب الإنجليزي الدكتور «تيسير محمد كاملة»، وله كتاب ضخم عن ٤٨ شاعراً من الشعراء الإنجليز بين عامى ١٥٥٠ - ١٩٥٠، ترجم فيه ٢٠٠ قصيدة من أشعارهم إلى اللغة العربية، يعنى بمتوسط ٤ قصائد لكل شاعر منهم، لكن شكسبير وحده كان له ٢٤ قصيدة.. الذى أكد لى أن اللغة الإنجليزية قد تغيرت كثيراً بالفعل عن أيام شكسبير.. وترجم لى هذه الأبيات الأربعة المحفورة على شاهد قبر شكسبير بأنها تقول ما معناه:

حلفتك، يا صاحبي، بالمسيح

ألا تنبش التراب المدفون فى هذا الضريح

بوركت يا من حفظت هذه الحجارة فى حفرتها هذه

ولتحل اللعنة على كل من ينقل عظامي من تحت هذه الحجارة
وقد تهدم هذا الشاهد - شاهد القبر - تماماً في عام ١٨٣٠، يعنى بعد
وفاة شكسبير بـ ٣١٤ سنة، وأعيد إقامة شاهد جديد فى نفس المكان - طبعاً
- فى نفس العام.. وأيضاً أقيم على مقربة تمثال نصفى لشكسبير قيل: إنه يمثل
الصورة الوحيدة الحقيقية لشكل شكسبير، فلم يكن التصوير الفوتوجرافى قد اخترع
بعد.. وهى نفس الصورة، أقصد الرسم، التى نشرت مع مجموعة الأعمال الكاملة
لمسرحيات شكسبير التى نشرت فى عام ١٦٢٣ بعد وفاته بسبع سنوات..

* * *

كلام كثير قيل عن أن شكسبير لم يكن سعيداً فى حياته الزوجية مع «آن
هاثاواى»، التى كانت تكبره بـ ٨ سنوات كما ذكرت قبلاً.. ويبدو أنهما كانا
منفصلين بشكل أو بآخر.. ويبدو أيضاً أنه أراد أن يشعرها بالإهانة والاحتقار
وبكراهيته لها حتى بعد وفاته.. فقد أوصى شكسبير فى وصيته بالبيت، وبكل
ممتلكاته، لابنته سوزانا ولم يترك لزوجته غير السرير الذى فى غرفة نومه +
المرتبة والملايات!!.. بما معناه (إشبعى بيه وحدك بعد وفاتي، وفقط حتى لا تنامى
على الأرض).. ولست أنا وحدى الذى راح إلى ذهنى هذا خاطر السيء؛ لكن
الذين أרךوا لشكسبير قالوا نفس ما شعرت به أنا حين قرأت تلك الوصية الغريبة
الساخرة.. وهو أن شكسبير وزوجته التى كان عمرها ٦٠ سنة حين مات؛ لم يكونا
سعيدين فى حياتهما الزوجية، على رغم انجابهما لثلاثة أبناء: سوزانا ثم التوأم
هامنت وجوديث اللذين ولدا بعد سوزانا بستين.. ولم يعيش التوأم طويلاً فقد ماتا
طفلين: هامنت أولاً وبعده جوديث..

لكن القانون الإنجليزى فى ذلك العصر كان يعطى الزوجة - على رغم الوصية
- الحق فى ثلث ما يتركه الزوج المرحوم + أن تظل تعيش فى بيت الزوجية حتى
تموت.. وكانت سوزانا رحيمة بأمها، فتركتها تعيش فى هذا البيت فعلاً حتى
ماتت بعد شكسبير بـ ٧ سنوات، فى عام ١٦٢٣..

* * *

ورثت هذا البيت سوزانا الابنة الوحيدة لشكسبير.. التى استضافت فيه لفترة - بعد وفاة أبيها بأكثر من ٤٠ سنة - ملكة إنجلترا زوجة الملك «تشارلز الأول» فى خلال الحرب الأهلية الإنجليزية التى انتهت بأن قطع الفائر الإنجليزي عضو البرلمان «أوليفر كرومويل» رأس الملك «تشارلز الأول» ونصب نفسه رئيساً لجمهورية إنجلترا لمدة ١١ سنة فقط (١٦٤٩ / ١٦٦٠) حتى مات فعادت الملكية إلى إنجلترا أو عادت إنجلترا إلى الملكية مرة أخرى بقولى العرش الملك «تشارلز الثانى» ابن «تشارلز الأول»..

وحين ماتت «سوزانا» نفسها بعد ذلك بسنوات آل البيت إلى ابنتها الوحيدة «إليزابيث»، حفيدة شكسبير الوحيدة التى ماتت وهى طفلة.. ولما كان بيتها [ناش هاوس NASH'S HOUSE] يفصل بينه وبين بيت جدتها [نيو بليس NEW PLACE] مسافة قليلة، فقد ضمت «إليزابيث» البيتين معاً وجعلت بينهما ممشى صغيراً.. ومن وقتها حمل البيتان الاسمين معاً: [ناش هاوس / نيو بليس NASH'S HOUSE].. [NEW PLACE]..

* * *

ثم، حين ماتت «إليزابيث» أيضاً؛ عاد البيت إلى أسرة «سير جون كلوبتون JOHN CLOPTON»، الذى كان والده «هيو كلوبتون» - عمدة لندن العاصمة فى وقت ما، هو الذى بناه فى الأصل.. وأجرى «سير جون كلوبتون» تعديلات كبيرة فى البيت.. ولأنه كان من معجبيه شكسبير فقد فتح البيت أمام الزوار والسياح ليزوروا ويشاهدوا أين وكيف عاش شكسبير سنواته الأخيرة، هو، ثم زوجته، ثم ابنته، ثم حفيدته..

* * *

ثم، بعد وفاة الجميع؛ اشترى البيت قس متعصب دينياً اسمه [فرانسيس جاستريل FRANCIS GASTRELL] لم يكن على نفس القدر من التقدير والوفاء لذكرى شاعر إنجلترا العظيم، وضاق وزهق من كثرة السياح الذين يأتون من كل

مكان في العالم ليشاهدوا ويزوروا بيوت شكسبير، خصوصاً البيت الذي مات فيه.. فذات ليلة في عام ١٧٥٩، يعنى بعد ١٤٣ سنة من وفاة شكسبير، (طلعت الجنونة) فجأة في دماغ القس «جاستريل»، فعلى رأى ومسمع من كل الجيران راح يجتث كل أشجار الحديقة التي كان شكسبير قد زرعها بنفسه، ثم إنذار على البيت نفسه فبدأ يهدم فيه.. وغضب أهالي ستراتفورد غضباً شديداً على القس المجنون فراحوا يقذفون نوافذ البيت بالحجارة والقس معتم في داخله أو فيما بقى منه.. وتبتهت الإدارة المحلية للمدينة لما يحدث بعد فوات الوقت وكان البيت كله قد أصبح أنقاضاً على الأرض تماماً.. فتم طرد القس المجنون «فرانسيس جاستريل» هو وأسرته كلها من ستراتفورد طرداً عنيفاً، ومنذ ذلك الوقت لم يعد يسمح لأى حد يحمل لقب «جاستريل» بأن يعيش في ستراتفورد كلها!!..

وفى بدايات القرن الـ ١٧ أعيد في نفس المكان بالضبط بناء بيت صورة طبق الأصل لما كان عليه البيت القديم [NEW PLACE] ومن نفس مواد البناء تماماً.. وآلآن، فى الطابق العلوى من البيت متحف تاريخ ستراتفورد نفسها منذ بداية ظهورها على خريطة إنجلترا، مروراً بفترات الرومان والأنجلو / ساكسون فى تاريخ إنجلترا، وانتهاءً بأيام شكسبير فقط حتى وفاته فى عام ١٦١٦..

وعلى مقربة من كل بيوت شكسبير توجد الحديقة التذكارية لشكسبير المقام فيها تمثال له، والتي كان شكسبير فى سنواته تقاعده الأخيرة يقضى فيها ساعات طويلة مسترخياً ربما لا يفكر فى شيء على الإطلاق..

* * *

انتهينا من زيارة كل بيوت شكسبير الخمسة.. شيء أريدك أن تعرفه إذا كنت تنوى أن تزور ستراتفورد وطبعاً ستزور بيوت شكسبير كلها.. فبدلاً من تدفع ثمن تذكرة الدخول عند مدخل كل بيت؛ فإنك تستطيع أن تشتري تذكرة واحدة كأنها (أبونية) تتيح لك زيارة كل بيوت شكسبير + متحف شكسبير أرخص كثيراً مما لو اشتريت تذكرة لكل بيت.. لو حضرتك وحدك ستدفع ١٣ جنيهًا، ومثلها عن زوجتك، أو ستة جنيهات ونصف للطفل الواحد، أو ٢٩ جنيهًا للأسرة كلها حتى

لو فيها ١٠ أطفال، أو ١٢ جنيهاً للمتقاعدين وكبار السن وأصحاب المعاشات.. لكنك ستزور كل بيت مرة واحدة فقط.. فإذا كانت زيارة حضرتك لستراتفورد ليوم واحد أو لعدة ساعات ولم يتسع وقتك لزيارة كل بيوت شكسبير الخمسة فى ذلك اليوم؛ فضع التذكرة فى محفظتك أو فى جيبك لكى تجىء مرة أخرى فى أى يوم آخر ولو بعد ١٠٠ سنة لتزور بقية بيوت شكسبير التى لم تزرها فى المرة السابقة..

بالمناسبة: لا يسمح بدخول من هم أقل من ١٦ سنة إلا إذا كانوا «مصحوبين بحد كبير». وهذا الحد الكبير عندهم هو أن يكون عمره ١٧ سنة فما فوق!!..

* * *

وداعت شهرة شكسبير بعد وفاته أكثر كثيراً مما كانت فى حياته.. ففى حياته كانت شهرته قاصرة على إنجلترا وحدها، لكنها الآن شهرة عالمية قائمة ومستمرة ومتزايدة، بعد أكثر من ٣٩٠ سنة على وفاته.. وإن كان ذلك لم يمنع من أنه فى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر قد (روجعت) مسرحياته وأشعاره وامتدت إليها أقلام كتاب آخرين لتخفيف حدة وشدة أسلوبه فى كتاباته، وحذفت بعض الفقرات التى اعتبرت (غير مقبولة) وقتها، وكانت تتناول الجنس والحب غير العفيف!..! وأيضاً لـ (تخفيف) وتبسيط لغتها التى كانت تناسب العصر الذى كتبت فيه وتصبح مفهومة وسهلة لنا نحن الذين لم نعش عصر شكسبير وقد لا نفهم (بعض) لغته.. لكن، مع ذلك، يظل «ويليام شكسبير» حتى الآن واحداً من أهم رموز الثقافة الإنجليزية والأدب الإنجليزي والشعر الإنجليزي والمسرح الإنجليزي.....

* * *

وأيضاً، لابد أن أذكر هنا من باب أمانة التأريخ.. فقد هوجم شكسبير كثيراً فى حياته وبعد مماته.. فلأن (الفشل يكون يتيماً والنجاح له ألف أب)؛ فقد ادعى الكاتب المسرحى «روبرت جرین» فى حياة شكسبير أن شكسبير ليس هو الذى

يكتب مسرحياته وإنما (يقتبس) من مسرحيات غيره من الكتاب.. وادعى أيضاً عدد كبير من كتاب المسرح فى عهده أنهم المؤلفون الحقيقيون لمسرحياته ، بل ووصل الادعاء إلى أنه لا يوجد أصلاً شخص اسمه شكسبير وأنهم جميعاً يستخدمون هذا الاسم وكأنه اسم حركى فى جمعية سرية !! .. لكنهم جميعاً لم يستطيعوا أن يثبتوا ذلك ، فكل الذين اتهموه لم ينجحوا النجاح الذى نجحه ولم يلمعوا قدر لعانه هو عندما كتبوا بأسمائهم.. كما حدث عندنا فى مصر حين ادعى ملحن مغمور لم نسمع له أغنية واحدة بأنه هو الذى وضع ألحان محمد عبد الوهاب الشهيرة مثل (الجنود) و (الكرنك) و (كليوباترا) وغيرها !! .. بل ووصل الأمر فى محاربة شكسبير ومحاولة التقليل من قيمته أن كاتباً ولد بعد وفاة شكسبير بأكثر من ١٥٠ سنة قال : إنه هو الذى كتب كل مسرحيات شكسبير !! .. «مجانين الشهرة وأعضاء جمعية مكافحة المواهب لم يستطيعوا أن ينالوا من عظمة شكسبير ومجده وما لبثوا أن راحوا فى الظلام...».



أيضاً قيل : إن شكسبير لم يكن يجيد القراءة والكتابة لضعف تعليمه وإنه لم يستمر فى المدرسة فترة كافية ليتعلم شيئاً ؛ حتى إنه قد وقع على وصيته ٣ مرات بثلاثة توقيعات كل منها بتهجية إملائية مختلفة ، وأيضاً لأن هذه التوقيعات الثلاث كانت هى الشيء الوحيد بخط يد شكسبير الذى عثر عليه ، حتى مسرحياته وأشعاره لم تكن مكتوبة بخط يده شخصياً !! ..

وأتصور أننى شخصياً أستطيع أن أرد عن شكسبير فى هذا الاتهام.. فعلاً بعض الناس قد لا يجيدون القراءة والكتابة لكنهم يجيدون الارتجال ، ويجيدون الإملاء على غيرهم ، سكرتير أو سكرتيرة مثلاً.. النبى محمد صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ومع ذلك فقد أُملى القرآن كله على عدد من الكتبة بلغة عربية فصيحة ، وظل هو نبياً وظلوا هم مجرد كتبة.. الدكتور «طه حسين» عميد الأدب العربى كان كفيفاً ، وبالتالي لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك فاز ببعثة إلى

السوربون فى باريس لم يفز بها المبصرون ، وأملى رسالته للدكتوراة باللغة الفرنسية على زوجته الفرنسية «سوزان» ، ثم بعد عودته إلى مصر أملى على سكرتيره «فريد شحاتة» - وقبله وبعده آخرين - روائعه الأدبية ورواياته العديدة ، وكانت أحاديثه فى الراديو (حديث الأربعاء) يلتف المستمعون حولها ليسمعوا أدباً عظيماً وصوتاً رخيماً مؤثراً معبراً.. فلا يعيب شكسبير ، بفرض صحة الاتهام ، أنه لم يكن يكتب مسرحياته بخط يده وإنما أملاها على آخرين ، أو أنه لم يكن يجيد اللغة الإنجليزية ويخطئ فى الإملاء.. فماذا فعل الشاطرين فى اللغة الإنجليزية وخطهم حلو وكتبوا مسرحياتهم بخطهم هم؟!.. هل نجحوا قدر نجاح شكسبير أبو خط وحش؟!.. هل يتذكر أحد أسماءهم الآن؟!.. أيضاً حدث مع الدكتور «طه حسين» أن ادعى سكرتيره بأنه هو المؤلف الحقيقى لكتب وروايات طه حسين.. فماذا كتب إذن بعد أن إستغنى طه حسين عن خدماته؟!.. لا شئ على الإطلاق لأنه كان مجرد سكرتير يجيد القراءة والكتابة وخطه حلو فقط لا غير ، وعاش بعدها فى الظلام حتى مات..

* * *

قبل أن أنهى زيارتى لـ [ستراتفورد - أبون - إيقون] شئ طريف جداً لابد أن أذكره هنا ، متعلقاً بشكسبير أيضاً : [مركز شكسبير SHAKESPEARE CENTRE] ، فى الأرض الفضاء المحيطة به مساحة كبيرة مسقوفة مجهزة ، بحيث يمكن أن يعقد فيها مؤتمر أو اجتماع كبير أو حفلات استقبال أو حتى حفلات غداء أو عشاء لمجموعات كبيرة.. ولهواة التقاليع والحركات والمنظرة الذين يرغبون فى أن يدخل شكسبير فى حياتهم وذكرياتهم إلى الأبد : فحضرتك تستطيع أن تقيم حفل عقد قرانك أو حفل زفافك فى قاعة مركز شكسبير فى ستراتفورد.. كما تقام عندنا فى مصر حفلات الزفاف فى الفنادق الكبيرة وفى قاعات الأفراح فى الأندية ، خصوصاً أندية القوات المسلحة.. الفرق أنك سوف تتزوج على أرض شكسبير وكل ما حولك شكسبير!!!

قبل أن أترك ستراتفورد وأترك شكسبير لأعود إلى لندن؛ خاطر كان يلح على ذهني من زمان جداً منذ أن بدأت أقرأ لشكسبير وعن شكسبير وأنا تلميذ في ثانوى، وكنت أتوقع أن أجد له إجابة فى ستراتفورد لكن ذلك لم يحدث: فقد أدهشنى، ومش عارف لماذا لم يدهش كل الذين أرخوا لحياة شكسبير: لماذا يعتزل الكتابة شاعر وكاتب مسرحى كبير بحجم شكسبير وهو فى السادسة والأربعين من عمره؟!.. بعد أن كان قد كتب كل مسرحياته العظيمة الرائعة الـ ٣٨ فى ١٨ سنة فقط، بمتوسط مسرحيتين ونصف كل سنة، من سن ٢٩ سنة إلى سن ٤٦ سنة.. وهو رقم قياسى فى إنتاج الأدب والمسرح.. فالأديب أو الكاتب المنتظم جداً الذى يكتب باستمرار؛ يكتب رواية واحدة أو مسرحية واحدة أو كتاباً واحداً فى السنة.. أما أن يكتب شكسبير ٥ مسرحيات كل سنتين فذلك إنتاج غزير وغزير جداً.. ثم فجأة وكأنه انقطاع التيار الكهربائى أو أن (بطارياته خلصت) فجأة؛ لم يعد قادراً على أن يكتب شيئاً، أى شىء.. ثم يترك لندن كلها ليعود ليتوارى فى قريته ستراتفورد، ليس لكى يشحن بطارياته ويعود ليكتب من جديد؛ إنما ليقضى ٦ سنوات كاملة لا يفعل شيئاً على الإطلاق ولا يكتب حرفاً واحداً؛ وهو فى سن السادسة والأربعين، أنضج سنوات العطاء عند أى فنان، حتى يموت بعد ٦ سنوات خاملة خامدة تماماً.. ذلك هو السؤال الذى لازال يحيرنى حتى الآن، وأظن أنه سوف يظل يحيرنى حتى ألحق بشكسبير أينما هو الآن، فربما يجيب عن تساؤلى..

* * *

حسين قدرى

الاسم بالكامل «حسين قدرى محمد محمود».. واسم الشهرة «حسين قدرى»، وهو اسمه الشخصى، فوالده هو «محمد محمود» وليس «قدرى».. مصنف ككاتب أدب رحلات لأن معظم كتبه المنشورة - ١٨ كتاباً - فى أدب الرحلات ماعدا كتابين فقط: كتاب عن الزعيم جمال عبد الناصر كتبه بعد وفاته - وفاة جمال عبد الناصر طبعاً وليس وفاة حسين قدرى - ومجموعة قصص للأطفال كتبها هدية لابنته فى عيد ميلادها العاشر..

ولد فى مدينة بلبيس فى محافظة الشرقية فى أول يناير ١٩٣٤، لأب مصرى وأم نصف تركية شديدة المصرية.. وهو الوحيد بين إخوته الثلاث الذى ولد خارج القاهرة، لأن الأب كان موظفاً ينتقل بين أقاليم مصر.. وعاش حسين قدرى فى بلبيس حتى دخل المدرسة الابتدائية فبقى سنة أولى ابتدائي فقط فى مدرسة بلبيس الابتدائية، وكان جاره فى نفس (التخة) فى فصل أولى أول هو التلميذ الصغير «مجدى يعقوب» - الـ «سير» مجدى يعقوب جراح القلب العالمى فيما بعد - قبل أن تنتقل الأسرة إلى القاهرة مع بداية الحرب العالمية الثانية.. وحين حصل على الشهادة الابتدائية كان ترتيبه السابع على (المملكة المصرية)، فلم يكن اسمها (جمهورية مصر) فى ذلك الحين.. وكان بينه وبين الأول ٣ درجات فقط، وحصل فى مادة (الرسم) على ٤ درجات من ٢٠، وكانت الـ ٤ درجات هذه هى النهاية الصغرى لأنه كان - ولازال - أخيب بنى آدم فى العالم فى الرسم، ولو كان شاطر فى الرسم شوية وحصل على ٨ درجات فقط من ٢٠ لكان ترتيبه الأول على الشهادة الابتدائية ودخل تاريخ الأسرة شئ، يُفتخر به..

أخذ حب القراءة عن أمه التى كانت مكتبتها الصغيرة، الرومانسية كلها، أهم ركن فى البيت، وكانت (حواديت قبل النوم) لطفلهما الصغير هى (ماجدولين) أو (تحت ظلال اليزفون) و (غادة الكاميليا) و (أنا كارنينا) و (مدام بوفارى) و (نساء صغيرات) و (روميو وجولييت) و (نانا) و (سيرانو دى بيرجيراك) و (الفرسان

الثلاثة).. وحين كان فى الثانية عشرة من عمره قرأ كتاب (أمريكا الضاحكة) لـ«مصطفى أمين» فانبهر به وبأسلوبه، فقرر أن يكتب كتاباً مثله حين يكبر.. وهكذا كان..

فى مرحلة الدراسة الثانوية درّس له عدد من المدرسين أصبح معظمهم نجوماً فيما بعد: «نور الدمرداش» درس له اللغة الإنجليزية، «على أحمد باكثير» درس له اللغة العربية، «نظيم شعراوي» كان مدرس التربية الرياضية، ودرس له مادة التاريخ «الأستاذ أحمد حسين الصاوى» الذى أصبح بعد ذلك «الدكتور أحمد حسين الصاوى» أشهر أساتذة الصحافة أكاديمياً فى العالم العربى..

عاش طفولته كلها وصباه ومطلع شبابه فى حى السيدة زينب الذى يعتبره أجمل وأعرق أحياء مدينة القاهرة، وتنقل بين بيوته القديمة العريقة فى (شارع التلؤل) و (درب البهلوان) و (حارة البهلوان).. ولازال يحتفظ حتى الآن بصداقات الطفولة والصبا التى نشأت معه فى السيدة زينب، ولازال رفاق شلته القديمة يجتمعون فى بيته القاهرى مساء الخميس كل أسبوع حتى الآن كلما كان فى إجازة فى مصر.. وفى حى السيدة زينب اجتذبتّه الرياضة فى مرحلة مبكرة من حياته قبل أن تجتذبه الصحافة والأدب، فبدأ يلعب كرة السلة فى [نادى السيدة زينب لأبناء الشعب]، الشهير بـ [نادى شفشق] ومنه انطلق إلى النادى الأهلى فنادى الزمالك فالنادى الأهلى مرة أخرى، حيث رأس فريق كرة السلة فى الناديين لسنوات طويلة، حتى أخذته الصحافة تماماً من الرياضة بعد تخرجه بـ ٤ سنوات..

تخرج عام ١٩٥٤، وعمل مهندساً لمدة ٤ سنوات.. ويقول عن نفسه إنه لو كان قد استمر فى العمل فى الهندسة لكان قد حصل على جائزة الدولة التقديرية كأخيب مهندس فى مصر، ويمكن فى العالم.. حتى توفيت أمه التى كان يحبها كثيراً ويحترمها كثيراً ولم يكن ليعصى لها أمراً، ولو كانت قد طلبت منه أن يحمل جبل المقطم على كتفه وينقله من القاهرة إلى أسوان لفعل دون تردد.. ولم تكن أمه تريده أن يتحول من مهندس إلى صحفى.. وفى اليوم التالى لوفاتها طلق الهندسة بالثلاثة

وأصبح صحفياً محترفاً.. كانت بداية تعلقه بالصحافة من خلال مجلة أطفال اسمها مجلة [الببلبل] وهو تلميذ صغير عمره ١٢ سنة، كتب فيها صفحة بعنوان [الركن الثقافي] كانت كلها ترجمات عن مجلات الأطفال الإنجليزية .. واستمر ذلك عدة سنوات طيلة مرحلة دراسته الثانوية.. ثم كانت البداية الحقيقية كصحفي محترف فى عام ١٩٥٨ فى مجلة [التحرير] التى كانت تصدر عن (دار الجمهورية) .. وعمل وكتب فى جميع الصحف والمجلات المصرية، ووكالة أنباء الشرق الأوسط.. حتى استقر فى النهاية فى مجلة [الإذاعة والتليفزيون]، وفيها اكتشف نفسه ككاتب أدب رحلات ونشر معظم رحلاته الصحفية التى تحولت إلى كتب صنعت شهرته ووضعت اسمه على رأس قائمة أشهر كتاب أدب الرحلات فى مصر والعالم العربى.. وفى عام ١٩٩٤ اعتزل الصحافة وتفرغ لكتابة المزيد من الكتب..

فى عام ١٩٧٧ - بعد ٢٠ سنة من إعداد وتقديم برامج فى إذاعات القاهرة - أصبح أول مراسل للإذاعة المصرية فى أمريكا ثم فى أوروبا، وقدم [حسين قدرى يحييكم من لندن] الذى استمر ١٦ سنة، حتى، مرة أخرى استغرقته الكتابة فترك الراديو.. ومن وقتها وهو يعيش فى إنجلترا حتى الآن - ٣١ سنة - وحصل على الجنسية الإنجليزية عام ١٩٨٣ دون أن يتنازل عن جنسيته المصرية .. وفى إنجلترا عاش أهم وأكبر تجربة فى حياته الصحفية، تجربة الهجرة، سجلها فى كتبه: [مذكرات شاب مصرى يغسل الأطباق فى لندن] و[مذكرات مهاجر مصرى فى لندن] و [حكايات لندنية] و [حكايات أوروبية]، وقبلها عاش (أخطى) تجربة فى حياته الصحفية والأدبية حين عاش على سطح المحيط الأطلنطى لمدة شهرين لم ير فيهما إلا الماء والسماء والسمك، وسجلها فى كتابه [راكبان على السفينة] ثم [يوميات سفينة مجنونة]..

فى لندن عمل أيضاً فى الصحافة العربية التى كانت قد بدأت تصدر فى لندن بشكل مكثف ابتداءً من أواخر السبعينيات: نائب رئيس تحرير جريدة [العرب] اليومية، مدير التحقيقات الصحفية فى جريدة [المنار] الأسبوعية، محرر صفحات

الفن فى مجلة [الدستور] الأسبوعية، مدير تحرير مجلة [الحوادث] الأسبوعية،
المحرر الأول لمجلة [المسلمون] الأسبوعية، مراسل مجلة [الحياة السياحية] فى
لندن، وكانت المجلة تصدر من باريس، وكاتب فى مجلة [الشرق الأوسط] فى
لندن..

عضو نقابة الصحفيين المصريين، واتحاد كتاب مصر.. وعضو نقابة الصحفيين
الإنجليز، عضو اتحاد الصحفيين العرب، واتحاد الصحفيين العالمى..

* * *

كتبه للمؤلف:

- رحلة إلى جزر كناريا. دار المعارف - ١٩٧٣.
- مذكرات شاب مصرى يغسل الأطباق فى لندن دار المعارف - ١٩٧٤.
- وطبعة ثانية - ١٩٧٥.
- رحلة إلى دولة ترانزستور دار الشعب - ١٩٧٤.
- راكبان على السفينة كتاب اليوم - ١٩٧٥.
- وطبعة ثانية - ١٩٩٧.
- هو والذين كانوا معه القاهرة للثقافة العربية - ١٩٧٦.
- وطبعة ثانية - ٢٠٠٠.
- هروب إلى الفضاء (رواية). دار المعارف - ١٩٨١.
- مغامرات خالد (قصص أطفال). وطبعة ثانية - ١٩٩٩.
- دار الهلال - ١٩٨٥.
- مذكرات سائح مصرى فى مصر وطبعة ثانية - ١٩٩٨.
- يوميات سفينة مجنونة دار المعارف - ١٩٩٢.
- حكايات أوروبية دار التعاون - ١٩٩٣.
- حكايات لندنية دار الشعب - ١٩٩٦.
- مذكرات مهاجر مصرى فى لندن الثقافة الجماهيرية - ١٩٩٧.
- حكايات صحفية دار الأمل - ٢٠٠٥.
- عبد الناصر.. والذين كانوا معه دار الأمل - ٢٠٠٦.
- أيام من حياتهم.. كتاب الجمهورية - ٢٠٠٧.
- ليست لندن وحدها كتاب الجمهورية - ٢٠٠٨.
- لعبة الأيام.. حكاية صورة قديمة دار المعارف - ٢٠٠٨.
- حكايات من الشرق والغرب الهيئة العامة للكتاب - ٢٠٠٨.
- الكتاب الفضى - ٢٠٠٨.

كتب جاهزة للطبع:

- بهيجة.. بنت الباشا الوزير
- مذكرات مهاجر مصرى - فى مصر..
- حكايات أوروبية - الأجزاء الثانى والثالث والرابع..
- لارا.. اعترافات امرأة متزوجة - [رواية باللغة الإنجليزية]
- حكاية بنت اسمها مخالى - اعترافات امرأة مطلقة [رواية باللغة الإنجليزية]
- رسائل من المهجر..
- المهاجرون..
- أوراق قديمة
- ١١٧ يوم فى الصحراء..
- صعلكة فى بيروت .. بيروت ٧١..
- يوميات أمريكية..
- ٣٠ سنة فى المهجر.. إنجلترا..
- مذكرات زوجة أجنبية فى مصر..
- الصندوق الأسود.. [رواية من الخيال العلمى]..

الفهرس

الصفحة

الإهداء.....	٣
مقدمة.....	٥
جامعة أوكسفورد الجامعة التى أشهر شخصياتها: ملك، وعجلاتى، وممثل، ولورانس العرب!!.....	٧
جائزة أشهر خريجى جامعة كمبريدج.. قطع رقبتة!!.....	٢٧
برمنجهام المدينة التى أشهر أبنائها: مخترع، ومفكر، ومجنون!!.....	٦٥
كل العرب فى ليفربول.....	١١١
عدد المساجد فى بريطانيا ثلث عددها فى القاهرة!!.....	١٢٧
أقدم مسجد فى بريطانيا.. وكونج.....	١٤٣
أحدث مسجد فى بريطانيا: كنيسة!!.....	١٥٣
وهل هناك أشهر من شكسبير؟.....	١٦٧
حسين قدرى.....	٢٠٤

